لجامعات المدينة
(الدعوة الإسلامية)

منتخب الأبواب

(ذم الحسد والجاه والرياء والكبر والعجب)

من

إحياء علوم الدين

تأليف

للإمام أبي حامد
محمد بن محمد الغزالي عليه رحمة الله الوالي
المتوفى ٥٠٥ھ

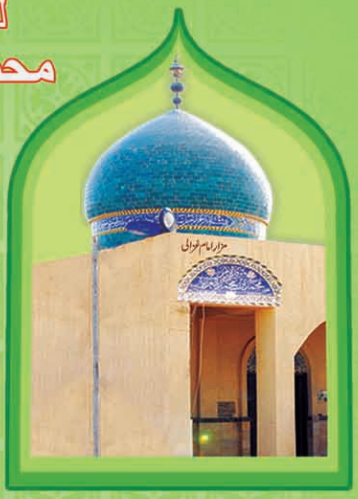

المدينة العلمية
(دعوتِ اسلامی)
(شعبۂ درسی کتب)

﴿وَذَرُوْا ظَاهِرَ الْاِثْمِ وَبَاطِنَهٗ﴾ (الأنعام: ۱۲۰)

(اور چھوڑ دو کھلا اور چھپا گناہ۔ کنز الایمان)

لجامعات المدينة
(الدعوة الإسلامية)

منتخب الأبواب

(ذم الحسد والجاه والرياء والكبر والعجب)

من

إحياء علوم الدين

تأليف:

للإمام أبي حامد **محمد بن محمد الغزالي** عليه رحمة الله الوالي

المتوفّى ۵۰۵هـ

www.dawateislami.net

الموضوع: **التصوف**

العنوان: **منتخب الأبواب من إحياء علوم الدين**

الحاشية: **من المدينة العلمية**

الإشراف الطباعي: **مكتبة المدينة** كراتشي باكستان

التنفيذ: **المدينة العلمية** (الدعوة الإسلامية)

شعبة الكتب الدراسية

عدد الصفحات: ١٧٨ صفحة

جميع الحقوق محفوظة للناشر، يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكلّ طرق الطبع والنقل والترجمة، والنسخ والتسجيل الميكانيكي أو الإلكتروني أو الحاسوبي إلاّ بإذن خطي من:

مكتبة المدينة، كراتشي، باكستان

هاتف: **+92-21-4921389/90/91**

فاكس: **+92-21-4125858**

البريد الإليكتروني: **ilmia@dawateislami.net**

الطبعة الأولى

ذوالحجة-١٤٣٣هـ

نومبر-٢٠١٢ء

يطلب من: مكتبة المدينة بكراتشي. أفنان مكتبة المدينة للطباعة والنشر والتوزيع.

مكتبة المدينة: كراچی، شهيد مسجد كهارادر باب المدينه كراچی. هاتف:٣٢٢٠٣٣١-٠٢١.

مكتبة المدينة: لاهور، دربار ماركيٹ، گنج بخش روڈ. لاهور. هاتف: ٣٧٣١١٦٧٩-٠٤٢.

مكتبة المدينة: سردار آباد (فيصل آباد): أمين پور بازار. هاتف: ٢٦٣٢٦٢٥-٠٤١.

مكتبة المدينة: كشمير، چوک شهيدان، مير پور. هاتف: ٣٧٢١٢-٠٥٨٢٧٤.

مكتبة المدينة: حيدر آباد: فيضان مدينه آفندي ٹاؤن. هاتف: ٢٦٢٠١٢٢-٠٢٢.

مكتبة المدينة: ملتان،نزد پيپل والی مسجد، اندرون بوہڑ گيٹ. هاتف: ٤٥١١١٩٢-٠٦١.

مكتبة المدينة: اوكاڑه، كالج روڈ بالمقابل غوثيه مسجد، نزد تحصيل كونسل هال. هاتف: ٢٥٥٠٧٦٧-٠٤٤

مكتبة المدينة: راولپنڈی: فضل داد پلازه، كميٹی چوک اقبال روڈ. هاتف:٥٥٥٣٧٦٥-٠٥١.

مكتبة المدينة: خان پور، درانی چوک نهر كناره، هاتف: ٥٥٧١٦٨٦-٠٦٨.

مكتبة المدينة: نوابشاه: چكرا بازار، نزد MCB . هاتف: ٤٣٦٢١٤٥-٠٢٤٤

مكتبة المدينة: سكهر: فيضان مدينه بيراج روڈ . هاتف: ٥٦١٩١٩٥-٠٧١

مكتبة المدينة: گجرانواله: فيضان مدينه شيخوپوره موڑگجرانواله. هاتف: ٤٢٢٥٦٥٣-٠٥٥

مكتبة المدينة: پشاور: فيضان مدينه گلبرگ نمبر ١، النور سٹريٹ، صدر.

www.dawateislami.net

المدينة العلمية

منْ مؤسّس جمعيّة "**الدعوة الإسلامية**" محبّ أعلى حضرة، شيخ الطريقة، أمير أهل السنّة، العلامة مولانا **أبو بلال محمّد إلياس العطّار القادري**[1] الرضوي الضيائي، -دام ظلّه العالي-:

الحمد لله الذي أنزل القرآن، وعلّم البيان، والصّلاة والسّلام على خيْر الأنام سيّدنا ومولانا محمّدن المصطفى أحمد المجتبى ، وعلى آله الطيّبين الطاهرين وصحبه الصدّيقين الصالحين. برحمتك يا أرحم الراحمين! وبعد:

الحَمْد لله -عزّوجلّ- جمعيّة الدعوة العالميّة الحركة الغير السياسيّة " **الدعوة الإسلامية**" لتبليغ القرآن والسنّة تصمّم لدعوة الخيْر وإحياء السنّة وإشاعة علم الشرائع في العالَم، ولأداء هذه الأُمورْ بحسن فعل ونهج متكامل أُقيمت المجالس، منها: مجلس "**المدينة العلمية**"، وبحمد الله - تباركَ وتعالى- أركان هذا المجلس هم العلماء الكِرام والمفتون العِظام -كثّرهم الله تعالى- عزمُوا عزْماً مصمّماً لإشاعة الأمْر العلْميّ الخالصيّ والتحقيقيّ.

وأنْشأوا لتحصيل هذه الأُمور **عدّة شعب**، فمنها:

---

(١) قامع البدعة حامي السنّة، شيخ الطريقة، أمير أهل السنّة أبو بلال العلاّمة مولانا محمّد إلياس عطّار القادريّ الرضويّ -دامت بركاتهم العالية- ولد في مدينة "كراتشي" في ٢٦ رمضان المبارك عام ١٣٦٩هـ الموافق ١٩٥٠م. عالم، عامل، تقيٌّ، ورِعٌ، حياته المباركة مظهر لخشية الله -عزَّ وجلَّ- وعشق الحبيب المصطفى -صلّى الله تعالى عليه وآله وسلّم-، مع كونه عابداً وزاهدًا فإنه داعية للعالَم الإسلامي، وأمير ومؤسّس لجمعيّة "**الدعوة الإسلامية**" غير السياسيّة العالميّة لتبليغ القرآن والسنّة، محاولاته المخلصة المؤثّرة، من تصانيفه وتأليفاته: المذاكرات المدنيّة (أسئلة حول أهمّ المسائل الدينيّة اليوميّة) والمحاضرات المليئة بالسنن النبويّة، ورسائله الإصلاحيّة في الأردوية كثيرة، ومن بعض رسائله يترجم إلى اللغة العربية، منها: "عظام الملوك"، "هموم الميت"، "ضياء الصلاة والسلام"، وأسلوب تربيّته أدّى إلى حصول انقلاب في حياة الملايين من المسلمين، خاصة الشباب، وأعطى هذا المقصد المدنيّ بأنّه:

"عليّ محاولة إصلاح نفسي وإصلاح نفوس العالم" إن شاء الله عزَّ وجلّ

ولتحقيق هذا المقصد انتشر الدعاة المستفيضون منه إلى أنحاء العالم المزيّنون بتيجان العمائم الخضر والمعطّرون بـ"الإنعامات المدنيّة" (السنن النبويّة) في "القوافل المدنيّة" (قوافل تسافر للدعوة إلى الله -عزّ وجلّ-) للدعوة إلى الكتاب والسنّة. فالشيخ مع كونه كثير الكرامة فهو نظير نفسه في أداء الأحكام الإلهية واتباع السنّة، إنّه صورة للشريعة والطريقة العمليّة والعلميّة حيث بمظهره يذكّرنا بعهد السلف الصالحين، وتشرف بالإرادة من شيخ العرب والعجم ضياء الدين المدني -رحمه الله-، وهو الخليفة للمفتي الأعظم لباكستان مولانا وقار الدين القادريّ -رحمه الله-، والمفتي وفقيه "الهند" شريف الحق الأمجدي -رحمه الله- أيضاً جعله خليفة له، وأخذ الخلافة أيضاً من عدّة من المشايخ من الطرق الأخرى كالقادريّة والجشتيّة والسهروردية والنقشبنديّة مع إجازات في الحديث النبويّ الشريف، لكنّه يعطي الطريقة القادريّة فقط. نسأل الله عزَّ وجلَّ أن يغفر لنا بجاه هؤلاء الأولياء. آمين.

www.dawateislami.net

(١) ـ **شعبة** لكتب أعلى حضرة، إمام أهل السنّة، المجدّد الدين والملّة، الحامي السنّة، الماحي البدعة، العالم الشريعة، **الإمام أحمد رضا خان** -عليه رحمة الرحمن-.

(٢) ـ **شعبة** للكتب الإصلاحيّة. (٣) ــ **شعبة** لتراجم الكتب (من الكُتب العربيّة إلى الأُردية).

(٤) ـ **شعبة** للكتب الدراسية. (٥) ـ **شعبة** لتفتيش الكتب. (٦) ـ **شعبة** للتخريج.

ومِنْ أوّلِ ترجيحات مجلس "**المدينة العلمية**"، أن يقدّم التصانيف الجليلة الثمينة لأعلى حضرة، إمام أهل السنّة، العظيم البرَكة، العظيم المرتبة، المجدّد الدين والملّة، الحامي السنّة، الماحي البدعة، العالم الشريعة، شيخ الطريقة، العلامة، مولانا، الحاج، الحافظ، القاري، الشاه **الإمام أحمد رضا خان** -عليه رحمة الرحمن- بأساليب السهلة وفقاً لعصرنا الجديد.

فليعاونْ كلّ أحدٍ منَ الإخوة والأخوات في هذه الأُمورْ المدنيّة ببساطه، وليطالعْ بنفسه الكُتب الّتي مطبوعة من المجلس وليرغّب الآخرين أيضاً.

أعطى الله - عزّوجلّ- مجالس «الدعوة الإسلامية» كلّها لا سيّما "**المدينة العلمية**" ارتقاء مستمرّاً وجعل أُمورنا في الدين مزيّناً بحلْيَة الإخلاص ووسيلة لخيْر الدارَين. وأعطانا الله - عزّوجلّ- الشهادةَ تحتَ ظلال القبّة الخضرآء (من المسجد النبويّ على صاحبها الصّلاة والسّلام)، والمدْفنَ في جنة البقيع، والمسْكنَ في جنّة الفرْدوس".

آمين بجاه النبيّ الأمين صلّى الله تعالى عليه وآله وسلّم.

(تعريب: المدينة العلمية)

www.dawateislami.net

عملنا في هذا الكتاب

- قمنا بتخريج الآيات القرآنية وجعلناها بين قوسين مزهرين ﴿ ﴾.
- قمنا بتمييز الأحاديث من غيرها وجعلناها مع إعرابها بين هلالين هكذا (( )).
- قمنا بتخريج الأحاديث المباركة من مصادرها من الصحاح الستة وغيرها.
- قد قمنا بعون الله تعالى بمقابلة الكتاب على المطبوعات المختلفة.
- قد التزمنا خط العربي الجديد وأوردنا علاماتِ الترقيم لتسهيل العبارة.
- وقد التزمنا إعراب بعض الألفاظ الصعبة فيه.
- قد بيّنا معاني الألفاظ الصعبة بالألفاظ السهلة المعروفة.
- قد أخذنا الكلام من الكتب المختلفة وأوردناه حاشيةً على مقامات عديدة لتوضيح الكلام وتفهيم المرام.
- قد ظهر لنا من هذه المقابلة أن في الطبعات المتداولة من «إحياء علوم الدين» أخطاء كثيرةً، وتغييراً وتبديلاً في عبارته، وحذف عبارات منه وقد صححناه من الطبعات المختلفة المصححة.

اللّهم اجعل هذا العمل خالصاً لوجهك الكريم، واجعله نافعاً متقبلاً للطالبين، اللّهم أحسن ختامنا، وارحم زلاتنا، واغفر حوباتنا، وارفع مقامنا، واكتبنا من عبادك المقبولين، اللّهم يا كريم يا عزيز يا رحيم اغفر لنا ولوالدينا ولمشائخنا ولجميع المسلمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(آمين يا رب العالمين، بجاه سيد المرسلين، صلى الله تعالى عليه وسلم)

www.dawateislami.net

فهرس الكتاب

الرقم	الموضوع	الصفحة
٠١	**القول في ذم الحَسَدِ وفي حقيقته وأسبابه ومعالجته وغاية الواجب في إزالته**	٠١
٠٢	بيان ذم الحسَد	٠١
٠٣	الآثار	٠٣
٠٤	بيان حقيقة الحسد وحكمه وأقسامه ومراتبه	٠٥
٠٥	بيان أسباب الحسد والمنافسة	٠٩
٠٦	بيان السبب في كثرة الحسد بين الأمثال والأقران والإخوة ...إلخ	١١
٠٧	بيان القدر الواجب في نفي الحسد عن القلب	١٩
٠٨	**كتاب ذم الجاه والرياء**	٢١
٠٩	**الشطر الأول في حب الجاه والشهرة**	٢٢
١٠	بيان ذم الشهرة وانتشار الصِّيت	٢٣
١١	بيان فضيلة الخمول	٢٤
١٢	بيان ذم حب الجاه	٢٧
١٣	بيان معنى الجاه وحقيقته	٢٧
١٤	بيان سبب كون الجاه محبوباً بالطبع حتى لا يخلو عنه قلب إلا بشديد المجاهدة	٢٨
١٥	بيان الكمال الحقيقي والكمال الوهمي الذي لا حقيقة فيه	٣٣
١٦	بيان ما يحمد من حب الجاه وما يذم	٣٧
١٧	بيان السبب في حب المدح والثناء وارتياح النفس به وميل الطبع ...إلخ	٣٨
١٨	بيان علاج حب الجاه	٤٠
١٩	بيان وجه العلاج لحب المدح وكراهة الذم	٤٢
٢٠	بيان علاج كراهة الذم	٤٥
٢١	بيان اختلاف أحوال الناس في المدح والذم	٤٦
٢٢	**الشطر الثاني من الكتاب في طلب الجاه والمنزلة بالعبادات**	٤٩
٢٣	**بيان ذم الرياء**	٤٩

www.dawateislami.net

٢٤	الآثار	٥٤
٢٥	بيان حقيقة الرياء وما يراءى به	٥٥
٢٦	القسم الأول: الرياء في الدين بالبدن	٥٥
٢٧	الثاني: الرياء بالهيئة والزِيِّ	٥٥
٢٨	الثالث: الرياء بالقول	٥٧
٢٩	الرابع: الرياء بالعمل	٥٧
٣٠	الخامس: المُراءاة بالأصحاب والزائرين والمخالطين	٥٨
٣١	**بيان درجات الرياء**	٦١
٣٢	بيان الرياء الخفي الذي هو أخفى من دبيب النمل	٦٧
٣٣	بيان ما يحبط العمل من الرياء الخفي والجلي وما لا يحبط	٧٠
٣٤	بيان دواء الرياء وطريق معالجة القلب فيه	٧٤
٣٥	بيان الرخصة في قصد إظهار الطاعات	٨٤
٣٦	بيان الرخصة في كتمان الذنوب وكراهة إطلاع الناس عليها وكراهة ذمهم له	٨٧
٣٧	بيان ترك الطاعات خوفاً من الرياء ودخول الآفات	٩١
٣٨	بيان ما يصح من نشاط العبد للعبادة بسبب رؤية الخلق وما لا يصح	١٠٢
٣٩	بيان ما ينبغي للمريد أن يلزم نفسه قبل العمل وبعده وفيه	١٠٦
٤٠	**كتاب ذم الكبر والعجب**	١١١
٤١	**الشطر الأول من الكتاب في الكبر**	١١٢
٤٢	بيان ذم الكبر	١١٢
٤٣	الآثار	١١٥
٤٤	بيان ذل الاختيال وإظهار آثار الكبر في المشي وجر الثياب	١١٦
٤٥	بيان فضيلة التواضع	١١٨
٤٦	بيان حقيقة الكبر وآفته	١٢٣
٤٧	بيان المتكبر عليه ودرجاته وأقسامه وثمرات الكبر فيه	١٢٦
٤٨	بيان ما به التكبر	١٢٩
٤٩	بيان البواعث على التكبر وأسبابه المهيجة له	١٣٦
٥٠	بيان أخلاق المتواضعين ومجامع ما يظهر فيه أثر التواضع والتكبر	١٣٨

www.dawateislami.net

٥١	بيان الطريق في معالجة الكبر واكتساب التواضع له	١٤٣
٥٢	بيان غاية الرياضة في خلق التواضع	١٥٧
٥٣	**الشطر الثاني من الكتاب في العجب**	١٥٨
٥٤	بيان ذم العجب وآفاته	١٥٨
٥٥	بيان آفة العجب	١٥٩
٥٦	بيان حقيقة العجب والإدلال وحدّهما	١٦٠
٥٧	بيان علاج العجب على الجملة	١٦١
٥٨	بيان أقسام ما به العجب وتفصيل علاجه	١٦٥

www.dawateislami.net

القول في ذم الحَسَدِ وفي حقيقته وأسبابه ومعالجته وغاية الواجب في إزالته:

بيان ذم الحسَد:

اعلم أن الحسَد أيضاً من نتائج الحِقْد والحِقْدُ[1] من نتائج الغَضَب فهو فرع فرعه والغضب أصل أصله، ثم إن للحسد من الفروع الذميمة ما لا يكاد يحصى وقد ورد في ذم الحسد خاصة أخبار كثيرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((**الْحَسَدُ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ**[2] **كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ**))[3] وقال صلى الله عليه وسلم في النهي عن الحسد وأسبابه وثمراته: ((**لاَ تَحَاسَدُوا وَلاَ تَقَاطَعُوا وَلاَ تَبَاغَضُوا وَلاَ تَدَابَرُوا**[4] **وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا**))[5] وقال أنس كنا يوما جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ((**يَطْلُعُ عَلَيْكُمُ الآنَ مِنْ هَذَا الْفَجِّ**[6] **رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ**))[7] قال: فطلع رجل من الأنصار ينفض لحيته من وضوءه[8] قد علق نعليه في يده الشمال فسلم فلما كان الغد قال صلى الله عليه وسلم: مثل ذلك فطلع ذلك الرجل وقاله في اليوم الثالث، فطلع ذلك الرجل فلمَّا قام النبي صلى الله عليه وسلم تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص فقال له: إني لاحيت[9] أبي فأقسمت أن لا أدخل عليه ثلاثاً فإن رأيت أن تُؤْوِيَنِي إليك حتى تمضي الثلاث، فَعَلْتَ؟ فقال: نعم، فبات عنده ثلاث ليال فلم يره يقوم من الليل شيئاً غير أنه إذا انقلب على فراشه ذكر الله تعالى، ولم يقم حتى يقوم لصلاة الفجر، قال: غير أني ما سمعته يقول إلا خيراً، فلما مضت الثلاث وَكِدْت أن أحتقر عمله قلت: يا عبد الله! لم يكن بيني وبين والدي غضب ولا هجرة ولكني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كذا وكذا فأردت أن

---

(١) **الحقد**: هو طلب الانتقام، وتحقيقه أن الغضب إذا لزم كَظْمه لعجز عن التشفي في الحال رجع إلى الباطن واحتقن فيه فصار حقداً. (التعريفات)

(٢) قال الطيبي: الأكل هنا استعارة لعدم القبول وأن حسناته مردودة عليه وليست بثابتة في ديوان عمله الصالح حتى يحبط. (فيض القدير)

(٣) ...سنن ابی داود، کتاب الادب، باب فی الحسد، الحدیث: ۴۹۰۳، ۴/۳۶۱

(٤) **التدابر**: الإعراض والهَجْر والخصومة. (الآداب للبيهقي)

(٥) ...المسند لابی داود الطیالسی، الزهری عن انس، الحدیث: ۲۰۹۱، ص: ۲۸۰.

(٦) ...المسند للامام احمد بن حنبل، مسند انس بن مالک، الحدیث: ۱۲۲۹۷، ۴/۳۳۲

(٧) **الفج**: الطريق الواسع بين الجبلين. (عمدة القاري كتاب البر والصلة، باب التبسم والضحك)

(٨) **الوضوء**: بالضم مصدر وبالفتح الماء الذي يتوضأ به. (كتاب الكليات)

(٩) أي خاصَمتُ. (اتحاف الخيرة، كتاب الأدب)

www.dawateislami.net

أعرف عملك فلم أرك تعمل عملا كثيراً فما الذي بلغ بك ذلك؟ فقال: ما هو إلا ما رأيتَ. فلما وليت دعاني فقال: ما هو إلا ما رأيتَ غير أني لا أجد على أحد من المسلمين في نفسي غِشًّا ولا حسداً على خير أعطاه الله إياه قال عبد الله: فقلت له هي التي بلغت بك وهي التي لا نطيق.

وقال صلى الله عليه وسلم: ((**ثَلاَثٌ لاَ يَنْجُوْ مِنْهُنَّ أَحَدٌ: اَلظَّنُّ وَالطِّيَرَةُ**[١] **وَالْحَسَدُ وَسَأُحَدِّثُكُمْ بِالمَخْرَجِ مِنْ ذٰلِكَ إِذَا ظَنَنْتَ فَلاَ تُحَقِّقْ وَإِذَا تَطَيَّرْتَ فَامْضِ وَإِذَا حَسَدْتَ فَلاَ تَبْغِ**))[٢] وفي رواية: ((**ثَلاَثٌ لاَ يَنْجُوْ مِنْهُنَّ أَحَدٌ وَقَلَّ مَنْ يَنْجُوْ مِنْهُنَّ**)) فأثبت في هذه الرواية إمكان النجاة وقال صلى الله عليه وسلم: ((**دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الأُمَمِ قَبْلَكُمْ الْحَسَدُ وَالْبَغْضَاءُ وَالْبُغْضَةُ هِيَ الْحَالِقَةُ لاَ أَقُولُ حَالِقَةُ الشَّعَرِ وَلَكِنْ حَالقةُ الدِّينِ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لاَ تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا وَلَن تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا أَلاَ أُنَبِّئُكُم بِمَا يُثْبِتُ ذلك لَكُمْ أَفْشُوا السَّلاَمَ بَيْنَكُمْ**))[٣] وقال صلى الله عليه وسلم: ((**كَادَ الْفَقْرُ أَنْ يَكُوْنَ كُفْرًا**[٤] **وكَادَ الْحَسَدُ أَنْ يَغْلِبَ الْقَدَرَ**[٥]))[٦].

وقال صلى الله عليه وسلم: ((**إنه سَيُصِيْبُ أُمَّتِيْ دَاءُ الأُمَمِ**)) قالوا وما داء الأمم؟ قال: ((**الأَشَرُ والبَطَرُ،**[٧] **والتَكَاثُرُ والتنافُسُ في الدنيا، والتَّبَاعُدُ والتَّحَاسُدُ حتى يكون البَغْيُ ثُم الهَرْجُ**[٨]))[٩] وقال صلى الله عليه وسلم: ((**لاَ تُظْهِرِ الشَّمَاتَةَ**[١٠] **لأَخِيكَ فَيُعَافِيَهُ اللَّهُ وَيَبْتَلِيكَ**))[١١]. وروي أن موسى عليه

---

(١) **الطِّيَرَةُ والطِّيْرَةُ والطُّوْرَةُ**: ما يتشاءم به من الفأل الرديء وتطير به و منه. (القاموس المحيط)

(٢) ...الجامع الصغير، الحديث: ٣٤٦٥-٣٤٦٦، ص: ٢٠٩.

(٣) ...سنن الترمذي، كتاب صفة القيامة، الحديث: ٢٥١٨، ٤/٢٢٨.

(٤) أي كاد أن يكون الفقر القلبي سببا للكفر إما بالاعتراض على الله تعالى وإما بعدم الرضا بقضاء الله تعالى أو بالشكوى إلى ما سواه أو بالميل إلى الكفر لِمَا رأى أنّ غالب الكفار أغنياءٌ متنعمون وأكثر المسلمين فقراء ممتحنون بمقتضى ما ورد عنه الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر. (مرقاة المفاتيح ، كتاب الآداب ، باب ما ينهى عنه من التهاجر)

(٥) أي كاد الحسد في قلب الحاسد أن يغلب على العلم بالقدر فلا يرى أن النعمة التي حسد عليها أنها صارت إليه بقدر الله وقضائه كما أنها لا تزول إلا بقضائه وقدره، وغرض الحاسد زوال نعمة المحسود ولو تحقق القدر لم يحسده واستسلم وعلم أن الكل بقدر. (فيض القدير)

(٦) ...شعب الايمان، باب في الحث على ترك الغل...الخ، الحديث: ٦٦١٢، ٥/٢٦٤.

(٧) **الأَشَرُ**: كفر النعمة. (اتحاف) **والبطر**: الطغيان عند النعمة. (اتحاف)

(٨) **البغي**: أي مجاوزة الحد. (اتحاف) **والهرج**: القتل. (اتحاف)

(٩) ...موسوعة الامام ابن ابي الدنيا، كتاب ذم البغي، الحديث: ٢، ٥/٢٣٣

(١٠) **الشماتة**: الفرح ببلية من يعاديك أو من تعاديه. (اتحاف)

(١١) ...سنن الترمذي، كتاب صفة القيامة، الحديث: ٢٥١٤، ٤/٢٢٧

www.dawateislami.net

السلام لما تعجل إلى ربه تعالى رأى في ظل العرش رجلاً فغبطه بمكانه فقال: إن هذا لكريم على ربه، فسأل ربه تعالى أن يخبره باسمه فلم يخبره وقال أحدثك من عمله بثلاث كان لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله وكان لا يعق والديه ولا يمشي بالنميمة وقال زكريا عليه السلام: قال الله تعالى: الحاسد عدو لنعمتي، متسخِّط لقضائي غير راض بقسمتي التي قسَّمت بين عبادي.

وقال صلى الله عليه وسلم: ((**أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِيْ أَن يَّكْثُرَ لَهُمُ الْمَالُ فَيَتَحَاسَدُوْنَ وَيَقْتَتِلُوْنَ**))[1]. وقال صلى الله عليه وسلم: ((**استَعِينُوا على قَضَاءِ الْحَوَائِجِ بالكِتْمانِ فإنَّ كُلَّ ذِي نِعْمَةٍ مَحْسُودٌ**))[2]. وقال صلى الله عليه وسلم: ((**إنَّ لِنِعَمِ اللهِ أَعْدَاءً**)) فقيل ومن هم؟ فقال: ((**الذينَ يَحْسُدُوْنَ النَّاسَ عَلَى مَا آتاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِه**))[3]. وقال صلى الله عليه وسلم: ((**سَتَّةٌ يَدْخُلُونَ النَّارَ قَبلَ الحِسَابِ بِسَنَةٍ**)) قيل يا رسول الله من هم؟ قال: ((**الأُمَرَآءُ بِالجُورِ والعَرَبُ بِالعَصَبِيَّةِ وَالدَّهَاقِينَ[4] بِالتَّكَبُّرِ والتُجَّارُ بِالخِيَانَةِ وأهلُ الرُّسْتَاقِ[5] بِالْجَهَالَةِ وَالْعُلَمَاءُ بِالْحَسَدِ**))[6].

الآثار: قال بعض السلف: أول خطيئة كانت هي الحسد، حسد إبليس آدم عليه السلام على رتبته فأبى أن يسجد له فحمله الحسد على المعصية. وحكي أن عون بن عبد الله دخل على الفضل بن المهلب وكان يومئذٍ على واسط[7] فقال: إني أريد أن أعظك بشيء فقال: وما هو؟ قال: إياك والكبر فإنه أول ذنب عُصِيَ اللهُ به[8] ثم قرأ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلٰٓئِكَةِ اسْجُدُوْا لِاٰدَمَ فَسَجَدُوْٓا اِلَّآ اِبْلِيْسَ﴾ الآية [البقرة:٣٤] وإياك والحرص فإنه أخرج آدم من الجنة أمكنه الله سبحانه من جنة عرضها السموات والأرض يأكل منها إلا شجرة واحدة نهاه الله عنها فأكل منها فأخرجه الله تعالى منها ثم قرأ: ﴿اهْبِطُوْا مِنْهَا﴾ إلى آخر الآية [البقرة: ٣٨] وإياك والحسد فإنما قتل ابن آدم أخاه حين حسده ثم قرأ: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَاَ ابْنَيْ اٰدَمَ

---

(١) ...ميزان الاعتدال، حرف الثاء، الرقم: ١٥٥٢، ثابت بن ابى ثابت، ١/ ٣٧١.

(٢) ...المعجم الكبير، الحديث: ١٨٣، ٢٠/ ٩٤

(٣) ...تفسير غرائب القران، البقرة: ١٠٩، ١/ ٣٦٣.

(٤) **الدهاقين:** جمع دهقان بالكسر وهو رئيس القرية. (اتحاف)

(٥) **رُسْتَاقُ:** فارسي معرب ويقال: رُسْداقٌ أيضًا وهو السواد. (مختار الصحاح)

(٦) ...تفسير غرائب القران، البقره: ١٠٩، ١/ ٣٦٣.

(٧) مدينة بين الكوفة والبصرة من الجانب الغرب بناها الحجاج بن يوسف الثقفي. (عمدة القاري بمعناه كتاب الإيمان باب المسلم من سلم المسلمون إلخ)

(٨) الحسد أول ذنب عصي الله به في السماء، وأول ذنب عصي الله به في الأرض. إذ حسد إبليس آدم في السماء، وحسد قابيلُ هابيلَ في الأرض. (أيسر التفاسير للجزائري، النساء تحت الآية: ٥٤)

www.dawateislami.net

﴿بِالْحَقِّ﴾ [المائدة: ٢٧] الآيات وإذا ذكر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمسك، وإذا ذكر القدر فاسكت، وإذا ذكرت النجوم فاسكت.

وقال بكر بن عبد الله: كان رجل يغشى بعض الملوك فيقوم بحذاء الملك فيقول: أحسن إلى المحسن بإحسانه فإن المسيء سيكفيكه إساءته فحسده رجل على ذلك المقام والكلام فسعى به إلى الملك فقال: إن هذا الذي يقوم بحذائك ويقول ما يقول زعم أن الملك أبخر[1] فقال له الملك: وكيف يصح ذلك عندي؟ قال: تدعوه إليك فإنه إذا دنا منك وضع يده على أنفه لئلا يشم ريح البخر فقال له: انصرف حتى أنظر فخرج من عند الملك فدعا الرجل إلى منزله فأطعمه طعاما فيه ثوم فخرج الرجل من عنده وقام بحذاء الملك على عادته فقال أحسن إلى المحسن بإحسانه فإن المسيء سيكفيه إساءته فقال له الملك: أدن مني فدنا منه فوضع يده على فيه مخافة أن يشم الملك منه رائحة الثوم، فقال الملك في نفسه: ما أرى فلاناً إلا قد صدق قال: وكان الملك لا يكتب بخطه إلا بجائزة أو صلة فكتب له كتاباً بخطه إلى عامل من عماله إذا أتاك حامل كتابي هذا فاذبحه واسلخه واحش جلده تبناً وابعث به إليَّ فأخذ الكتاب وخرج فلقيه الرجل الذي سعى به فقال ما هذا الكتاب؟ قال: خط الملك لي بصلة فقال: هبه لي فقال: هو لك، فأخذه ومضى به إلى العامل فقال العامل: في كتابك أن أذبحك وأسلخك قال: إن الكتاب ليس هو لي فالله، الله في أمري حتى تراجع الملك فقال ليس لكتاب الملك مراجعة، فذبحه وسلخه وحشا جلده تبناً وبعث به ثم عاد الرجل إلى الملك كعادته وقال مثل قوله، فعجب الملك وقال: ما فعل الكتاب؟ فقال لقيني فلان فاستوهبه مني فوهبته له قال له الملك: إنه ذكر لي أنك تزعم أني أبخر، قال: ما قلت ذلك، قال فلِمَ وضعت يدك على فيك؟ قال: لأنه أطعمني طعاماً فيه ثوم فكرهت أن تشمه، قال: صدقت ارجع إلى مكانك فقد كفي المسيء إساءته.

وقال ابن سيرين رحمه الله: ما حسدت أحداً على شيء من أمر الدنيا لأنه إن كان من أهل الجنة فكيف أحسده على الدنيا وهي حقيرة في الجنة، وإن كان من أهل النار فكيف أحسده على أمر الدنيا وهو يصير إلى النار. وقال رجل للحسن هل يحسد المؤمن؟ قال: ما أنساك بني يعقوب، نعم! ولكن غمه في صدرك فإنه لا يضرك ما لم تعد به يداً ولا لساناً. وقال ابو الدرداء: ما أكثر عبد ذكر الموت إلا قل فرحه وقل حسده. و قال معاوية: كل الناس أقدر على رضاه إلا حاسد نعمة فإنه لا يرضيه إلا زوالها ولذلك قيل:

كل العداوة قد ترجى إماتتها ... إلا عداوة من عاداك من حسد

---

(١) **أبخر**: وهو الذي فسد ريح فمه. (اتحاف)

www.dawateislami.net

وقال بعض الحكماء: الحسد جرح لا يبرأ وحسب الحسود ما يلقي وقال أعرابي: ما رأيت ظالما أشبه بمظلوم من حاسد إنه يرى النعمة عليك نقمة[1] عليه. وقال الحسن: يا ابن آدم لم تحسد أخاك؟ فإن كان الذي أعطاه لكرامته عليه فلم تحسد من أكرمه الله؟ وإن كان غير ذلك فلم تحسد من مصيره إلى النار؟ وقال بعضهم: الحاسد لا ينال من المجالس إلا مذمة وذلا ولا ينال من الملائكة إلا لعنة وبغضاً ولا ينال من الخلق إلا جزعاً وغماً ولا ينال عند النزع إلا شدة وهولاً ولا ينال عند الموقف إلا فضيحة ونكالاً.

بيان حقيقة الحسد وحكمه وأقسامه ومراتبه:

اعلم أنه لا حسد إلا على نعمة فإذا أنعم الله على أخيك بنعمة فلك فيها حالتان:

إحداهما: أن تكره تلك النعمة وتحب زوالها وهذه الحالة تسمى حسداً فالحسد حده كراهة النعمة وحب زوالها عن المنعم عليه.

الحالة الثانية: أن لا تحب زوالها ولا تكره وجودها ودوامها ولكن تشتهي لنفسك مثلها وهذه تسمى غِبطة وقد تختص باسم المنافسة وقد تسمى المنافسة حسداً والحسد منافسة ويوضع أحد اللفظين موضع الآخر ولا حجر في الأسامي بعد فهم المعاني وقد قال صلى الله عليه وسلم: ((**إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَغْبِطُ وَالْمُنَافِقَ يَحْسُدُ**))[2].

فأما الأول فهو حرام بكل حال إلا نعمة أصابها فاجر أو كافر وهو يستعين بها على تهييج الفتنة وإفساد ذات البين[3] وإيذاء الخلق فلا يضرك كراهتك لها ومحبتك لزوالها فإنك لا تحب زوالها من حيث هي نعمة بل من حيث هي آلة الفساد، ولو أمنت فساده لم يغمك بنعمته ويدل على تحريم الحسد الأخبار التي نقلناها وأن هذه الكراهة تسخط لقضاء الله في تفضيل بعض عباده على بعض وذلك لا عذر فيه ولا رخصة، وأي معصية تزيد على كراهتك لراحة مسلم من غير أن يكون لك منه مضرة؟ وإلى هذا أشار القرآن بقوله: ﴿**إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا**﴾ [آل عمران: ١٢٠] وهذا الفرح شماتة والحسد والشماتة يتلازمان.

وقال تعالى: ﴿**وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ**﴾ [البقرة: ١٠٩] فأخبر تعالى أن حبهم زوال نعمة الإيمان حسد وقال عز وجل: ﴿**وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً**﴾ [النساء: ٨٩] وذكر الله تعالى حسد إخوة يوسف عليه السلام وعبر عما في قلوبهم بقوله

---

(١) **نقمة**: أي كراهة. (المنجد)

(٢) لم نجد له أصلا ولكنه قول الفضيل بن عياض. [علمية]

(٣) **ذات البين**: الحال التي بها يجتمع المسلمون. (لسان العرب)

www.dawateislami.net

تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ [يوسف: ٨،٩] فلما كرهوا حب أبيهم له وساءهم ذلك وأحبوا زواله عنه فغيبوه عنه.

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾ [الحشر:٩] أي لا تضيق صدورهم به ولا يغتمون فأثنى عليهم بعدم الحسد.

وقال تعالى في معرض الإنكار: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [النساء:٥٤] وقال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [البقرة:٢١٣] قيل في التفسير حسداً وقال تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى:١٤] فأنزل الله العلم ليجمعهم ويؤلف بينهم على طاعته وأمرهم أن يتألفوا بالعلم فتحاسدوا واختلفوا إذ أراد كل واحد منهم أن ينفرد بالرياسة وقبول القول فرد بعضهم على بعض قال ابن عباس: كانت اليهود قبل أن يبعث النبي صلى الله عليه وسلم إذا قاتلوا قوماً قالوا: نسألك بالنبي الذي وعدتنا أن ترسله وبالكتاب الذي تنزله إلا ما نصرتنا فكانوا ينصرون فلما جاء النبي صلى الله عليه وسلم من ولد إسماعيل عليه السلام عرفوه وكفروا به بعد معرفتهم إياه فقال تعالى: ﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ [البقرة:٨٩] إلى قوله: ﴿أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا﴾ [البقرة:٩٠] أي حسداً. وقالت صفية بنت حيي[1] للنبي صلى الله عليه وسلم: جاء أبي وعمي من عندك يوماً فقال أبي لعمي: ما تقول فيه؟ قال: أقول إنه النبي الذي بَشَّر به موسى قال: فما ترى؟ قال: أرى معاداته أيام الحياة. فهذا حكم الحسد في التحريم.

وأما المنافسة فليست بحرام بل هي إما واجبة وإما مندوبة وإما مباحة وقد يستعمل لفظ الحسد بدل المنافسة والمنافسة بدل الحسد.

قال قثم بن العباس: لما أراد هو والفضل أن يأتيا النبي صلى الله عليه وسلم فيسألاه أن يؤمرهما على الصدقة، قالا لعلي: حين قال لهما لا تذهبا إليه فإنه لا يؤمركما عليها، فقالا له: ما هذا منك إلا نفاسة والله لقد زوجك ابنته فما نفسنا ذلك عليك أي هذا منك حسد وما حسدناك على تزويجه إياك فاطمة. و«**المنافسة**» في اللغة مشتقة من النفاسة والذي يدل على إباحة المنافسة قوله تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين:٢٦] وقال تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾ [الحديد:٢١] وإنما

---

(١) أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها اصطفاها النبي صلى الله عليه وسلم من سبي خيبر وجعل عتقها صِداقها وقسم لها، وكانت من عقلاء النساء لها شرف في قومها. (اتحاف)

www.dawateislami.net

المسابقة عند خوف الفوت وهو كالعبدين يتسابقان الي خدمة مولاهما؛ إذ يجزع كل واحد أن يسبقه صاحبه فيحظى عند مولاه بمنزلة لا يحظى هو بها، فكيف وقد صرح رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال: ((**لاَ حَسَدَ إِلاَّ فِى اثْنَتَيْنِ رَجُلٌ آتَاهُ اللّٰهُ مَالاً فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِى الْحَقِّ**[1]، **وَرَجُلٌ آتَاهُ اللّٰهُ عِلْمًا فَهُوَ يَعْمَلُ بِهِ وَيُعَلِّمُهُ النَّاسَ**))[2] ثم فسر ذلك في حديث أبي كبشة الأنماري فقال: ((**مَثَلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ مَثَلُ أَرْبَعَةِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللّٰهُ مَالاً وَعِلْمًا فَهُوَ يَعْمَلُ بِعِلْمِهِ فِي مَالِهِ وَرَجُلٌ آتَاهُ اللّٰهُ عِلْمًا وَلَمْ يُؤْتِهِ مَالاً فَيَقُوْلُ: رَبِّ لَوْ أَنَّ لِيْ مَالاً مِثْلَ مَالِ فُلاَنٍ لَكُنْتُ أَعْمَلُ فِيْهِ بِمِثْلِ عَمَلِهِ فَهُمَا فِي الأَجْرِ سَوَاءٌ**)) وهذا منه حب لأن يكون له مثل ماله فيعمل مثل ما يعمل من غير حب زوال النعمة عنه قال: ((**وَرَجُلٌ آتَاهُ اللّٰهُ مَالاً وَلَمْ يُؤْتِهِ عِلْمًا فَهُوَ يُنْفِقُهُ فِي مَعَاصِي اللهِ وَرَجُلٌ لَمْ يُؤْتِهِ عِلْمًا وَلَمْ يُؤْتِهِ مَالاً فَيَقُوْلُ لَوْ أَنَّ لِيْ مِثْلَ مَالِ فُلاَنٍ لَكُنْتُ أُنْفِقُهُ فِيْ مِثْلِ مَا أَنْفَقَهُ فِيْهِ مِنَ الْمَعَاصِي فَهُمَا فِي الْوِزْرِ سَوَاءٌ**))[3]. فذمه رسول الله صلى الله عليه وسلم من جهة تمنيه للمعصية لا من جهة حبه أن يكون له من النعمة مثل ماله.

فإذاً لا حرج على من يغبط غيره في نعمة ويشتهي لنفسه مثلها مهما لم يحب زوالها عنه ولم يكره دوامها له، نعم إن كانت تلك النعمة نعمة دينية واجبة كالإيمان والصلاة والزكاة فهذه المنافسة واجبة وهو أن يحب أن يكون مثله لأنه إذا لم يكن يحب ذلك فيكون راضياً بالمعصية وذلك حرام، وإن كانت النعمة من الفضائل كإنفاق الأموال في المكارم والصدقات فالمنافسة فيها مندوب إليها، وإن كانت نعمة يتنعم بها على وجه مباح فالمنافسة فيها مباحة، وكل ذلك يرجع إلى إرادة مساواته واللحوق به في النعمة وليس فيها كراهة النعمة وكان تحت هذه النعمة أمرين أحدهما: راحة المنعم عليه، والآخر: ظهور نقصان غيره وتخلفه عنه وهو يكره أحد الوجهين وهو تخلف نفسه ويحب مساواته له. ولا حرج على من يكره تخلف نفسه ونقصانها في المباحات، نعم ذلك ينقص من الفضائل ويناقض الزهد والتوكل والرضا ويحجب عن المقامات الرفيعة ولكنه لا يوجب العصيان.

وههنا دقيقة غامضة وهو أنه إذا أيس من أن ينال مثل تلك النعمة وهو يكره تخلفه ونقصانه فلا محالة يحب زوال النقصان وإنما يزول نقصانه إما بأن ينال مثل ذلك أو بأن تزول نعمة المحسود، فإذا انسد أحد الطريقين فيكاد القلب لا ينفك عن شهوة الطريق الآخر حتى إذا زالت النعمة عن المحسود

---

(١) فسلطه على هلكته في الحق: يعني صار يبذل ماله فيما يرضي الله عز وجل لا يبذله في حرام ولا يبذله في لغو وإنما يبذله فيما يرضي الله سلطه الله على هلكته يعني على إنفاقه في الحق. (شرح رياض الصالحين، كتاب الجهاد، باب فضل السماحة في البيع والشراء إلخ)

(٢) ...التفسير الكبير للرازي، البقرة: ١٠٩، ١/٦٤٧.

(٣) ...سنن الترمذي، كتاب الزهد، باب ماجاء في مثل الدنيا مثل أربعة نفر، الحديث، ٢٣٢٥، ٤/١٤٦،

www.dawateislami.net

كان ذلك أشفى عنده من دوامها؛ إذ بزوالها يزول تخلفه وتقدم غيره وهذا يكاد لا ينفك القلب عنه فإن كان بحيث لو ألقي الأمر إليه ورد إلى اختياره لسعى في إزالة النعمة عنه فهو حسود حسداً مذموماً، وإن كان تدعه التقوى عن إزالة ذلك فيعفي عما يجده في طبعه من الارتياح إلى زوال النعمة عن محسوده مهما كان كارها لذلك من نفسه بعقله ودينه ولعله المعنى بقوله صلى الله عليه وسلم: ((**ثَلاَثٌ لاَ يَنْفَكُّ الْمُؤْمِنُ عَنْهُنَّ الحَسَدُ وَالظَّنُّ وَالطِّيَرَةُ**)) ثم قال: ((**وَلَهُ مِنْهُنَّ مَخْرَجٌ إِذَا حَسَدْتَ فَلاَ تَبْغِ**))[1] أي إن وجدت في قلبك شيئاً فلا تعمل به. وبعيد أن يكون الإنسان مريداً للحاق بأخيه في النعمة فيعجز عنها ثم ينفك عن ميل إلى زوال النعمة؛ إذ يجد لا محالة ترجيحاً له على دوامها. فهذا الحد من المنافسة يزاحم الحسد الحرام فينبغي أن يحتاط فيه فإنه موضع الخطر وما من إنسان إلا وهو يرى فوق نفسه جماعة من معارفه وأقرانه يحب مساواتهم ويكاد ينجر ذلك إلى الحسد المحظور إن لم يكن قوي الإيمان رزين التقوى[2].

ومهما كان محركه خوف التفاوت وظهور نقصانه عن غيره جره ذلك إلى الحسد المذموم وإلى ميل الطبع إلى زوال النعمة عن أخيه حتى ينزل هو إلى مساواته إذ لم يقدر هو أن يرتقي إلى مساواته بإدراك النعمة وذلك لا رخصة فيه أصلاً بل هو حرام سواء كان في مقاصد الدين أو مقاصد الدنيا، ولكن يعفي عنه في ذلك ما لم يعمل به إن شاء الله تعالى وتكون كراهته لذلك من نفسه كفارة له فهذه حقيقة الحسد وأحكامه. وأما مراتبه فأربع:

الأولى: أن يحب زوال النعمة عنه وإن كان ذلك لا ينتقل إليه وهذا غاية الخبث.

الثانية: أن يحب زوال النعمة إليه لرغبته في تلك النعمة مثل رغبته في دار حسنة أو امرأة جميلة أو ولاية نافذة أو سعة نالها غيره وهو يحب أن تكون له ومطلوبه تلك النعمة لا زوالها عنه ومكروهه فقد النعمة لا تنعم غيره بها.

الثالثة: أن لا يشتهي عينها لنفسه بل يشتهي مثلها فإن عجز عن مثلها أحب زوالها كيلا يظهر التفاوت بينهما.

الرابعة: أن يشتهي لنفسه مثلها فإن لم تحصل فلا يحب زوالها عنه، وهذا الأخير هو المعفو عنه إن كان في الدنيا، والمندوب إليه إن كان في الدين، والثالثة فيها مذموم وغير مذموم، والثانية أخف من الثالثة، والأولى مذموم محض. وتسمية الرتبة حسداً فيه تجوز وتوسع ولكنه مذموم لقوله تعالى: ﴿**وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ**﴾ [النساء:٣٢] فتمنيه لمثل ذلك غير مذموم، وأما تمنيه عين ذلك فهو مذموم.

---

(١) ...الجامع الصغير، الحديث: ٣٤٢٦، ص ٢٠٩ بتغير.

(٢) أي شديده صلبه. (اتحاف)

www.dawateislami.net

بيان أسباب الحسد والمنافسة:

أما المنافسة: فسببها حب ما فيه المنافسة، فإن كان ذلك أمراً دينياً فسببه حب الله تعالى وحب طاعته، وإن كان دنيوياً فسببه حب مباحات الدنيا والتنعم فيها وإنما نظرنا الآن في الحسد المذموم ومداخله كثيرة جداً، ولكن يحصر جملتها سبعة أبواب: العداوة،والتعزز، والكبر، والتعجب، والخوف من فوت المقاصد المحبوبة، وحب الرياسة، وخبث النفس وبخلها فإنه مما يكره النعمة على غيره إما لأنه عدوه فلا يريد له الخير وهذا لا يختص بالأمثال بل يحسد الخسيس الملك بمعنى أنه يحب زوال نعمته لكونه مبغضاً له بسبب إساءته إليه أو إلى من يحبه، وإما أن يكون من حيث يعلم أنه يستكبر بالنعمة عليه وهو لا يطيق احتمال كبره وتفاخره لعزة نفسه وهو المراد بالتعزز.

وإما أن يكون في طبعه أن يتكبر على المحسود ويمتنع ذلك عليه لنعمته وهو المراد بالتكبر. وإما أن تكون النعمة عظيمة والمنصب عظيماً فيتعجب من فوز مثله بمثل تلك النعمة وهو المراد بالتعجب، وإما أن يخاف من فوات مقاصده بسبب نعمته بأن يتوصل بها إلى مزاحمته في أغراضه، وإما أن يكون يحب الرياسة التي تنبني على الاختصاص بنعمة لا يساوي فيها، وإما أن لا يكون بسبب من هذه الأسباب بل لخبث النفس وشحها بالخير لعباد الله تعالى ولا بدّ من شرح هذه الأسباب.

السبب الأول: العداوة والبغضاء: وهذا أشد أسباب الحسد فإن من آذاه شخص بسبب من الأسباب وخالفه في غرض بوجه من الوجوه أبغضه قلبه وغضب عليه ورسخ في نفسه الحقد، والحقد يقتضي التشفي والانتقام، فإن عجز المبغض عن أن يتشفى بنفسه أحب أن يتشفى منه الزمان، وربما يحيل ذلك على كرامة نفسه عند الله تعالى، فمهما أصابت عدوه بلية فرح بها وظنها مكافأة له من جهة الله على بغضه وأنها لأجله، ومهما أصابته نعمة ساءه ذلك لأنه ضد مراده، وربما يخطر له أنه لا منزلة له عند الله حيث لم ينتقم له من عدوه الذي آذاه بل أنعم عليه، وبالجملة فالحسد يلزم البغض والعداوة ولا يفارقهما، وإنما غاية التقي أن لا يبغي وأن يكره ذلك من نفسه، فأما أن يبغض إنساناً ثم يستوي عنده مسرته ومساءته فهذا غير ممكن وهذا مما وصف الله تعالى الكفار به أعني الحسد بالعداوة؛ إذ قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ [آل عمران:١١٩،١٢٠] الآية وكذلك قال تعالى: ﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران:١١٨] والحسد بسبب البغض ربما يفضي إلى التنازع والتقاتل واستغراق العمر في إزالة النعمة بالحيل والسعاية وهتك الستر وما يجري مجراه.

www.dawateislami.net

السبب الثاني: التعزز وهو أن يثقل عليه أن يترفع عليه غيره فإذا أصاب بعض أمثاله ولاية أو علما أو مالاً خاف أن يتكبر عليه وهو لا يطيق تكبره ولا تسمح نفسه باحتمال صلفه وتفاخره عليه وليس من غرضه أن يتكبر بل غرضه أن يدفع كبره فإنه قد رضي بمساواته مثلاً ولكن لا يرضي بالترفع عليه.

السبب الثالث: الكبر وهو أن يكون في طبعه أن يتكبر عليه ويستصغره ويستخدمه ويتوقع منه الانقياد له والمتابعة في أغراضه، فإذا نال نعمة خاف أن لا يحتمل تكبره ويترفع عن متابعته أو ربما يتشوف[1] إلى مساواته أو إلى أن يرتفع عليه فيعود متكبراً بعد أن كان متكبراً عليه، ومن التكبر والتعزز كان حسد أكثر الكفار لرسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قالوا كيف يتقدم علينا غلام يتيم وكيف نطأطئ رءوسنا؟ فقالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هٰذَا الْقُرْاٰنُ عَلٰى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيْمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] أي كان لا يثقل علينا أن نتواضع له ونتبعه إذا كان عظيماً وقال تعالى يصف قول قريش: ﴿اَهٰٓؤُلَآءِ مَنَّ اللّٰهُ عَلَيْهِمْ مِّنْ بَيْنِنَا﴾ [الأنعام:٥٣] كالاستحقار لهم والأنفة منهم.

السبب الرابع: التعجب كما أخبر الله تعالى عن الأمم السالفة إذ قالوا: ﴿مَآ اَنْتُمْ اِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [يس:١٥] وقالوا: ﴿اَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ [المؤمنون:٤٧] ﴿وَلَئِنْ اَطَعْتُمْ بَشَرًا مِّثْلَكُمْ اِنَّكُمْ اِذًا لَّخٰسِرُوْنَ﴾ [المؤمنون:٣٤] فتعجبوا من أن يفوز برتبة الرسالة والوحي والقرب من الله تعالى بشر مثلهم فحسدوهم وأحبوا زوال النبوة عنهم جزعاً أن يفضل عليهم من هو مثلهم في الخلقة لا عن قصد تكبر وطلب رياسة وتقدم عداوة أو سبب آخر من سائر الأسباب، وقالوا متعجبين: ﴿اَبَعَثَ اللّٰهُ بَشَرًا رَّسُوْلًا﴾ [الإسراء:٩٤] وقالوا: ﴿لَوْلَآ اُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلٰٓئِكَةُ﴾ [الفرقان:٢١] وقال تعالى: ﴿اَوَعَجِبْتُمْ اَنْ جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّنْ رَّبِّكُمْ عَلٰى رَجُلٍ مِّنْكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٣] الآية.

السبب الخامس: الخوف من فوت المقاصد وذلك يختص بمتزاحمين على مقصود واحد فإن كل واحد يحسد صاحبه في كل نعمة تكون عوناً له في الانفراد بمقصوده، ومن هذا الجنس تحاسد الضرات في التزاحم على مقاصد الزوجية، وتحاسد الأخوة في التزاحم على نيل المنزلة في قلب الأبوين للتوصل به إلى مقاصد الكرامة والمال، وكذلك تحاسد التلميذين لأستاذ واحد على نيل المرتبة من قلب الأستاذ، وتحاسد ندماء الملك وخواصه في نيل المنزلة من قلبه للتوصل به إلى المال والجاه، وكذلك تحاسد الواعظين المتزاحمين على أهل بلدة واحدة إذا كان غرضهما نيل المال بالقبول عندهم،

---

(١) أي يطلع. (اتحاف)

www.dawateislami.net

وكذلك تحاسد العالمين المتزاحمين على طائفة من المتفقهة محصورين إذ يطلب كل واحد منزلة في قلوبهم للتوصل بهم إلى أغراض له.

السبب السادس: حب الرياسة وطلب الجاه لنفسه من غير توصل به إلى مقصود وذلك كالرجل الذي يريد أن يكون عديم النظير في فن من الفنون إذا غلب عليه حب الثناء واستفزه الفرح بما يمدح به من أنه واحد الدهر وفريد العصر في فنه وأنه لا نظير له، فإنه لو سمع بنظير له في أقصى العالم لساءه ذلك وأحب موته أو زوال النعمة عنه التي بها يشاركه في المنزلة من شجاعة أو علم أو عبادة أو صناعة أو جمال أو ثروة أو غير ذلك مما يتفرد هو به ويفرح بسبب تفرده، وليس السبب في هذا عداوة ولا تعززاً ولا تكبراً على المحسود ولا خوفاً من فوات مقصود سوى محض الرياسة بدعوى الانفراد وهذا وراء ما بين آحاد العلماء من طلب الجاه والمنزلة في قلوب الناس للتوصل إلى مقاصد سوى الرياسة. وقد كان علماء اليهود ينكرون معرفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يؤمنون به خيفة من أن تبطل رياستهم واستتباعهم مهما نسخ علمهم.

السبب السابع: خبث النفس وشحها بالخير لعباد الله تعالى، فإنك تجد من لا يشتغل برياسة وتكبر ولا طلب مال إذا وصف عنده حسن حال عبد من عباد الله تعالى فيما أنعم الله به عليه يشق ذلك عليه، وإذا وصف له اضطراب أمور الناس وإدبارهم وفوات مقاصدهم وتنغص عيشهم فرح به، فهو أبداً يحب الإدبار لغيره ويبخل بنعمة الله على عباده كأنهم يأخذون ذلك من ملكه وخزانته ويقال: **البخيل**: من يبخل بمال نفسه. و**الشحيح**: هو الذي يبخل بمال غيره، فهذا يبخل بنعمة الله تعالى على عباده الذين ليس بينه وبينهم عداوة ولا رابطة هذا ليس له سبب ظاهر إلا خبث في النفس ورذالة في الطبع عليه وقعت الجبلة ومعالجته شديدة لأن الحسد الثابت بسائر الأسباب أسبابه عارضة يتصور زوالها فيطمع في إزالتها، وهذا خبث في الجبلة لا عن سبب عارض فتعسر إزالته إذ يستحيل في العادة إزالته، فهذه هي أسباب الحسد وقد يجتمع بعض هذه الأسباب أو أكثرها أو جميعها في شخص واحد فيعظم فيه الحسد بذلك ويقوي قوة لا يقدر معها على الإخفاء والمجاملة بل ينهتك حجاب المجاملة، وتظهر العداوة بالمكاشفة، وأكثر المحاسدات تجتمع فيها جملة من هذه الأسباب وقلما يتجرد سبب واحد منها.

بيان السبب في كثرة الحسد بين الأمثال والأقران والإخوة وبني العم والأقارب وتأكده وقلته في غيرهم وضعفه:

اعلم! أن الحسد إنما يكثر بين قوم تكثر بينهم الأسباب التي ذكرناها، وإنما يقوى بين قوم تجتمع جملة من هذه الأسباب فيهم وتتظاهر؛ إذ الشخص الواحد يجوز أن يحسد لأنه قد يمتنع عن

www.dawateislami.net

قبول التكبر، ولأنه يتكبر، ولأنه عدو ولغير ذلك من الأسباب، وهذه الأسباب إنما تكثر بين أقوام تجمعهم روابط يجتمعون بسببها في مجالس المخاطبات ويتواردون على الأغراض، فإذا خالف واحد منهم صاحبه في غرض من الأغراض نفر طبعه عنه وأبغضه وثبت الحقد في قلبه، فعند ذلك يريد أن يستحقره ويتكبر عليه ويكافئه على مخالفته لغرضه ويكره تمكنه من النعمة التي توصله إلى أغراضه، وترادف جملة من هذه الأسباب إذ لا رابطة بين شخصين في بلدتين متنائيتين، فلا يكون بينهما محاسدة، وكذلك في محلتين. نعم إذا تجاورا في مسكن أو سوق أو مدرسة أو مسجد تواردا على مقاصد تتناقض فيها أغراضهما فيثور من التناقض التنافر والتباغض ومنه تثور بقية أسباب الحسد، ولذلك ترى العالم يحسد العالم دون العابد، والعابد يحسد العابد دون العالم، والتاجر يحسد التاجر بل الإسكاف يحسد الإسكاف ولا يحسد البزاز إلا بسبب آخر سوى الاجتماع في الحرفة.[1]

ويحسد الرجل أخاه وابن عمه أكثر مما يحسد الأجانب، والمرأة تحسد ضرتها وسرية زوجها أكثر مما تحسد أم الزوج وابنته لأن مقصد البزاز غير مقصد الإسكاف فلا يتزاحمون على المقاصد إذ مقصد البزاز الثروة ولا يحصلها إلا بكثرة الزبون وإنما ينازعه فيه بزاز آخر إذ حريف البزاز لا يطلبه الإسكاف بل البزاز ثم مزاحمة البزاز المجاور له أكثر من مزاحمة البعيد عنه إلى طرف السوق فلا جرم يكون حسده للجار أكثر.

وكذلك الشجاع يحسد الشجاع ولا يحسد العالم لأن مقصده أن يذكر بالشجاعة ويشتهر بها وينفرد بهذه الخصلة ولا يزاحمه العالم على هذا الغرض، وكذلك يحسد العالم العالم ولا يحسد الشجاع، ثم حسد الواعظ للواعظ أكثر من حسده للفقيه والطبيب؛ لأن التزاحم بينهما على مقصود واحد أخص، فأصل هذه المحاسدات العداوة، وأصل العداوة التزاحم بينهما على غرض واحد، والغرض الواحد لا يجمع متباعدين بل متناسبين فلذلك يكثر الحسد بينهما. نعم من اشتد حرصه على الجاه وأحب الصيت في جميع أطراف العالم بما هو فيه فإنه يحسد كل من هو في العالم وإن بعد ممن يساهمه[2] في الخصلة التي يتفاخر بها.

ومنشأ جميع ذلك حب الدنيا فإن الدنيا هي التي تضيق على المتزاحمين. أما الآخرة فلا ضيق فيها وإنما مثال الآخرة نعمة العلم فلا جرم من يحب معرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وملائكته وأنبيائه وملكوت سمواته وأرضه لم يحسد غيره إذا عرف ذلك أيضاً، لأن المعرفة لا تضيق عن العارفين، بل

---

(١) **الإسكاف**: وهو الخراز، **والبزاز**: الذي يبيع القماش من البز، **والحرفة**: الصنعة. (اتحاف)

(٢) أي يشاركه. (اتحاف)

www.dawateislami.net

المعلوم الواحد يعلمه ألف ألف عالم ويفرح بمعرفته ويلتذ به ولا تنقص لذة واحد بسبب غيره، بل يحصل بكثرة العارفين زيادة الأنس وثمرة الاستفادة والإفادة، فلذلك لا يكون بين علماء الدين محاسدة لأن مقصدهم معرفة الله تعالى وهو بحر واسع لا ضيق فيه، وغرضهم المنزلة عند الله ولا ضيق أيضاً فيما عند الله تعالى لأن أجل ما عند الله سبحانه من النعيم لذة لقائه وليس فيها ممانعة ومزاحمة ولا يضيق بعض الناظرين على بعض بل يزيد الأنس بكثرتهم.

نعم إذا قصد العلماء بالعلم المال والجاه تحاسدوا لأن المال أعيان وأجسام إذا وقعت في يد واحد خلت عنها يد الآخر، ومعنى الجاه ملك القلوب ومهما امتلأ قلب شخص بتعظيم عالم انصرف عن تعظيم الآخر أو نقص عنه لا محالة فيكون ذلك سبباً للمحاسدة وإذا امتلأ قلب بالفرح بمعرفة الله تعالى لم يمنع ذلك أن يمتلئ قلب غيره بها وأن يفرح بذلك، والفرق بين العلم والمال أن المال لا يحل في يد ما لم يرتحل عن اليد الأخرى، والعلم في قلب العالم مستقر ويحل في قلب غيره بتعليمه من غير أن يرتحل من قلبه، والمال أجسام وأعيان ولها نهاية فلو ملك الإنسان جميع ما في الأرض لم يبق بعده مال يتملكه غيره، والعلم لا نهاية له ولا يتصور استيعابه فمن عوّد نفسه الفكر في جلال الله وعظمته وملكوت أرضه وسمائه صار ذلك ألذ عنده من كل نعيم ولم يكن ممنوعاً منه ولا مزاحماً فيه، فلا يكون في قلبه حسد لأحد من الخلق لأن غيره أيضاً لو عرف مثل معرفته لم ينقص من لذته بل زادت لذته بمؤانسته، فتكون لذة هؤلاء في مطالعة عجائب الملكوت على الدوام أعظم من لذة من ينظر إلى أشجار الجنة وبساتينها بالعين الظاهرة فإن نعيم العارف وجنته معرفته التي هي صفة ذاته يأمن زوالها وهو أبداً يجني ثمارها فهو بروحه وقلبه مغتذ بفاكهة علمه وهي فاكهة غير مقطوعة ولا ممنوعة بل قطوفها دانية[1] فهو وإن غمض العين الظاهرة فروحه أبداً ترتع في جنة عالية ورياض زاهرة فإن فرض كثرة في العارفين لم يكونوا متحاسدين بل كانوا كما قال فيهم رب العالمين: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر:٤٧] فهذا حالهم وهم بعد في الدنيا فماذا يظن بهم عند انكشاف الغطاء ومشاهدة المحبوب في العقبى فإذن لا يتصور أن يكون في الجنة محاسدة ولا أن يكون بين أهل الدنيا في الجنة محاسدة لأن الجنة لا مضايقة فيها ولا مزاحمة، ولا تنال إلا بمعرفة الله تعالى التي لا مزاحمة فيها في الدنيا أيضاً، فأهل الجنة بالضرورة برآء من الحسد في الدنيا والآخرة جميعاً بل الحسد من

(١) أي قريبة التناول سهلة المأخذ. (اتحاف)

www.dawateislami.net

صفات المبعدين عن سعة عليين إلى مضيق سجين[1] ولذلك وسم به الشيطان اللعين وذكر من صفاته أنه حسد آدم عليه السلام على ما خص به من الاجتباء، ولما دعي إلى السجود استكبر وأبى وتمرد وعصى.

فقد عرفت أنه لا حسد إلا للتوارد على مقصود يضيق عن الوفاء بالكل ولهذا لا ترى الناس يتحاسدون على النظر إلى زينة السماء ويتحاسدون على رؤية البساتين التي هي جزء يسير من جملة الأرض، وكل الأرض لا وزن لها بالإضافة إلى السماء ولكن السماء لسعة الأقطار وافية بجميع الأبصار فلم يكن فيها تزاحم ولا تحاسد أصلاً.

فعليك إن كنت بصيراً وعلى نفسك مشفقاً أن تطلب نعمة لا زحمة فيها، ولذة لا كدر لها، ولا يوجد ذلك في الدنيا إلا في معرفة الله عز وجل ومعرفة صفاته وأفعاله وعجائب ملكوت السموات والأرض ولا ينال ذلك في الآخرة إلا بهذه المعرفة أيضاً، فإن كنت لا تشتاق إلى معرفة الله تعالى ولم تجد لذتها وفتر عنك رأيك وضعفت فيها رغبتك فأنت في ذلك معذور إذ العنين[2] لا يشتاق إلى لذة الوقاع، والصبي لا يشتاق إلى لذة الملك، فإن هذه لذات يختص بإدراكها الرجال دون الصبيان والمخنثين فكذلك لذة المعرفة يختص بإدراكها الرجال ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [النور:٣٧] ولا يشتاق إلى هذه اللذة غيرهم لأن الشوق بعد الذوق، ومن لم يذق لم يعرف، ومن لم يعرف لم يشتق، ومن لم يشتق لم يطلب، ومن لم يطلب لم يدرك، ومن لم يدرك بقي مع المحرومين في أسفل السافلين ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦]

بيان الدواء الذي ينفي مرض الحسد عن القلب:

اعلم أن الحسد من الأمراض العظيمة للقلوب ولا تداوى أمراض القلوب إلا بالعلم والعمل، والعلم النافع لمرض الحسد هو أن تعرف تحقيقاً أن الحسد ضرر عليك في الدنيا والدين، وأنه لا ضرر فيه على المحسود في الدنيا والدين، بل ينتفع به فيهما. ومهما عرفت هذا عن بصيرة ولم تكن عدو نفسك وصديق عدوك فارقت الحسد لا محالة.

أما كونه ضرراً عليك في الدين فهو أنك بالحسد سخطت قضاء الله تعالى، وكرهت نعمته التي قسمها بين عباده، وعدله الذي أقامه في ملكه بخفي حكمته فاستنكرت ذلك واستبشعته[3]، وهذه جناية

---

(١) **العليون**: درجة من درجات الجنة، **والسجين**: طبقة من طبقات الجحيم. (اتحاف)

(٢) **العنين**: الذي لا شهوة له. (اتحاف)

(٣) أي استقبحته. (اتحاف)

www.dawateislami.net

على حدقة التوحيد وقذى في عين الإيمان، وناهيك[1] بهما جناية على الدين. وقد انضاف إلى ذلك أنك غششت رجلاً من المؤمنين وتركت نصيحته وفارقت أولياء الله وأنبياءه في حبهم الخير لعباده تعالى وشاركت إبليس وسائر الكفار في محبتهم للمؤمنين البلايا وزوال النعم، وهذه خبائث في القلب تأكل حسنات القلب كما تأكل النار الحطب وتمحوها كما يمحو الليل النهار.

وأما كونه ضرراً عليك في الدنيا فهو أنك تتألم بحسدك في الدنيا أو تتعذب به ولا تزال في كمد وغم؛ إذ أعداؤك لا يخليهم الله تعالى عن نعم يفيضها عليهم، فلا تزال تتعذب بكل نعمة تراها وتتألم بكل بلية تنصرف عنهم، فتبقى مغموماً محروماً متشعب القلب ضيق الصدر قد نزل بك ما يشتهيه الأعداء لك وتشتهيه لأعدائك، فقد كنت تريد المحنة لعدوك فتنجزت في الحال محنتك وغمك نقداً ومع هذا فلا تزول النعمة عن المحسود بحسدك ولو لم تكن تؤمن بالبعث والحساب لكان مقتضى الفطنة إن كنت عاقلاً أن تحذر من الحسد لما فيه من ألم القلب ومساءته مع عدم النفع، فكيف وأنت عالم بما في الحسد من العذاب الشديد في الآخرة، فما أعجب من العاقل كيف يتعرض لسخط الله تعالى من غير نفع يناله بل مع ضرر يحتمله وألم يقاسيه فيهلك دينه ودنياه من غير جدوى ولا فائدة.

وأما أنه لا ضرر على المحسود في دينه ودنياه فواضح لأن النعمة لا تزول عنه بحسدك بل ما قدره الله تعالى من إقبال ونعمة فلا بد أن يدوم إلى أجل معلوم قدره الله سبحانه، فلا حيلة في دفعه بل كل شيء عنده بمقدار ولكل أجل كتاب ولذلك شكا نبي من الأنبياء من امرأة ظالمة مستولية على الخلق فأوحى الله إليه: فر من قدامها حتى تنقضي أيامها أي ما قدرناه في الأزل لا سبيل إلى تغييره، فاصبر حتى تنقضي المدة التي سبق القضاء بدوام إقبالها فيها، ومهما لم تزل النعمة بالحسد لم يكن على المحسود ضرر في الدنيا ولا يكون عليه إثم في الآخرة، ولعلك تقول: ليت النعمة كانت تزول عن المحسود بحسدي، وهذا غاية الجهل فإنه بلاء تشتهيه أولاً لنفسك فإنك أيضاً لا تخلو عن عدوّ يحسدك فلو كانت النعمة تزول بالحسد لم يبق لله تعالى عليك نعمة ولا على أحد من الخلق، ولا نعمة الإيمان أيضاً لأن الكفار يحسدون المؤمنين على الإيمان قال الله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتٰبِ لَوْ يَرُدُّوْنَكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيْمٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾ [البقرة:١٠٩] إذ ما يريده الحسود لا يكون. نعم هو يضل بإرادته الضلال لغيره فإن إرادة الكفر كفر فمن اشتهى أن تزول النعمة عن المحسود بالحسد فكأنما يريد أن يسلب نعمة الإيمان بحسد الكفار وكذا سائر النعم.

---

(١) «ناهيك» كلمة تعجب واستعظام كما يقال: حسبك. وتأويلها أنه غاية تنهاك عن طلب غيره. (اتحاف)

www.dawateislami.net

وإن اشتهيت أن تزول النعمة عن الخلق بحسدك ولا تزول عنك بحسد غيرك، فهذا غاية الجهل والغباوة فإن كل واحد من حمقى الحساد أيضاً يشتهي أن يخص بهذه الخاصية ولست بأولى من غيرك فنعمة الله تعالى عليك في أن لم تزل النعمة بالحسد مما يجب عليك شكرها وأنت بجهلك تكرهها.

وأما أن المحسود ينتفع به في الدين والدنيا فواضح، أما منفعته في الدين فهو أنه مظلوم من جهتك لا سيما إذا أخرجك الحسد إلى القول والفعل بالغيبة والقدح فيه وهتك ستره وذكر مساويه فهذه هدايا تهديها إليه، أعني أنك بذلك تهدي إليه حسناتك حتى تلقاه يوم القيامة مفلساً محروماً عن النعمة كما حرمت في الدنيا عن النعمة فكأنك أردت زوال النعمة عنه فلم تزل، نعم كان لله عليه نعمة؛ إذ وفقك للحسنات فنقلتها إليه، فأضفت إليه نعمة إلى نعمة وأضفت إلى نفسك شقاوة إلى شقاوة.

وأما منفعته في الدنيا فهو أن أهم أغراض الخلق مساءة الأعداء وغمهم وشقاوتهم وكونهم معذَّبين مغمومين ولا عذاب أشد مما أنت فيه من ألم الحسد، وغاية أماني أعدائك أن يكونوا في نعمة وأن تكون في غم وحسرة بسببهم، وقد فعلت بنفسك ما هو مرادهم، ولذلك لا يشتهي عدوك موتك بل يشتهي أن تطول حياتك، ولكن في عذاب الحسد لتنظر إلى نعمة الله عليه فينقطع قلبك حسداً ولذلك قيل:

لا مات أعداؤك بل خلدوا ... حتى يروا فيك الذي يكمد

لا زلت محسودا على نعمة ... فإنما الكامل من يحسد

ففرح عدوك بغمك وحسدك أعظم من فرحه بنعمته، ولو علم خلاصك من ألم الحسد وعذابه لكان ذلك أعظم مصيبة وبلية عنده فما أنت فيما تلازمه من غم الحسد إلا كما يشتهيه عدوك.

فإذا تأملت هذا عرفت أنك عدو نفسك وصديق عدوك؛ إذ تعاطيت ما تضررت به في الدنيا والآخرة وانتفع به عدوك في الدنيا والآخرة وصرت مذموماً عند الخالق والخلائق، شقياً في الحال والمآل، ونعمة المحسود دائمة شئت أم أبيت باقية.

ثم لم تقتصر على تحصيل مراد عدوك حتى وصلت إلى إدخال أعظم سرور على إبليس الذي هو أعدى أعدائك؛ لأنه لما رآك محروماً من نعمة العلم والورع والجاه والمال الذي اختص به عدوك عنك خاف أن تحب ذلك له فتشاركه في الثواب بسبب المحبة؛ لأن من أحب الخير للمسلمين كان شريكاً في الخير ومن فاته اللحاق بدرجة الأكابر في الدين لم يفته ثواب الحب لهم مهما أحب ذلك، فخاف إبليس أن تحب ما أنعم الله به على عبده من صلاح دينه ودنياه فتفوز بثواب الحب فبغضه إليك حتى لا تلحقه بحبك كما لم تلحقه بعملك.

www.dawateislami.net

وقد قال أعرابي للنبي صلى الله عليه وسلم يا رسول الله الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((**الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ**)) [1] وقام أعرابي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يخطب فقال يا رسول الله متى الساعة؟ فقال: ((**مَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟**)) قال: ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صيام إلا أني أحب الله ورسوله فقال صلى الله عليه وسلم: ((**أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ**)) [2] قال أنس: ما فرح المسلمون بعد إسلامهم كفرحهم يومئذ. إشارة إلى أن أكبر بغيتهم كانت حب الله ورسوله قال أنس: فنحن نحب رسول الله وأبا بكر وعمر ولا نعمل مثل عملهم ونرجو أن نكون معهم.

وقال أبو موسى: قلت يا رسول الله! الرجل يحب المصلين ولا يصلي ويحب الصوام ولا يصوم حتى عد أشياء، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((**هُوَ مَعَ مَنْ أَحَبَّ**)) [3] وقال رجل لعمر بن عبد العزيز إنه كان يقال: إن استطعت أن تكون عالماً فكن عالماً فإن لم تستطع أن تكون عالماً فكن متعلماً فإن لم تستطع أن تكون متعلماً فأحبهم فإن لم تستطع فلا تبغضهم، فقال: سبحان الله لقد جعل الله لنا مخرجاً.

فانظر الآن كيف حسدك إبليس ففوت عليك ثواب الحب ثم لم يقنع به حتى بغض إليك أخاك وحملك على الكراهة حتى أثمت، وكيف لا وعساك تحاسد رجلاً من أهل العلم وتحب أن يخطيء في دين الله تعالى وينكشف خطؤه ليفتضح؟ وتحب أن يخرس لسانه حتى لا يتكلم أو يمرض حتى لا يعلم ولا يتعلم وأي إثم يزيد على ذلك؟ فليتك إذ فاتك اللحاق به ثم اغتممت بسببه سلمت من الإثم وعذاب الآخرة وقد جاء في الحديث: ((**أَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلاَثَةٌ: الْمُحْسِنُ وَالْمُحِبُّ لَهُ وَالْكَافُّ عَنْهُ**)) [4] أي من يكف عنه الأذى والحسد والبغض والكراهة، فانظر كيف أبعدك إبليس عن جميع المداخل الثلاثة حتى لا تكون من أهل واحد منها ألبتة فقد نفذ فيك حسد إبليس وما نفذ حسدك في عدوك بل على نفسك.

بل لو كوشفت بحالك في يقظة أو منام لرأيت نفسك أيها الحاسد في صورة من يرمي سهماً إلى عدوه ليصيب مقتله فلا يصيبه بل يرجع إلى حدقته اليمنى فيقلعها فيزيد غضبه فيعود ثانية فيرمي أشد من الأولى فيرجع إلى عينه الأخرى فيعميها فيزداد غيظه فيعود ثالثة فيعود على رأسه فيشجه وعدوه سالم في كل حال وهو إليه راجع مرة بعد أخرى وأعداؤه حوله يفرحون به ويضحكون عليه. وهذا حال الحسود وسخرية الشيطان منه بل حالك في الحسد أقبح من هذا لأن الرمية العائدة لم تفوت إلا العينين

---

(١) ...صحيح البخاري، كتاب الادب، باب علامة حب الله عزوجل...الخ، الحديث: ٦١٦٨، ٤/١٤٧

(٢) ...صحيح البخاري، كتاب الادب، باب علامة حب الله عزوجل...الخ، الحديث: ٦١٧١، ٤/١٤٧

(٣) ...المتحابين في الله لابن قدامة، الحديث: ٧، ص ٢٨ بألفاظ مختلفة والمعنى واحد. الشاملة

(٤) ...لم نجد له اصلاً. [علمية]

www.dawateislami.net

ولو بقيتا لفاتتا بالموت لا محالة، والحسد يعود بالإثم والإثم لا يفوت بالموت ولعله يسوقه إلى غضب الله وإلى النار فلأن تذهب عينه في الدنيا خير له من أن تبقى له عين يدخل بها النار فيقلعها لهيب النار.

فانظر كيف انتقم الله من الحاسد إذا أراد زوال النعمة عن المحسود فلم يزلها عنه ثم أزالها عن الحاسد؛ إذ السلامة من الإثم نعمة والسلامة من الغم والكمد نعمة قد زالتا عنه تصديقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر:٤٣] وربما يبتلي بعين ما يشتهيه لعدوه وقلما يشمت شامت بمساءة إلا ويبتلي بمثلها حتى قالت عائشة رضي الله عنها: ما تمنيت لعثمان شيئاً إلا نزل بي حتى لو تمنيت له القتل لقتلت[1].

فهذا إثم الحسد نفسه فكيف ما يجر إليه الحسد من الاختلاف وجحود الحق وإطلاق اللسان واليد بالفواحش في التشفي من الأعداء وهو الداء الذي فيه هلك الأمم السالفة. فهذه هي الأدوية العلمية فمهما تفكر الإنسان فيها بذهن صاف وقلب حاضر انطفأت نار الحسد من قلبه وعلم أنه مهلك نفسه ومفرح عدوه ومسخط ربه ومنغص عيشه.

وأما العمل النافع فيه فهو أن يحكم الحسد فكل ما يتقاضاه الحسد من قول وفعل فينبغي أن يكلف نفسه نقيضه، فإن بعثه الحسد على القدح في محسوده كلف لسانه المدح له والثناء عليه، وإن حمله على التكبر عليه ألزم نفسه التواضع له والاعتذار إليه، وإن بعثه على كف الإنعام عليه ألزم نفسه الزيادة في الإنعام عليه، فمهما فعل ذلك عن تكلف وعرفه المحسود طاب قلبه وأحبه، ومهما ظهر حبه عاد الحاسد فأحبه وتولد من ذلك الموافقه التي تقطع مادة الحسد؛ لأن التواضع والثناء والمدح وإظهار السرور بالنعمة يستجلب قلب المنعم عليه ويسترقه ويستعطفه ويحمله على مقابلة ذلك بالإحسان ثم ذلك الإحسان يعود إلى الأول فيطيب قلبه ويصير ما تكلفه أولاً: طبعاً آخراً ولا يصدّنه عن ذلك قول الشيطان له لو تواضعت وأثنيت عليه حملك العدو على العجز أو على النفاق أو الخوف، وأن ذلك مذلة ومهانة وذلك من خدع الشيطان ومكايده بل المجاملة تكلفاً كانت أو طبعاً تكسر سورة العداوة من الجانبين وتقل مرغوبها وتعود القلوب التآلف والتحاب، وبذلك تستريح القلوب من ألم الحسد وغم التباغض.

فهذه هي أدوية الحسد وهي نافعة جداً إلا أنها مُرَّة على القلوب جداً، ولكن النفع في الدواء المُر فمن لم يصبر على مرارة الدواء لم ينل حلاوة الشفاء، وإنما تهون مرارة هذا الدواء. أعني التواضع للأعداء والتقرب إليهم بالمدح والثناء بقوة العلم بالمعاني التي ذكرناها وقوة الرغبة في ثواب الرضا

---

(١) كان سبب كلامها فيه لكثرة ما كان يبلغها من الشكاية في حقه من قِبَل جور عمّاله وإبقائهم على أعمالهم، فكانت كغيرها من الصحابة يغضبون بذلك منه. (اتحاف)

www.dawateislami.net

بقضاء الله تعالى وحب ما أحبه، وعزة النفس وترفعها عن أن يكون في العالم شيء على خلاف مرادها جهل، وعند ذلك يريد ما لا يكون إذ لا مطمع في أن يكون ما يريد وفوات المراد ذل وخسة ولا طريق إلى الخلاص من هذا الذل إلا بأحد أمرين: إما بأن يكون ما تريد أو بأن تريد ما يكون، والأول ليس إليك ولا مدخل للتكلف والمجاهدة فيه. وأما الثاني: فللمجاهدة فيه مدخل، وتحصيله بالرياضة ممكن فيجب تحصيله على كل عاقل هذا هو الدواء الكلي.

فأما الدواء المفصل: فهو تتبع أسباب الحسد من الكبر وغيره وعزة النفس وشدة الحرص على ما لا يغني، وسيأتي تفصيل مداواة هذه الأسباب في مواضعها إن شاء الله تعالى، فإنها مواد هذا المرض ولا ينقمع المرض إلا بقمع المادة فإن لم تقمع المادة لم يحصل بما ذكرناه إلا تسكين وتطفئة، ولا يزال يعود مرة بعد أخرى ويطول الجهد في تسكينه مع بقاء مواده، فإنه ما دام محباً للجاه فلا بد وأن يحسد من استأثر بالجاه والمنزلة في قلوب الناس دونه، ويغمه ذلك لا محالة وإنما غايته أن يهون الغم على نفسه ولا يظهر بلسانه ويده، فأما الخلو عنه رأساً فلا يمكنه والله الموفق.

بيان القدر الواجب في نفي الحسد عن القلب:

اعلم أن المؤذي ممقوت بالطبع، ومن آذاك فلا يمكنك أن لا تبغضه غالباً فإذا تيسرت له نعمة فلا يمكنك أن لا تكرهها له حتى يستوي عندك حسن حال عدوك وسوء حاله، بل لا تزال تدرك في النفس بينهما تفرقة ولا يزال الشيطان ينازعك إلى الحسد له، ولكن إن قوي ذلك فيك حتى بعثك على إظهار الحسد بقول أو فعل بحيث يعرف ذلك من ظاهرك بأفعالك الاختيارية فأنت حسود عاص بحسدك، وإن كففت ظاهرك بالكلية إلا أنك بباطنك تحب زوال النعمة وليس في نفسك كراهة لهذه الحالة فأنت أيضاً حسود عاص؛ لأن الحسد صفة القلب لا صفة الفعل قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا﴾ [الحشر: ٩] وقال عز وجل: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ [النساء:٨٩] وقال: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ [آل عمران:١٢٠] أما الفعل فهو غيبة وكذب وهو عمل صادر عن الحسد وليس هو عين الحسد، بل محل الحسد القلب دون الجوارح. نعم هذا الحسد ليس مظلمة يجب الاستحلال منها بل هو معصية بينك وبين الله تعالى وإنما يجب الاستحلال من الأسباب الظاهرة على الجوارح.

فأما إذا كففت ظاهرك وألزمت مع ذلك قلبك كراهة ما يترشح منه بالطبع من حب زوال النعمة حتى كأنك تمقت نفسك على ما في طبعها فتكون تلك الكراهة من جهة العقل في مقابلة الميل من جهة الطبع، فقد أديت الواجب عليك ولا يدخل تحت اختيارك في أغلب الأحوال أكثر من هذا.

www.dawateislami.net

فأما تغيير الطبع ليستوي عنده المؤذي والمحسن ويكون فرحه أو غمه بما تيسر لهما من نعمة أو تنصب عليهما من بلية سواء، فهذا مما لا يطاوع الطبع عليه ما دام ملتفتاً إلى حظوظ الدنيا إلا أن يصير مستغرقاً بحب الله تعالى مثل السكران الواله، فقد ينتهي أمره إلى أن لا يلتفت قلبه إلى تفاصيل أحوال العباد بل ينظر إلى الكل بعين واحدة وهي عين الرحمة ويرى الكل عباد الله وأفعالهم أفعالا لله ويراهم مسخرين وذلك إن كان فهو كالبرق الخاطف لا يدوم ثم يرجع القلب بعد ذلك إلى طبعه ويعود العدو إلى منازعته أعني الشيطان فإنه ينازع بالوسوسة فمهما قابل ذلك بكراهته وألزم قلبه هذه الحالة فقد أدى ما كلفه.

وقد ذهب ذاهبون إلى أنه لا يأثم إذا لم يظهر الحسد على جوارحه لما روي عن الحسن أنه سئل عن الحسد فقال: غمه فإنه لا يضرك ما لم تبده وروي عنه، موقوفاً ومرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((**ثَلاَثَةٌ لاَ يَخْلُوْ مِنْهُنَّ الْمُؤْمِنُ وَلَهُ مِنْهُنَّ مَخْرَجٌ**))[1] فمخرجه من الحسد أن لا يبغي.

والأولى أن يحمل هذا على ما ذكرناه من أن يكون فيه كراهة من جهة الدين والعقل في مقابلة حب الطبع لزوال نعمة العدو، وتلك الكراهة تمنعه من البغي والإيذاء فإن جميع ما ورد من الأخبار في ذم الحسد يدل ظاهره على أن كل حاسد آثم ثم الحسد عبارة عن صفة القلب لا عن الأفعال فكل من يحب إساءة مسلم فهو حاسد. فإذن كونه آثما بمجرد حسد القلب من غير فعل هو في محل الاجتهاد، والأظهر ما ذكرناه من حيث ظواهر الآيات والأخبار ومن حيث المعنى، إذ يبعد أن يعفى عن العبد في إرادته إساءة مسلم واشتماله بالقلب على ذلك من غير كراهة وقد عرفت من هذا أن لك في أعدائك ثلاثة أحوال :

أحدها: أن تحب مساءتهم بطبعك وتكره حبك لذلك وميل قلبك إليه بعقلك وتمقت نفسك عليه وتود لو كانت لك حيلة في إزالة ذلك الميل منك وهذا معفو عنه قطعا لأنه لا يدخل تحت الاختيار أكثر منه.

الثاني: أن تحب ذلك وتظهر الفرح بمساءته إما بلسانك أو بجوارحك فهذا هو الحسد المحظور قطعا.

الثالث : وهو بين الطرفين أن تحسد بالقلب من غير مقت لنفسك على حسدك ومن غير إنكار منك على قلبك ولكن تحفظ جوارحك عن طاعة الحسد في مقتضاه، وهذا في محل الخلاف والظاهرأنه لا يخلو عن إثم بقدر قوة ذلك الحب وضعفه. والله تعالى أعلم والحمد لله رب العالمين وحسبنا الله ونعم الوكيل.

---

(١) ...المعجم الكبير، الحديث: ٣٢٢٧، ٣/٢٢٨

www.dawateislami.net

كتاب ذم الجاه والرياء

وهو الكتاب الثامن من ربع المهلكات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله علام الغيوب المطلع على سرائر القلوب المتجاوز عن كبائر الذنوب[١] العالم بما تجنه الضمائر[٢] من خفايا الغيوب، البصير بسرائر النيات وخفايا الطويات[٣] الذي لا يقبل من الأعمال إلا ما كمل ووفى وخلص عن شوائب الرياء والشرك وصفا، فإنه المنفرد بالملكوت فهو أغنى الأغنياء عن الشرك والصلاة والسلام على محمد وآله وأصحابه المبرئين من الخيانة[٤] والإفك وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد! فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((**إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِيْ الرِّيَاءُ وَالشَّهْوَةُ الْخَفِيَّةُ الَّتِيْ هِيَ أَخْفَى مِنْ دَبِيْبِ النَّمْلَةِ**[٥] **السَّوْدَاءِ عَلَى الصَّخْرَةِ الصَّمَّاءِ**[٦] **فِي اللَّيْلَةِ الظَّلْمَاءِ**[٧]))[٨] ولذلك عجز عن الوقوف على غوائلها[٩] سماسرة العلماء فضلاً عن عامة العباد والأتقياء وهو من أواخر غوائل النفس وبواطن مكايدها، وإنما يبتلى به العلماء والعباد والمشمرون عن ساق الجد لسلوك سبيل الآخرة فإنهم مهما قهروا أنفسهم وجاهدوها وفطموها عن الشهوات وصانوها عن الشبهات وحملوها بالقهر على أصناف العبادات عجزت نفوسهم عن الطمع في المعاصي الظاهرة الواقعة على الجوارح فطلبت الاستراحة إلى التظاهر بالخير وإظهار العمل والعلم، فوجدت مخلصاً من مشقة المجاهدة إلى لذة القبول عند الخلق ونظرهم إليه بعين الوقار والتعظيم، فسارعت إلى إظهار الطاعة وتوصلت إلى اطلاع الخلق ولم تقنع باطلاع الخالق، وفرحت بحمد الناس ولم تقنع بحمد الله وحده

---

(١) أي المسامح عنها بفضله. (اتحاف)

(٢) **(تجنه)** أي تخفيه **(الضمائر)** جمع ضمير وهو داخل القلب. (اتحاف)

(٣) **خفايا الطويات:** جمع الطوية فعيلة من الطي والمراد بها هنا باطن القلب. (اتحاف)

(٤) **الخيانة:** هي ضد الأمانة. قال الطيبي: هي مخالفة الحق بنقض العهد في السر، والأظهر أنها شاملة لجميع التكاليف الشرعية كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ﴾ (الأحزاب: ٧٢) الآية، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ﴾ (الأنفال: ٢٧) شامل لجميعها. (مرقاة المفاتيح، كتاب الدعوات، باب الاستعاذة)

(٥) **دبيب النملة:** أي حركة مشي النملة. (اتحاف)

(٦) **الصخرة الصماء:** التي ليس فيها خرق ولا صدع. (مرقاة المفاتيح، كتاب اللباس)

(٧) **اللَّيْلَةِ الظَّلْمَاءِ:** وصف النملة بالسوداء لإرادة المبالغة في الخفاء لأنها لا ترى حينئذ. (اتحاف)

(٨) **...سنن ابن ماجه، كتاب الزهد، باب الرياء والسمعة، الحديث: ٤٢٠٥، ٤/١٤٧**

(٩) **غوائلها:** أي مهالكها، وسماسرة العلماء: أي نقادهم. (اتحاف)

www.dawateislami.net

وعلمت أنهم إذا عرفوا تركه الشهوات وتوقيه الشبهات وتحمله مشاق العبادات أطلقوا ألسنتهم بالمدح والثناء وبالغوا في التقريظ والإطراء[1] ونظروا إليه بعين التوقير والاحترام وتبركوا بمشاهدته ولقائه ورغبوا في بركة دعائه وحرصوا على اتباع رأيه، وفاتحوه بالخدمة والسلام، وأكرموه في المحافل غاية الإكرام، وسامحوه في البيع والمعاملات وقدموه في المجالس، وآثروه بالمطاعم والملابس وتصاغروا له متواضعين، وانقادوا له في أغراضه موقرين، فأصابت النفس في ذلك لذة هي أعظم اللذات وشهوة هي أغلب الشهوات فاستحقرت فيه ترك المعاصي والهَفَوات[2] واستلانت خشونة المواظبة على العبادات لإدراكها في الباطن لذة اللذات وشهوة الشهوات فهو يظن أن حياته بالله وبعبادته المرضية، وإنما حياته بهذه الشهوة الخفية التي تعمي عن دركها العقول النافذة القوية، ويرى أنه مخلص في طاعة الله ومجتنب لمحارم الله والنفس قد أبطنت هذه الشهوة تزييناً للعباد وتصنعاً للخلق وفرحاً بما نالت من المنزلة والوقار وأحبطت بذلك ثواب الطاعات وأجور الأعمال وقد أثبتت اسمه في جريدة المنافقين وهو يظن أنه عند الله من المقربين.

وهذه مكيدة للنفس لا يسلم منها إلا الصديقون، ومهواة لا يرقى منها إلا المقربون ولذلك قيل: آخر ما يخرج من رؤوس الصديقين حب الرياسة وإذا كان الرياء هو الداء الدفين[3] الذي هو أعظم شبكة للشياطين وجب شرح القول في سببه وحقيقته ودرجاته وأقسامه وطرق معالجته والحذر منه ويتضح الغرض منه في ترتيب الكتاب على شطرين.

الشطر الأول في حب الجاه والشهرة:

وفيه بيان ذم الشهرة وبيان فضيلة الخُمُول[4]، وبيان ذم الجاه، وبيان معنى الجاه وحقيقته، وبيان السبب في كونه محبوباً أشد من حب المال، وبيان أن الجاه كمال وهمي وليس بكمال حقيقي، وبيان ما يحمد من حب الجاه وما يذم، وبيان السبب في حب المدح والثناء وكراهية الذم، وبيان العلاج في حب الجاه، وبيان علاج حب المدح، وبيان علاج كراهة الذم، وبيان اختلاف أحوال الناس في المدح والذم، فهي اثنا عشر فصلا منها تنشأ معاني الرياء فلا بد من تقديمها والله الموفق للصواب بلطفه ومَنِّه وكرمه.

---

(١) **الإطراء**: المبالغة في المدح. (اتحاف)

(٢) أي الزلات. (اتحاف)

(٣) المدفون في باطن القلب. (اتحاف)

(٤) الخمول:خفاء القدر والذكر. (التعاريف)

www.dawateislami.net

بيان ذم الشهرة وانتشار الصِّيْت:

اعلم أصلحك الله أن أصل الجاه هو انتشار الصيت[1] والاشتهار وهو مذموم بل المحمود الخمول إلا من شهره الله تعالى لنشر دينه من غير تكلف طلب الشهرة منه قال أنس رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((**حَسْبُ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ**[2] **أَنْ يُشِيْرَ النَّاسُ إِلَيْهِ بِالأَصَابِعِ**[3] **فِيْ دِيْنِهِ وَدُنْيَاهُ**[4] **إِلاَّ مَنْ عَصَمَهُ اللهُ**[5])) [6] وقال جابر بن عبد الله قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((**بِحَسْبِ الْمَرْءِ مِنَ الشَّرِّ إِلاَّ مَنْ عَصَمَهُ اللهُ مِنَ السُّوْءِ أَنْ يُشِيْرَ النَّاسُ إِلَيْهِ بِالأَصَابِعِ فِيْ دِيْنِهِ وَدُنْيَاهُ إِنَّ اللهَ لاَ يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَلَكِنْ يَّنْظُرُ إِلَى قُلُوْبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ**[7])) [8] ولقد ذكر الحسن رحمه الله للحديث تأويلاً ولا بأس به إذ روي هذا الحديث فقيل له: يا أبا سعيد إن الناس إذا رأوك أشاروا إليك بالأصابع! فقال: إنه لم يعن هذا وإنما عني به المبتدع في دينه، والفاسق في دنياه. وقال علي كرم الله وجهه: تبذل ولا تشتهر ولا ترفع شخصك لتذكر وتعلم، واكتم واصمت تسلم، تسر الأبرار وتغيظ الفجار. وقال إبراهيم ابن أدهم رحمه الله: ما صَدَّقَ اللهَ مَن أحب الشهرةَ. وقال أيوب السختياني: والله ما صدق الله عبد إلا سره أن لا يشعر بمكانه. وعن خالد بن معدان: أنه كان إذا كثرت حلقته قام مخافة الشهرة، وعن أبي العالية: أنه كان إذا جلس إليه أكثر من ثلاثة قام. ورأى طلحة قوماً معه نحواً من عشرة فقال: ذباب طمع وفراش نار.

وقال سليم بن حنظلة: بينا نحن حول أبي بن كعب نمشي خلفه إذ رآه عمر فعلاه بالدرة فقال: انظر يا أمير المؤمنين ما تصنع؟ فقال: إن هذه ذلة للتابع وفتنة للمتبوع. وعن الحسن قال: خرج ابن مسعود يوما من منزله فاتبعه ناس فالتفت إليهم فقال: علام تتبعوني؟ فوالله لو تعلمون ما أغلق عليه بابي

---

(١) الصيت بالكسر الذكر الجميل. (اتحاف)

(٢) أي يكفيه منه في أخلاقه ومعاشه ومعاده. (فيض القدير)

(٣) أي يشير الناس بعضهم لبعض بأصابعهم. (فيض القدير)

(٤) فإن ذلك شر وبلاء ومحنة. (فيض القدير)

(٥) لأنه إنما يشار إليه في دين لكونه أحدث بدعة عظيمة فيشار إليه بها وفي دنيا لكونه أحدث منكرا من الكبائر غير متعارف بينهم بخلاف ما تقارب الناس فيه ككثرة صلاة أو صوم فليس محل إشارة ولا تعجب لمشاركة غيره له. (فيض القدير)

(٦) ...شعب الايمان، باب في اخلاص العمل لله، الحديث: ٦٩٧٧، ٥/ ٣٦٢

(٧) والله تعالى إنما ينظر إلى ما يحب ويختار، ولا ينظر إلى ما يبغض قال النبي صلى الله عليه وسلم :((**إن الله تعالى لم ينظر إلى الدنيا منذ خلقها بغضاً لها**)). (بحر الفوائد)

(٨) ...موسوعة الامام ابن ابى الدنيا، كتاب التواضع والخمول، الحديث: ٣١، ٣/ ٥٤٦

www.dawateislami.net

ما اتبعني منكم رجلان. وقال الحسن: إن خفق النعال حول الرجال قلما تلبث عليه قلوب الحمقى وخرج الحسن ذات يوم فاتبعه قوم فقال: هل لكم من حاجة وإلا فما عسى أن يبقى هذا من قلب المؤمن.

وروي أن رجلاً صَحِبَ ابن محيريز في سفر فلمّا فارقه قال: أوصني، فقال: إن استطعت أن تعرف ولا تعرف، وتمشي ولا يمشى إليك، وتسأل ولا تسئل فافعل. وخرج أيوب في سفر فشيعه ناس كثيرون فقال: لولا أني أعلم أن الله يعلم من قلبي أني لهذا كاره لخشيت المقت من الله عز وجل. وقال معمر: عاتبت أيوب على طول قميصه فقال: إن الشهرة فيما مضى كانت في طوله وهي اليوم في تشميره. قال بعضهم: كنت مع أبي قلابة إذ دخل عليه رجل عليه أكسية فقال: إياكم وهذا الحمار الناهق، يشير به إلى طلب الشهرة.

وقال الثوري: كانوا يكرهون الشهرة من الثياب الجيدة والثياب الرديئة إذ الأبصار تمتد إليهما جميعاً. وقال رجل لبشر بن الحارث أوصني، فقال: أخمل ذكرك وطيب مطعمك. وكان حوشب يبكي ويقول: بلغ اسمي مسجد الجامع وقال بِشْر: ما أعرف رجلاً أحب أن يعرف إلا ذهب دينه وافتضح وقال: أيضاً لا يجد حلاوة الآخرة رجل يحب أن يعرفه الناس. رحمة الله عليه وعليهم أجمعين.

بيان فضيلة الخمول:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((**رُبَّ أَشْعَثَ**(١) **أَغْبَرَ**(٢) **ذِيْ طِمْرَينِ**(٣) **لاَ يُؤْبَهُ لَهُ**(٤) **لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ**(٥) **مِنْهُمْ الْبَرَّاءُ بْنُ مَالِك**)) (٦) وقال ابن مسعود قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((**رُبَّ ذِي طِمْرَيْنِ لا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لأَبَرَّهُ لَوْ قَالَ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ لأَعْطَاهُ الجَنَّةَ وَلَمْ يُعْطِهِ مِنَ الدُّنْيَا شَيْئًا**)) (٧). وقال صلى الله عليه وسلم: ((**أَلا أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ الجَنَّةِ كُلُّ ضَعِيْفٍ**(٨)

---

(١) **الأشعث**: من تغير شعره وتلبد من قلة تعهده بالدهن. (بحر الفوائد)

(٢) **أغبر**: عليه الغبار ، وهو ما صَغُر من التراب والرماد. (بحر الفوائد)

(٣) تثنية طمر بالكسر وهو الثوب الخلق. (اتحاف)

(٤) أي لا يبالي به ولا يلتفت إليه لحقارته. (اتحاف)

(٥) أي أبر قسمه وأوقع مطلوبه إكراماً له وصوناً ليمينه عن الحنث لعظم منزلته عنده، أو معنى القسمِ الدعاءُ، وإبرارِه إجابتُه. (اتحاف)

(٦) . . . سنن الترمذی، کتاب المناقب، باب مناقب البراء بن مالک رضی الله عنه، الحدیث: ٣٨٨٠، ٥/٤٦٠

(٧) . . . سنن الترمذی، کتاب المناقب، باب مناقب البراء بن مالک رضی الله عنه، الحدیث: ٣٨٨٠، ٥/٤٦٠

(٨) **كل ضعيف**: قال أبو البقاء : برفع «كل» لاغير أي: هم كل ضعيف عن أذى الناس أو عن المعاصي ملتزم الخشوع والخضوع بقلبه وقالبه. (فيض القدير)

www.dawateislami.net

مُسْتَضْعَفٍ[1] **لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لأَبَرَّهُ وَأَهْلُ النَّارِ كُلُّ مُتَكَبِّرٍ مُسْتَكْبِرٍ جَوَّاظٍ**[2]))[3] وقال أبو هريرة قال صلى الله عليه وسلم: ((**إِنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ كُلُّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لا يُؤْبَهُ لَهُ الَّذِيْنَ إِذَا اسْتَأْذَنُوا عَلَى الأُمَرَاءِ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُمْ، وَإِذَا خَطَبُوا النِّسَاءَ لَمْ يُنْكَحُوا، وَإِذَا قَالُوا لَمْ يُنْصَتْ لِقَوْلِهِمْ، حَوَائِجُ أَحَدِهِمْ تَتَخَلْخَلُ فِي صَدْرِهِ لَوْ قُسِّمَ نُوْرُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَى النَّاسِ لَوَسِعَهُمْ**))[4]

وقال صلى الله عليه وسلم: ((**إِنَّ مِنْ أُمَّتِي مَنْ لَوْ أَتَى أَحَدَكُمْ يَسْأَلُهُ دِيْنَارًا لَمْ يُعْطِهِ إِيَّاهُ وَلَوْ سَأَلَهُ دِرْهَمًا لَمْ يُعْطِهِ إِيَّاهُ وَلَوْ سَأَلَهُ فَلْساً لَمْ يُعْطِهِ إِيَّاهُ وَلَوْ سَأَلَ اللهَ الجَنَّةَ لأَعْطَاهُ إِيَّاهَا، وَلَوْ سَأَلَهُ الدُّنْيَا لَمْ يُعْطِهِ إِيَّاهَا وَمَا مَنْعُهَا إِيَّاهُ إِلا لِهَوَانِهَا عَلَيْهِ، رُبَّ ذِي طِمْرَيْنِ لا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لأَبَرَّهُ**))[5].

وروي أن عمر رضي الله عنه دخل المسجد فرأى معاذ بن جبل يبكي عند قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ما يبكيك؟ فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((**إِنَّ اليَسِيرَ مِنَ الرِّيَاءِ شِرْكٌ**[6] **وَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ الأَتْقِيَاءَ الأَخْفِيَاءَ الذِيْنَ إِنْ غَابُوْا لَمْ يُفْتَقَدُوْا، وَإِنْ حَضَرُوْا لَمْ يُعْرَفُوْا، قُلُوْبُهُمْ مَصَابِيْحُ الْهُدَى يَنْجُوْنَ مِنْ كُلِّ غَبْرَاءَ مُظْلِمَةٍ**[7]))[8] وقال محمد بن سويد: قحط أهل المدينة وكان بها رجل صالح لا يؤبه له ملازم لمسجد النبي صلى الله عليه وسلم، فبينما هم في دعائهم إذ

---

(١) **مستضعف**: والمستضعف بفتح العين المهملة وغلط من كسرها لأن المراد أن الناس يستضعفونه ويقهرونه ويحقرونه. وذكر الحاكم في علوم الحديث: أن بن خزيمة سئل من المراد بالضعيف هنا فقال: هو الذي يبرئ نفسه من الحول والقوة في اليوم عشرين مرة إلى خمسين مرة، وقال الكرماني: يجوز الكسر ويراد به المتواضع المتذلل. (فتح الباري)

(٢) **الجواظ**: فيه خمسة أقوال أحدها: أنه الجموع المنوع، والثاني: الشديد الصوت في الشر، والثالث: القصير البطن والرابع: المتكبر المختال في مشيه الفاخر، والخامس: أنه الكثير اللحم المختال في مشيه. (كشف المشكل من حديث الصحيحين)

(٣) **...صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب عتل بعد ذلك زنيم، الحديث: ٤٩١٨، ٣/٣٦٣**

(٤) **...شعب الايمان، باب في الزهد وقصر الامل، الحديث: ١٠٤٨٦، ٧/٣٣٢**

(٥) **...المعجم الاوسط، الحديث: ٥٤٨٠، ٥/٣٤٤، دون قول: ولو سأله الدنيا...الى...الا لهوانها عليه.**

(٦) **تمام الحديث هكذا**: ((إن يسيراً من الرياء شرك وإن من عادى أولياء الله فقد بارز الله بالمحاربة وأن الله يحب الأبرار الأخفياء الأتقياء الذين إن غابوا لم يفتقدوا وإن حضروا لم يدعوا ولم يعرفوا، قلوبهم مصابيح الدجى يخرجون من كل غبراء مظلمة)). (شعب الإيمان، باب إخلاص العمل لله عزوجل)

(٧) **غبراء مظلمة**: أي من عهدة كل مسألة مشكلة و بلية معضلة وقال الطيبي رحمه الله: كناية عن حقارة مساكنهم وإنها مظلمة مغبرة لفقدان أداة ما يتنور ويتنظف به (وهذا الفقر اختياري والا فهم سلاطين الدنيا والآخرة). (مرقاة المفاتيح كتاب الرقاق، باب الرياء والسمعة)

(٨) **...سنن ابن ماجه، كتاب الفتن، باب من ترجى له السلامة من الفتن، الحديث: ٣٩٨٩، ٤/٣٥١**

www.dawateislami.net

جاءهم رجل عليه طمران خَلقان فصلى ركعتين أوجز فيهما ثم بسط يديه فقال: يا رب أقسمت عليك إلا أمطرت علينا الساعة فلم يرد يديه ولم يقطع دعاءه حتى تغشت السماء بالغمام وأمطروا حتى صاح أهل المدينة من مخافة الغرق، فقال: يا رب! إن كنت تعلم أنهم قد اكتفوا فارفع عنهم، فسكن، وتبع الرجل صاحبه الذي استسقى حتى عرف منزله ثم بكر عليه فخرج إليه فقال: إني أتيتك في حاجة فقال: ما هي؟ قال: تخصني بدعوة قال: سبحان الله! أنت أنت[1] وتسألني أن أخصك بدعوة! ثم قال: ما الذي بلغك ما رأيت؟ قال: أطعت الله فيما أمرني ونهاني فسألت الله فأعطاني.

وقال ابن مسعود :كونوا ينابيع العلم، مصابيح الهدى، أحلاس البيوت، سرج الليل ،جرد القلوب[2]، خلقان الثياب، تعرفون في أهل السماء وتخفون في أهل الأرض. وقال: أبو أمامة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((**يَقُوْلُ اللهُ تَعَالى: إِنَّ أَغْبَطَ أَوْلِيَائِيْ عَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَفِيْفُ الْحَاذِ**[3] **ذُوْ حَظٍ مِنْ صَلاَةٍ أَحْسَنَ عِبَادَةَ رَبِّهِ وَأَطَاعَهُ فِيْ السِّرِّ وَكَانَ غَامِضًا فِي النَّاسِ لاَ يُشَارُ إِلَيْهِ بِالأَصَابِعِ ثُمَّ صَبَرَ عَلى ذَلِكَ**)) قال :ثم نقر رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده فقال: ((**عُجِّلَتْ مَنِيَّتُهُ وَقَلَّ تُرَاثُهُ وَقَلَّتْ بَوَاكِيْهِ**[4]))[5]وقال عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما: أحب عباد الله إلى الله الغرباء، قيل: ومن الغرباء؟ قال: الفارون بدينهم يجتمعون يوم القيامة إلى المسيح عليه السلام.

وقال الفضيل بن عياض : بلغني أن الله تعالى يقول في بعض ما يمن به على عبده: أَلَم أنعم عليك؟ أَلَم أسترك؟ أَلَم أحمل ذكرك؟. وكان الخليل بن أحمد يقول: اللّهم اجعلني عندك من أرفع خلقك واجعلني عند نفسي من أوضع خلقك واجعلني عند الناس من أوسط خلقك. وقال الثوري: وجدت قلبي يصلح بمكة والمدينة مع قوم غرباء أصحاب قوت وعناء، وقال إبراهيم بن أدهم: ما قرت عيني يوماً في الدنيا قط إلا مرة بت ليلة في بعض مساجد قرى الشام وكان بي البطن فجرني المؤذن برجلي حتى أخرجني من المسجد. وقال الفضيل: إن قدرت على أن لا تعرف فافعل، وما عليك أن لا تعرف؟ وما عليك أن لا يثنى عليك؟ وما عليك أن تكون مذموماً عند الناس إذا كنت محموداً عند الله تعالى؟.

---

(١) يشار به إلى نعوت من المدح. [علمية]

(٢) أي مجردين قلوبكم عن غير الله تعالى فلا يخطر فيها ما يشغل عنه تعالى.(اتحاف)

(٣) **أغبط أوليائي**: أي أحسن هم حالا وأفضلهم مآلاً، **خَفِيْفُ الْحَاذِ**: أي خفيف الحال الذي يكون قليل المال وخفيف الظهر من العيال، **غَامِضًا فِي النَّاسِ**: أي خاملاً خافياً غير مشهور في الناس. (مرقاة المفاتيح، كتاب الرقاق)

(٤) **عجلت منيته**: أي سلت روحه بالتعجل لقلة تعلقه بالدنيا وغلبة شغفه بالآخرة **وقل تراثه وقلت بواكيه**: أي لقلة عياله وهوانه على الناس وعدم احتفالهم به. (فيض القدير)

(٥) ...سنن الترمذي، كتاب الزهد، باب ماجاء في الكفاف والصبر عليه، الحديث: ٢٣٥٤، ٤/١٥٥.

www.dawateislami.net

فهذه الآثار والأخبار تعرفك مذمة الشهرة وفضيلة الخمول وإنما المطلوب بالشهرة وانتشار الصِّيت هو الجاه والمنزلة في القلوب وحب الجاه هو منشأ كلِّ فَساد.

فإن قلت: فأيّ شهرة تزيد على شهرة الأنبياء والخلفاء الراشدين وأئمة العلماء فكيف فاتهم فضيلة الخمول؟ فاعلم! أن المذموم طلب الشهرة فأما وجودها من جهة الله سبحانه من غير تكلّف من العبد فليس بمذموم، نعم فيه فتنة على الضعفاء دون الأقوياء، وهم كالغريق الضعيف إذا كان معه جماعة من الغرقى فالأولى به أن لا يعرفه أحد منهم فإنهم يتعلقون به فيضعف عنهم فيهلك معهم، وأما القوي فالأولى أن يعرفه الغرقى ليتعلقوا به فينجيهم ويثاب على ذلك.

بيان ذم حب الجاه:

وقال الله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ [القصص: ٨٣] جمع بين إرادة الفساد والعُلُوّ وبين أن الدار الآخرة للخالي عن الإرادتين جميعاً فقال عز وجل: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيٰوةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ أُولٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥،١٦] وهذا أيضاً متناول بعمومه لحب الجاه فإنه أعظم لذة من لذات الحياة الدنيا وأكثر زينة من زينتها وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((**حُبُّ الْمَالِ وَالْجَاهِ يُنْبِتَانِ النِّفَاقَ فِي الْقَلْبِ كَمَا يُنْبِتُ الْمَاءُ الْبَقْلَ**)) [١] وقال صلى الله عليه وسلم: ((**مَا ذِئْبَانِ ضَارِيَانِ أُرْسِلاَ فِيْ زَرِيْبَةٍ**[٢] **غَنَمٍ بِأَسْرَعَ إِفْسَادًا مِنْ حُبِّ الشَّرَفِ وَالْمَالِ فِي دِيْنِ الرَّجُلِ الْمُسْلِمِ**)) [٣] وقال صلى الله عليه وسلم لعلي كرم الله وجهه: ((**إِنَّمَا هَلاَكُ النَّاسِ بِاتِّبَاعِ الهَوَى وَحُبِّ الثَّنَاءِ**)) [٤] نسأل الله العفو والعافية بمنّه وكرمه.

بيان معنى الجاه وحقيقته:

اعلم! أن الجاه والمال هما ركنا الدنيا، ومعنى المال: ملك الأعيان المنتفع بها، ومعنى الجاه: ملك القلوب المطلوب تعظيمها وطاعتها، وكما أن الغني هو الذي يملك الدراهم والدنانير أي يقدر عليهما ليتوصل بهما إلى الأغراض والمقاصد وقضاء الشهوات وسائر حظوظ النفس فكذلك ذو الجاه هو الذي يملك قلوب الناس، أي يقدر على أن يتصرف فيها ليستعمل بواسطتها أربابها في أغراضه

---

(١) ...الزواجر عن اقتراف الكبائر، الكبيرة الثالثة والخمسون بعد المائتين، ٢/ ٤٩

(٢) **الزريبة:** حظيرة من خشب تعمل للغنم. (غريب الحديث لابن جوزي)

(٣) ...حلية الاولياء، سفيان الثوري، الحديث: ٩٧٧٢، ٧/ ٩٤

(٤) ...تذكرة الموضوعات، باب ذم الدنيا والغنى...الخ، ص: ١٧٧

www.dawateislami.net

ومآربه، وكما أنه يكتسب الأموال بأنواع من الحرف والصناعات فكذلك يكتسب قلوب الخلق بأنواع من المعاملات، ولا تصير القلوب مسخرة إلا بالمعارف والاعتقادات، فكل من اعتقد القلب فيه وصفاً من أوصاف الكمال انقاد له وتسخر له بحسب قوة اعتقاد القلب، وبحسب درجة ذلك الكمال عنده، وليس يشترط أن يكون الوصف كمالا في نفسه بل يكفي أن يكون كمالا عنده وفي اعتقاده، وقد يعتقد ما ليس كمالاً كمالاً، ويذعن قلبه للموصوف به انقياداً ضرورياً بحسب اعتقاده، فإنّ انقياد القلب حال للقلب، وأحوال القلوب تابعة لاعتقادات القلوب وعلومها وتخيلاتها، وكما أن محب المال يطلب ملك الأرقاء والعبيد فطالب الجاه يطلب أن يسترق الأحرار ويستعبدهم ويملك رقابهم بملك قلوبهم، بل الرق الذي يطلبه صاحب الجاه أعظم؛ لأن المالك يملك العبد قهراً والعبد متأب بطبعه ولو خلي ورأيه أنسل عن الطاعة، وصاحب الجاه يطلب الطاعة طوعاً ويبغي أن تكون له الأحرار عبيداً بالطبع والطوع، مع الفرح بالعبودية والطاعة له، فما يطلبه فوق ما يطلبه مالك الرق بكثير، فإذاً معنى الجاه: قيام المنزلة في قلوب الناس أي اعتقاد القلوب لنعت من نعوت الكمال فيه، فبقدر ما يعتقدون من كماله تذعن له قلوبهم، وبقدر إذعان القلوب تكون قدرته على القلوب وبقدر قدرته على القلوب يكون فرحه وحبه للجاه.

فهذا هو معنى الجاه وحقيقته وله ثمرات كالمدح والإطراء، فإن المعتقد للكمال لا يسكت عن ذكر ما يعتقده، فيثني عليه، وكالخدمة والإعانة فإنه لا يبخل ببذل نفسه في طاعته بقدر اعتقاده فيكون سخرة له مثل العبد في أغراضه، وكالإيثار وترك المنازعة والتعظيم والتوقير بالمفاتحة بالسلام وتسليم الصدر في المحافل والتقديم في جميع المقاصد، فهذه آثار تصدر عن قيام الجاه في القلب. ومعنى قيام الجاه في القلب: اشتمال القلوب على اعتقاد صفات الكمال في الشخص إما بعلم أو عبادة أو حسن خلق أو نسب أو ولاية أو جمال في صورة أو قوة في بدن أو شيء مما يعتقده الناس كمالاً، فإن هذه الأوصاف كلها تعظم محله في القلوب فتكون سبباً لقيام الجاه. والله تعالى أعلم

بيان سبب كون الجاه محبوباً بالطبع حتى لا يخلو عنه قلب إلا بشديد المجاهدة:

اعلم! أن السبب الذي يقتضي كون الذهب والفضة وسائر أنواع الأموال محبوبا هو بعينه يقتضي كون الجاه محبوباً بل يقتضي أن يكون أحب من المال كما يقتضي أن يكون الذهب أحب من الفضة مهما تساويا في المقدار، وهو أنك تعلم أن الدراهم والدنانير لا غرض في أعيانهما؛ إذ لا تصلح لمطعم ولا مشرب ولا منكح ولا ملبس، وإنما هي والحصباء[1] بمثابة واحدة، ولكنهما محبوبان لأنهما وسيلة إلى جميع المَحَابِّ وذريعة إلى قضاء الشهوات، فكذلك الجاه لأن معنى الجاه ملك القلوب،

---

(١) **الحصبآء**: بالمد صغار الحصى (التعاريف)، **والمثابة**: المنزلة. (اتحاف)

www.dawateislami.net

وكما أن ملك الذهب والفضة يفيد قدرة يتوصل الإنسان بها إلى سائر أغراضه فكذلك ملك القلوب من الأحرار والقدرة على استسخارها يفيد قدرة على التوصل إلى جميع الأغراض، فالاشتراك في السبب اقتضى الاشتراك في المحبة، وترجيح الجاه على المال اقتضى أن يكون الجاه أحب من المال، ولملك الجاه ترجيح على ملك المال من ثلاثة أوجه:

الأول: أن التوصل بالجاه إلى المال أيسر من التوصل بالمال إلى الجاه، فالعالم أو الزاهد الذي تقرر له جاه في القلوب لو قصد اكتساب المال تيسر له، فإن أموال أرباب القلوب مسخرة للقلوب ومبذولة لمن اعتقد فيه الكمال، وأما الرجل الخسيس الذي لا يتصف بصفة كمال إذا وجد كنزاً ولم يكن له جاه يحفظ ماله وأراد أن يتوصل بالمال إلى الجاه لم يتيسر له، فإذاً الجاه آلة ووسيلة إلى المال فمَن مَلَك الجاه فقد ملك المال ومن ملك المال لم يَمْلِك الجاه بكل حال، فلذلك صار الجاه أحب.

الثاني: هو أن المال معرض للبلوى والتلف بأن يسرق ويغصب ويطمع فيه الملوك والظَلَمَة، ويحتاج فيه إلى الحفظة والحراس والخزائن، ويتطرق إليه أخطار كثيرة، وأما القلوب إذا ملكت فلا تتعرض لهذه الآفات فهي على التحقيق خزائن عتيدة[1] لا يقدر عليها السراق، ولا تتناولها أيدي النِّهاب[2] والغصاب، وأثبت الأموال العقار ولا يؤمن فيه الغصب والظلم ولا يستغني عن المراقبة والحفظ. وأما خزائن القلوب فهي محفوظة محروسة بأنفسها، وذو الجاه في أمن وأمان من الغصب والسرقة فيها، نعم إنما تغصب القلوب بالتصريف وتقبيح الحال وتغيير الاعتقاد فيما صدق به من أوصاف الكمال، وذلك مما يهون دفعه، ولا يتيسر على محاولة فعله.

الثالث: أن ملك القلوب يسري وينمي ويتزايد من غير حاجة إلى تعب ومقاساة؛ فإن القلوب إذا أذعنت لشخص واعتقدت كماله بعلم أو عمل أو غيره أفصحت الألسنة لا محالة بما فيها، فيصف ما يعتقده لغيره ويقتنص[3] ذلك القلب أيضاً له؛ ولهذا المعنى يحب الطبع الصيتَ وانتشارَ الذكر لأن ذلك إذا استطار في الأقطار اقتنص القلوب ودعاها إلى الإذعان والتعظيم فلا يزال يسري من واحد إلى واحد ويتزايد وليس له مرد معين. وأما المال فمن ملك منه شيئاً فهو مالكه ولا يقدر على استنمائه إلا بتعب ومقاساة، والجاه أبداً في النماء بنفسه ولا مرد لموقعه والمال واقف. ولهذا إذا عظم الجاه وانتشر

---

(١) **عتيدة**: أى محفوظة. (اتحاف)

(٢) **النهب**: الغنيمة، والجمع النهاب. والانتهاب: أن يأخذها من شاء. (الصحاح في اللغة)

(٣) **الاقتناص** أخذ الصيد ويشبه به أخذ كل شيء بسرعة. (التعاريف)

www.dawateislami.net

الصيت وانطلقت الألسنة بالثناء استحقرت الأموال في مقابلته فهذه مجامع ترجيحات الجاه على المال، وإذا فصلت كثرت وجوه الترجيح.

فإن قلت: فالإشكال قائم في المال والجاه جميعاً فلا ينبغي أن يحب الإنسان المال والجاه، نعم القدر الذي يتوصل به إلى جلب الملاذ ودفع المضار معلوم،كالمحتاج إلى الملبس والمسكن والمطعم أو كالمبتلى بمرض أو بعقوبة إذا كان لا يتوصل إلى دفع العقوبة عن نفسه إلا بمال أو جاه، فحبه للمال والجاه معلوم؛ إذ كل ما لا يتوصل إلى المحبوب إلا به فهو محبوب. وفي الطباع أمر عجيب وراء هذا وهو حب جمع الأموال وكنز الكنوز وادخار الذخائر واستكثار الخزائن وراء جميع الحاجات، حتى لو كان للعبد واديان من ذهب لابتغى لهما ثالثا، وكذلك يحب الإنسان اتساع الجاه وانتشار الصيت إلى أقاصي البلاد التي يعلم قطعاً أنه لا يطؤها ولا يشاهد أصحابها ليعظموه أو ليبروه بمال أو ليعينوه على غرض من أغراضه، ومع اليأس من ذلك فإنه يلتذ به غاية الالتذاذ وحب ذلك ثابت في الطبع ويكاد يظن أن ذلك جهل فإنه حب لما لا فائدة فيه لا في الدنيا ولا في الآخرة.

فنقول: نعم هذا الحب لا تنفك عنه القلوب وله سببان: أحدهما جلي تدركه الكافة والآخر خفي وهو أعظم السببين ولكنه أدقهما وأخفاهما وأبعدهما عن أفهام الأذكياء فضلا عن الأغبياء وذلك لاستمداده من عرق خفي في النفس وطبيعة مستكنة في الطبع لا يكاد يقف عليها إلا الغوّاصون.

فأما السبب الأول: فهو دفع ألم الخوف، لأن الشفيق بسوء الظن مولع[1]، والإنسان وإن كان مكفياً في الحال فإنّه طويل الأمل، ويخطر بباله أنّ المال الذي فيه كفايته ربما يتلف فيحتاج إلى غيره، فإذا خطر ذلك بباله هاج الخوف من قلبه ولا يدفع ألم الخوف إلا الأمن الحاصل بوجود مال آخر يفزع إليه إن أصابت هذا المال جائحة[2]، فهو أبداً لشفقته على نفسه وحبه للحياة يقدر طول الحياة، ويقدر هجوم الحاجات، ويقدر إمكان تطرق الآفات إلى الأموال، ويستشعر الخوف من ذلك فيطلب ما يدفع خوفه وهو كثرة المال، حتى إن أصيب بطائفة من ماله استغنى بالآخر.

وهذا خوف لا يوقف له على مقدار مخصوص من المال، فلذلك لم يكن لمثله موقف إلى أن يملك جميع ما في الدنيا ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((**مَنْهُوْمَانِ**[3] **لاَ يَشْبَعَانِ مَنْهُوْمُ الْعِلْمِ وَمَنْهُوْمُ الْمَالِ**)) [4] ومثل هذه العلة تطرد في حبه قيام المنزلة والجاه في قلوب الأباعد عن وطنه

---

(١) **إن الشفيق بسوء ظن مولع**: يضرب في خوف الرجل على صاحبه الحوادث لفرط الشفقة. (تاج العروس)

(٢) أي آفة. (اتحاف)

(٣) **النَهْمَة**: شدة الحرص على الشيء ومنه النهم من الجوع كما في النهاية. (فيض القدير)

(٤) ...العلل المتناهية، باب بيان ان طالب العلم لا يشبع منه، الحديث: ١١١-١١٢، ١/٩٥-٩٤

www.dawateislami.net

وبلده، فإنه لا يخلو عن تقدير سبب يزعجه[1] عن الوطن أو يزعج أولئك عن أوطانهم إلى وطنه، ويحتاج إلى الاستعانة بهم، ومهما كان ذلك ممكناً ولم يكن احتياجه إليهم مستحيلاً إحالة ظاهرة كان للنفس فرح ولذة بقيام الجاه في قلوبهم لما فيه من الأمن من هذا الخوف.

وأما السبب الثاني: وهو الأقوى، أن الروح أمر رباني، به وصفه الله تعالى إذ قال سبحانه: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥] و معنى كونه ربانياً أنه من أسرار علوم المكاشفة ولا رخصة في إظهاره، إذ لم يظهره رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكنك قبل معرفة ذلك تعلم أن للقلب ميلاً إلى صفات بهيمية كالأكل والوقاع، وإلى صفات سبعية كالقتل والضرب والإيذاء، وإلى صفات شيطانية كالمكر والخديعة والإغواء، وإلى صفات ربوبية كالكبر والعز والتجبر وطلب الاستعلاء، وذلك لأنه مركب من أصول مختلفة يطول شرحها وتفصيلها، فهو لما فيه من الأمر الرباني يحب الربوبية بالطبع، و**معنى الربوبية**: التوحد بالكمال والتفرد بالوجود على سبيل الاستقلال. فصار الكمال من صفات الإلهية فصار محبوباً بالطبع للإنسان، والكمال بالتفرد بالوجود فإن المشاركة في الوجود نقص لا محالة، فكمال الشمس في أنها موجودة وحدها فلو كان معها شمس أخرى لكان ذلك نقصاً في حقها إذ لم تكن منفردة بكمال معنى الشمسية، والمنفرد بالوجود هو الله تعالى إذ ليس معه موجود سواه، فإن ما سواه أثر من آثار قدرته لا قوام له بذاته بل هو قائم به، فلم يكن موجوداً معه لأن المعية توجب المساواة في الرتبة، والمساواة في الرتبة نقصان في الكمال بل الكامل من لا نظير له في رتبته، وكما أن إشراق نور الشمس في أقطار الآفاق ليس نقصاناً في الشمس بل هو من جملة كمالها وإنما نقصان الشمس بوجود شمس أخرى تساويها في الرتبة مع الاستغناء عنها، فكذلك وجود كل ما في العالم يرجع إلى إشراق أنوار القدرة فيكون تابعاً ولا يكون متبعاً، فإذاً معنى الربوبية التفرد بالوجود وهو الكمال، وكل إنسان فإنه بطبعه محب لأن يكون هو المنفرد بالكمال، ولذلك قال بعض مشايخ الصوفية: ما من إنسان إلا وفي باطنه ما صرح به فرعون من قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤] ولكنه ليس يجد له مجالاً وهو كما قال، فإن العبودية قهر على النفس، والربوبية محبوبة بالطبع وذلك للنسبة الربانية التي أومأ إليها قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥] ولكن لما عجزت النفس عن درك منتهى الكمال لم تسقط شهوتها للكمال، فهي محبة للكمال ومشتهية له وملتذة به لذاته لا لمعنى آخر وراء الكمال، وكل موجود فهو محب لذاته ولكمال ذاته، ومبغض للهلاك الذي هو عدم ذاته أو عدم صفات الكمال من ذاته، وإنما الكمال بعد أن يسلم التفرد بالوجود في الاستيلاء على كل

---

(١) يزعجه: أي يُقْلِقُه. (اتحاف)

www.dawateislami.net

الموجودات فإن أكمل الكمال أن يكون وجود غيرك منك، فإن لم يكن منك فإن تكون مستولياً عليه فصار الاستيلاء على الكل محبوباً بالطبع لأنه نوع كمال وكل موجود يعرف ذاته فإنه يحب ذاته ويحب كمال ذاته ويلتذ به، إلا أن الاستيلاء على الشيء بالقدرة على التأثير فيه، وعلى تغييره بحسب الإرادة وكونه مسخراً لك تردده كيف تشاء، فأحب الإنسان أن يكون له استيلاء على كل الأشياء الموجودة معه، إلا أن الموجودات منقسمة إلى ما لا يقبل التغيير في نفسه كذات الله تعالى وصفاته وإلى ما يقبل التغيير، ولكن لا يستولي عليه قدرة الخلق كالأفلاك والكواكب وملكوت السموات ونفوس الملائكة والجن والشياطين وكالجبال والبحار وإلى ما يقبل التغيير بقدرة العبد كالأرض وأجزائها وما عليها من المعادن والنبات والحيوان ومن جملتها قلوب الناس، فإنها قابلة للتأثير والتغيير مثل أجسادهم وأجساد الحيوانات.

فإذا انقسمت الموجودات إلى ما يقدر الإنسان على التصرف فيه كالأرضيات، وإلى ما لا يقدر عليه كذات الله تعالى والملائكة والسموات، أحب الإنسان أن يستولي على السموات بالعلم والإحاطة والاطلاع على أسرارها، فإن ذلك نوع استيلاء؛ إذ المعلوم المحاط به كالداخل تحت العلم والعالم كالمستولي عليه، فلذلك أحب أن يعرف الله تعالى، والملائكة، والأفلاك، والكواكب، وجميع عجائب السموات، وجميع عجائب البحار والجبال وغيرها؛ لأن ذلك نوع استيلاء عليها، والاستيلاء نوع كمال، وهذا يضاهي اشتياق من عجز عن صنعة عجيبة إلى معرفة طريق الصنعة فيها كمن يعجز عن وضع الشطرنج[1]، فإنه قد يشتهي أن يعرف اللعب به وأنه كيف وضع، وكمن يرى صنعة عجيبة في الهندسة أو الشعبذة أو جر الثقيل[2] أو غيره وهو مستشعر في نفسه بعض العجز والقصور عنه ولكنه يشتاق إلى معرفة كيفيته فهو متألم ببعض العجز متلذذ بكمال العلم إن علمه.

وأما القسم الثاني: وهو الأرضيات التي يقدر الإنسان عليها فإنه يحب بالطبع أن يستولي عليها بالقدرة على التصرف فيها كيف يريد وهي قسمان: أجساد وأرواح:

أما الأجساد: فهي الدراهم والدنانير والأمتعة، فيجب أن يكون قادراً عليها يفعل فيها ما شاء من الرفع والوضع والتسليم والمنع، فإن ذلك قدرة، والقدرة كمال، والكمال من صفات الربوبية، والربوبية محبوبة بالطبع، فلذلك أحب الأموال وإن كان لا يحتاج إليها في ملبسه ومطعمه وفي شهوات

---

(١) **الشطرنج**: وهي اللعبة المعروفة فارسي معرب وأصله صدرنك أي مائة حيلة، وواضعها صصمة بن دامر حكيم من حكماء الهند لملك من ملوكهم. (اتحاف)

(٢) **جر الثقيل**: وهو علم معروف من الهندسة. (اتحاف)

www.dawateislami.net

نفسه، وكذلك طلب استرقاق العبيد واستعباد الأشخاص الأحرار ولو بالقهر والغلبة حتى يتصرف في أجسادهم وأشخاصهم بالاستسخار، وإن لم يملك قلوبهم، فإنها ربما لم تعتقد كماله حتى يصير محبوباً لها ويقوم القهر منزلته فيها، فإن الحشمة القهرية أيضاً لذيذة لما فيها من القدرة.

القسم الثاني: نفوس الآدميين وقلوبهم وهي أنفس ما على وجه الأرض، فهو يحب أن يكون له استيلاء وقدرة عليها لتكون مسخرة له متصرفة تحت إشارته وإرادته لما فيه من كمال الاستيلاء والتشبه بصفات الربوبية. والقلوب إنما تتسخر بالحب ولا تحب إلا باعتقاد الكمال، فإن كل كمال محبوب؛ لأن الكمال من الصفات الإلهية والصفات الإلهية كلها محبوبة بالطبع للمعنى الرباني من جملة معاني الإنسان، وهو الذي لا يليه الموت فيعدمه ولا يتسلط عليه التراب فيأكله، فإنه محل الإيمان والمعرفة وهو الواصل إلى لقاء الله تعالى والساعي إليه.

فإذاً معنى الجاه تسخر القلوب، ومن تسخرت له القلوب كانت له قدرة واستيلاء عليها، والقدرة والاستيلاء كمال وهو من أوصاف الربوبية، فإذن محبوب القلب بطبعه الكمال بالعلم والقدرة والمال، والجاه من أسباب القدرة ولا نهاية للمعلومات ولا نهاية للمقدورات، وما دام يبقى معلوم أو مقدور فالشوق لا يسكن، والنقصان لا يزول. ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: ((**مَنْهُوْمَانِ لاَ يَشْبَعَانِ**))[1] فإذاً مطلوب القلوب الكمال، والكمال بالعلم والقدرة وتفاوت الدرجات فيه غير محصور، فسرور كل إنسان ولذته بقدر ما يدركه من الكمال.

فهذا هو السبب في كون العلم والمال والجاه محبوباً، وهو أمر وراء كونه محبوباً لأجل التوصل إلى قضاء الشهوات، فإن هذه العلة قد تبقى مع سقوط الشهوات بل يحب الإنسان من العلوم ما لا يصلح للتوصل به إلى الأغراض، بل ربما يفوت عليه جملة من الأغراض والشهوات، ولكن الطبع يتقاضى طلب العلم في جميع العجائب والمشكلات لأن في العلم استيلاء على المعلوم وهو نوع من الكمال الذي هو من صفات الربوبية فكان محبوباً بالطبع، إلا أن في حب كمال العلم والقدرة أغاليط لا بد من بيانها إن شاء الله تعالى.

بيان الكمال الحقيقي والكمال الوهمي الذي لا حقيقة فيه:

قد عرفت أنه لا كمال بعد فوات التفرد بالوجود إلا في العلم والقدرة، ولكن الكمال الحقيقي فيه متلبس بالكمال الوهمي، وبيانه أن كمال العلم لله تعالى وذلك من ثلاثة أوجه:

---

(١) ... سنن الدارمي، باب في فضل العلم، الحديث: ٣٣١، ١/ ١٠٨

www.dawateislami.net

أحدها: من حيث كثرة المعلومات وسِعَتِها، فإنه محيط بجميع المعلومات فلذلك كلّما كانت علوم العبد أكثر كان أقرب إلى الله تعالى.

الثاني: من حيث تعلق العلم بالمعلوم على ما هو به، وكون المعلوم مكشوفاً به كشفاً تاماً، فإن المعلومات مكشوفة لله تعالى بأتم أنواع الكشف على ما هي عليه، فلذلك مهما كان علم العبد أوضح وأيقن وأصدق وأوفق للمعلوم في تفاصيل صفات العلوم كان أقرب إلى الله تعالى.

الثالث: من حيث بقاء العلم أبد الأباد بحيث لا يتغير ولا يزول فإن علم الله تعالى باق لا يتصور أن يتغير، فكذلك مهما كان علم العبد بمعلومات لا يقبل التغير والانقلاب كان أقرب إلى الله تعالى.

والمعلومات قسمان: متغيرات وأزليات،

أما المتغيرات: فمثالها العلم بكون زيد في الدار، فإنه علم له معلوم، ولكنه يتصور أن يخرج زيد من الدار ويبقى اعتقاد كونه في الدار كما كان فينقلب جهلاً فيكون نقصاناً لا كمالاً، فكلما اعتقدت اعتقاداً موافقاً وتصور أن ينقلب المعتقد فيه عما اعتقدته كنت بصدد أن ينقلب كمالك نقصاً ويعود علمك جهلاً، ويلتحق بهذا المثال جميع متغيرات العالم، كعلمك مثلاً بارتفاع جبل ومساحة أرض وبعدد البلاد وتباعد ما بينها من الأميال والفراسخ وسائر ما يذكر في المسالك والممالك، وكذلك العلم باللغات التي هي اصطلاحات تتغير بتغير الأعصار والأمم والعادات، فهذه علوم معلوماتها مثل الزئبق[1] تتغير من حال إلى حال، فليس فيه كمال إلا في الحال ولا يبقى كمالاً في القلب.

القسم الثاني: هو المعلومات الأزلية، وهو جواز الجائزات، ووجوب الواجبات، واستحالة المستحيلات، فإن هذه معلومات أزلية أبدية؛ إذ لا يستحيل الواجب قط جائزاً، ولا الجائز محالاً، ولا المحال واجباً، فكل هذه الأقسام داخلة في معرفة الله وما يجب له، وما يستحيل في صفاته ويجوز في أفعاله. فالعلم بالله تعالى، وبصفاته، وأفعاله، وحكمته في ملكوت السموات والأرض، وترتيب الدنيا والآخرة، وما يتعلق به، هو الكمال الحقيقي الذي يقرب من يتصف به من الله تعالى، ويبقى كمالاً للنفس بعد الموت، وتكون هذه المعرفة نور للعارفين بعد الموت يسعى بين أيديهم وبأيمانهم، يقولون: ربنا أتمم لنا نورنا أي تكون هذه المعرفة رأس مال يوصل إلى كشف ما لم ينكشف في الدنيا، كما أن من معه سراج خفي، فإنه يجوز أن يصير ذلك سبباً لزيادة النور بسراج آخر يقتبس منه، فيكمل النور بذلك النور الخفي على سبيل الاستتمام. ومن ليس معه أصل السراج فلا مطمع له في ذلك، فمن ليس

---

(١) الزِئْبَقُ كالزاووقِ ومنه : التَّزْويق : للتَّزْيينِ والتَّحْسينِ لأنه يُجْعَلُ مَعَ الذَّهَبِ فَيُطْلَى به فَيُدْخَلُ في النارِ فَيَطيرُ الزاوُوقُ ويَبْقَى الذَّهَبُ. (القاموس المحيط)

www.dawateislami.net

معه أصل معرفة الله تعالى لم يكن له مطمع في هذا النور، فيبقى كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها، بل كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض، فإذن لا سعادة إلا في معرفة الله تعالى، وأما ما عدا ذلك من المعارف فمنها: ما لا فائدة له أصلاً كمعرفة الشعر وأنساب العرب وغيرهما، ومنها: ما له منفعة في الإعانة على معرفة الله تعالى كمعرفة لغة العرب، والتفسير، والفقه، والأخبار، فإن معرفة لغة العرب تعين على معرفة تفسير القرآن، ومعرفة التفسير تعين على معرفة ما في القرآن من كيفية العبادات والأعمال التي تفيد تزكية النفس، ومعرفة طريق تزكية النفس تفيد استعداد النفس لقبول الهداية إلى معرفة الله سبحانه وتعالى كما قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكّٰىهَا﴾ [الشمس: ٩] وقال عز وجل: ﴿وَالَّذِيْنَ جٰهَدُوْا فِيْنَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت:٦٩] فتكون جملة هذه المعارف كالوسائل إلى تحقيق معرفة الله تعالى، وإنما الكمال في معرفة الله، ومعرفة صفاته وأفعاله، وينطوي فيه جميع المعارف المحيطة بالموجودات إذ الموجودات كلها من أفعاله، فمن عرفها من حيث هي فعل الله تعالى ومن حيث ارتباطها بالقدرة والإرادة والحكمة فهي من تكملة معرفة الله تعالى، وهذا حكم كمال العلم ذكرناه وإن لم يكن لائقاً بأحكام الجاه والرياء، ولكن أوردناه لاستيفاء أقسام الكمال.

وأما القدرة: فليس فيها كمال حقيقي للعبد، بل للعبد علم حقيقي وليس له قدرة حقيقية وإنما القدرة الحقيقية لله، وما يحدث من الأشياء عقيب إرادة العبد وقدرته وحركته فهي حادثة بإحداث الله كما قررناه في كتاب الصبر والشكر وكتاب التوكل وفي مواضع شتى من ربع المنجيات. فكمال العلم يبقى معه بعد الموت ويوصله إلى الله تعالى فأما كمال القدرة فلا، نعم له كمال من جهة القدرة بالإضافة إلى الحال وهي وسيلة له إلى كمال العلم كسلامة أطرافه، وقوة يده للبطش، ورجله للمشي، وحواسه للإدراك فإن هذه القوى آلة للوصول بها إلى حقيقة كمال العلم، وقد يحتاج في استيفاء هذه القوى إلى القدرة بالمال والجاه للتوصل به إلى المطعم والمشرب والملبس والمسكن وذلك إلى قدر معلوم فإن لم يستعمله للوصول به إلى معرفة جلال الله فلا خير فيه البتة إلا من حيث اللذة الحالية التي تنقضي على القرب ومن ظن ذلك كمالاً فقد جهل. فالخلق أكثرهم هالكون في غمرة هذا الجهل، فإنهم يظنون أن القدرة على الأجساد بقهر الحشمة، وعلى أعيان الأموال بسعة الغنى، وعلى تعظيم القلوب بسعة الجاه، كمال، فلما اعتقدوا ذلك أحبوه ولما أحبوه طلبوه ولما طلبوه شغلوا به وتهالكوا عليه فنسوا الكمال الحقيقي الذي يوجب القرب من الله تعالى، ومن ملائكته، وهو العلم والحرية.

أما العلم: فما ذكرناه من معرفة الله تعالى.

www.dawateislami.net

وأما الحرية: فالخلاص من أسر الشهوات وغموم الدنيا، والاستيلاء عليها بالقهر تشبهاً بالملائكة الذين لا تستفزهم الشهوة، ولا يستهويهم الغضب، فإن دفع آثار الشهوة والغضب عن النفس من الكمال الذي هو من صفات الملائكة، ومن صفات الكمال لله تعالى استحالة التغير والتأثر عليه، فمن كان عن التغير والتأثر بالعوارض أبعد كان إلى الله تعالى أقرب، وبالملائكة أشبه، ومنزلته عند الله أعظم، وهذا كمال ثالث سوى كمال العلم والقدرة، وإنما لم نورده في أقسام الكلام؛ لأن حقيقته ترجع إلى عدم ونقصان، فإن التغير نقصان إذ هو عبارة عن عدم صفة كائنة وهلاكها، والهلاك نقص في اللذات وفي صفات الكمال.

فإذن الكمالات ثلاثة إن عددنا (عدم التغير بالشهوات وعدم الانقياد لها) كمالاً ككمال العلم، وكمال الحرية، وأعني به عدم العبودية للشهوات وإرادة الأسباب الدنيوية. وكمال القدرة للعبد طريق إلى اكتساب كمال العلم، وكمال الحرية ولا طريق له إلى اكتساب كمال القدرة الباقية بعد موته؛ إذ قدرته على أعيان الأموال وعلى استسخار القلوب والأبدان تنقطع بالموت، ومعرفته وحريته لا ينعدمان بالموت بل يبقيان كمالاً فيه ووسيلة إلى القرب من الله تعالى. فانظر كيف انقلب الجاهلون وانكبوا على وجوههم انكباب العميان فأقبلوا على طلب كمال القدرة بالجاه والمال وهو الكمال الذي لا يسلم وإن سلم فلا بقاء له، وأعرضوا عن كمال الحرية والعلم الذي إذا حصل كان أبدياً لا انقطاع له، وهؤلاء هم الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا جرم لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون وهم الذين لم يفهموا قوله تعالى: ﴿ اَلْمَالُ وَ الْبَنُوْنَ زِيْنَةُ الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَالْبٰقِيٰتُ الصّٰلِحٰتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَّ خَيْرٌ اَمَلًا ﴾ [الكهف: ٤٦] فالعلم والحرية هي الباقيات الصالحات التي تبقى كمالاً في النفس، والمال والجاه هو الذي ينقضي على القرب وهو كما مثله الله تعالى حيث قال: ﴿ اِنَّمَا مَثَلُ الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا كَمَآءٍ اَنْزَلْنٰهُ مِنَ السَّمَآءِ فَاخْتَلَطَ بِهٖ نَبَاتُ الْاَرْضِ ﴾ الآية [يونس: ٢٤] وقال تعالى: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَّثَلَ الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا كَمَآءٍ اَنْزَلْنٰهُ مِنَ السَّمَآءِ ﴾ [الكهف: ٤٥] إلى قوله: ﴿فَاَصْبَحَ هَشِيْمًا تَذْرُوْهُ الرِّيٰحُ ﴾ [الكهف: ٤٥] وكل ما تذروه رياح الموت فهو زهرة الحياة الدنيا، وكل ما لا يقطعه الموت فهو الباقيات الصالحات فقد عرفت بهذا أن كمال القدرة بالمال والجاه كمال ظني لا أصل له وأن من قصر الوقت على طلبه وظنه مقصوداً فهو جاهل وإليه أشار أبو الطيب بقوله:

ومن ينفق الساعات في جمع ماله ... مخافة فقر فالذي فَعَلَ الفقر

إلا قدر البلغة منهما إلى الكمال الحقيقي اللّهم اجعلنا ممن وفقته للخير وهديته بلطفك.

www.dawateislami.net

بيان ما يحمد من حب الجاه وما يذم:

مهما عرفت أن معنى الجاه ملك القلوب والقدرة عليها، فحكمه حكم ملك الأموال فإنه عرض من أعراض الحياة الدنيا، وينقطع بالموت كالمال، والدنيا مَزْرَعَة الآخرة، فكل ما خلق في الدنيا فيمكن أن يتزود منه للآخرة، وكما أنه لا بد من أدنى مال لضرورة المطعم، والمشرب، والملبس، فلا بد من أدنى جاه لضرورة المعيشة مع الخلق، والإنسان كما لا يستغني عن طعام يتناوله، فيجوز أن يحب الطعام أو المال الذي يبتاع به الطعام، فكذلك لا يخلو عن الحاجة إلى خادم يخدمه، ورفيق يعينه، وأستاذ يرشده، وسلطان يحرسه ويدفع عنه ظلم الأشرار، فحبه لأن يكون له في قلب خادمه من المحل ما يدعوه إلى الخدمة ليس بمذموم، وحبه لأن يكون له في قلب رفيقه من المحل ما يحسن به مرافقته ومعاونته ليس بمذموم، وحبه لأن يكون له في قلب أستاذه من المحل ما يحسن به إرشاده وتعليمه والعناية به ليس بمذموم، وحبه لأن يكون له من المحل في قلب سلطانه ما يحثه ذلك على دفع الشر عنه ليس بمذموم. فإن الجاه وسيلة إلى الأعراض كالمال فلا فرق بينهما إلا أن التحقيق في هذا يفضي إلى أن لا يكون المال والجاه بأعيانهما محبوبين له، بل ينزل ذلك منزلة حب الإنسان أن يكون له في داره بيت ماء لأنه مضطر إليه لقضاء حاجته، ويود أن لو استغنى عن قضاء الحاجة حتى يستغني عن بيت الماء، فهذا على التحقيق ليس محباً لبيت الماء، فكل ما يراد للتوصل به إلى محبوب فالمحبوب هو المقصود المتوصل إليه. وتدرك التفرقة بمثال آخر وهو أن الرجل قد يحب زوجته من حيث إنه يدفع بها فضلة الشهوة كما يدفع ببيت الماء فضلة الطعام، ولو كفى مؤنة الشهوة لكان يهجر زوجته، كما أنه لو كفيَ قضاء الحاجة لكان لا يدخل بيت الماء ولا يدور به، وقد يحب الإنسان زوجته لذاتها حب العشاق ولو كفي الشهوة لبقي مستصحباً لنكاحها. فهذا هو الحب دون الأول. وكذلك الجاه والمال، وقد يحب كل واحد منهما على هذين الوجهين فحبهما لأجل التوصل بهما إلى مهمات البدن غير مذموم، وحبهما لأعيانهما فيما يجاوز ضرورة البدن وحاجته مذموم، ولكنه لا يوصف صاحبه بالفسق والعصيان ما لم يحمله الحب على مباشرة معصية، وما يتوصل به إلى اكتساب بكذب وخداع، وارتكاب محظور، وما لم يتوصل إلى اكتسابه بعبادة. فإن التوصل إلى الجاه والمال بالعبادة جناية على الدين وهو حرام، وإليه يرجع معنى الرياء المحظور كما سيأتي. فإن قلت: طلبه المنزلة والجاه في قلب أستاذه، وخادمه، ورفيقه، وسلطانه، ومن يرتبط به أمره مباح على الإطلاق كيفما كان، أو يباح إلى حد مخصوص على وجه مخصوص؟ فأقول: يطلب ذلك على ثلاثة أوجه: وجهان مباحان ووجه محظور.

www.dawateislami.net

أما الوجه المحظور: فهو أن يطلب قيام المنزلة في قلوبهم باعتقادهم فيه صفة وهو منفك عنها. مثل العلم، والورع، والنسب، فيظهر لهم أنه عَلَوِيٌّ أو عالم أو ورع وهو لا يكون كذلك فهذا حرام لأنه كذب وتلبيس إما بالقول أو بالمعاملة.

وأما أحد المباحين: فهو أن يطلب المنزلة بصفة هو متصف بها، كقول يوسف صلى الله عليه وسلم فيما أخبر عنه الرب تعالى: ﴿اجْعَلْنِيْ عَلٰى خَزَآئِنِ الْاَرْضِ اِنِّيْ حَفِيْظٌ عَلِيْمٌ﴾ [يوسف:٥٥] فإنه طلب المنزلة في قلبه بكونه حفيظاً عليماً وكان محتاجاً إليه وكان صادقاً فيه.

والثاني: أن يطلب إخفاء عيب من عيوبه، ومعصية من معاصيه حتى لا يعلم، فلا تزول منزلته به فهذا أيضاً مباح؛ لأن حفظ الستر على القبائح جائز، ولا يجوز هتك الستر وإظهار القبيح، وهذا ليس فيه تلبيس بل هو سد لطريق العلم بما لا فائدة في العلم به، كالذي يخفي عن السلطان أنه يشرب الخمر، ولا يلقي إليه أنه ورع، فإن قوله: إني ورع تلبيس، وعدم إقراره بالشرب لا يوجب اعتقاد الورع بل يمنع العلم بالشرب. ومن جملة المحظورات تحسين الصلاة بين يديه ليحسن فيه اعتقاده، فإن ذلك رياء وهو ملبس؛ إذ يخيل إليه أنه من المخلصين الخاشعين لله، وهو مراء بما يفعله فكيف يكون مخلصاً؟ فطلب الجاه بهذا الطريق حرام، وكذا بكل معصية. وذلك يجري مجرى اكتساب المال الحرام من غير فرق. وكما لا يجوز له أن يتملك مال غيره بتلبيس في عوض أو غيره، فلا يجوز له أن يتملك قلبه بتزوير وخداع فإن ملك القلوب أعظم من ملك الأموال.

بيان السبب في حب المدح والثناء وارتياح النفس به وميل الطبع إليه وبغضها للذم ونفرتها منه:

اعلم أن لحب المدح والتذاذ القلب به أربعة أسباب:

السبب الأول: وهو الأقوى، شعور النفس بالكمال: فإنّا بيّنا أن الكمال محبوب وكل محبوب فإدراكه لذيذ. فمهما شعرت النفس بكمالها ارتاحت، واهتزت، وتلذذت. والمدح يشعر نفس الممدوح بكمالها. فإن الوصف الذي به مدح لا يخلو إما أن يكون جلياً ظاهراً أو يكون مشكوكاً فيه، فإن كان جلياً ظاهراً محسوساً كانت اللذة به أقل، ولكنه لا يخلو عن لذة، كثنائه عليه بأنه طويل القامة، أبيض اللون، فإن هذا نوع كمال، ولكن النفس تغفل عنه فتخلو عن لذته، فإذا استشعرته لم يخل حدوث الشعور عن حدوث لذة.

وإن كان ذلك الوصف مما يتطرق إليه الشك، فاللذة فيه أعظم. كالثناء عليه بكمال العلم أو كمال الورع أو بالحسن المطلق فإن الإنسان ربما يكون شاكاً في كمال حسنه، وفي كمال علمه، وكمال ورعه، ويكون مشتاقاً إلى زوال هذا الشك، بأن يصير مستيقناً لكونه عديم النظير في هذه

www.dawateislami.net

الأمور، إذ تطمئن نفسه إليه، فإذا ذكره غيره أورث ذلك طمأنينة وثقة باستشعار ذلك الكمال، فتعظم لذاته وإنما تعظم اللذة بهذه العلة مهما صدر الثناء من بصير بهذه الصفات، خبير بها، لا يجازف في القول إلا عن تحقيق، وذلك كفرح التلميذ بثناء أستاذه عليه بالكياسة[١]، والذكاء، وغزارة الفضل[٢]، فإنه في غاية اللذة وإن صدر ممن يجازف في الكلام[٣] أو لا يكون بصيراً بذلك الوصف، ضعفت اللذة. وبهذه العلة يبغض الذم أيضاً ويكرهه، لأنه يشعره بنقصان نفسه، والنقصان ضد الكمال المحبوب، فهو ممقوت والشعور به مؤلم، ولذلك يعظم الألم إذا صدر الذم من بصير موثوق به، كما ذكرناه في المدح.

السبب الثاني: أن المدح يدل على أن قلب المادح مملوك للممدوح، وأنه مريد له، ومعتقد فيه، ومسخر تحت مشيئته، وملك القلوب محبوب، والشعور بحصوله لذيذ، وبهذه العلة تعظم اللذة مهما صدر الثناء ممن تتسع قدرته، وينتفع باقتناص قلبه[٤] كالملوك والأكابر، ويضعف مهما كان المادح ممن لا يؤبه له ولا يقدر على شيء، فإن القدرة عليه بملك قلبه قدرة على أمر حقير، فلا يدل المدح إلا على قدرة قاصرة وبهذه العلة أيضاً يكره الذم ويتألم به القلب، وإذا كان من الأكابر كانت نكايته أعظم لأن الفائت به أعظم.

السبب الثالث: أن ثناء المثني ومدح المادح سبب لاصطياد قلب كل من يسمعه، لا سيما إذا كان ذلك ممن يلتفت إلى قوله، ويعتد بثنائه، وهذا مختص بثناء يقع على الملأ، فلا جرم كلّما كان الجمع أكثر، والمثني أجدر بأن يلتفت إلى قوله، كان المدح ألذ، والذم أشد على النفس.

السبب الرابع: أن المدح يدل على حشمة الممدوح، واضطرار المادح إلى إطلاق اللسان بالثناء على الممدوح إما عن طوع، وإما عن قهر، فإن الحشمة أيضاً لذيذة لما فيها من القهر والقدرة. وهذه اللذة تحصل وإن كان المادح لا يعتقد في الباطن ما مدح به، ولكن كونه مضطراً إلى ذكره نوع قهر واستيلاء عليه، فلا جرم تكون لذته بقدر تمنع المادح وقوته، فتكون لذة ثناء القوي الممتنع عن التواضع بالثناء أشد. فهذه الأسباب الأربعة قد تجمع في مدح مادح واحد، فيعظم بها الالتذاذ وقد تفترق فتنقص اللذة بها.

---

(١) أي بالغلبة. (فيض القدير)

(٢) أي بكثرة الفضل. (تاج العروس)

(٣) الجزف الأخذ بكثرة كلمة فارسية ويقال لمن يرسل كلامه إرسالاً من غير قانون «جازف في كلامه» (المصباح المنير)

(٤) أي بصيد قلبه. (التعاريف)

www.dawateislami.net

أما العلة الأولى، وهي استشعار الكمال، فتندفع بأن يعلم الممدوح أنه غير صادق في قوله كما إذا مدح بأنه نسيب[1]، أو سخي، أو عالم بعلم، أو متورع عن المحظورات، وهو يعلم من نفسه ضد ذلك، فتزول اللذة التي سببها استشعار الكمال، وتبقى لذة الاستيلاء على قلبه وعلى لسانه وبقية اللذات. فإن كان يعلم أن المادح ليس يعتقد ما يقوله، ويعلم خلوه عن هذه الصفة بطلت اللذة الثانية وهو استيلاءه على قلبه، وتبقى لذة الاستيلاء والحشمة على اضطرار لسانه إلى النطق بالثناء. فإن لم يكن ذلك عن خوف بل كان بطريق اللعب بطلت اللذات كلها، فلم يكن فيه أصلاً لذة لفوات الأسباب الثلاثة.

فهذا ما يكشف الغطاء عن علة التذاذ النفس بالمدح وتألّمها بسبب الذم، وإنما ذكرنا ذلك ليعرف طريق العلاج لحب الجاه، وحب المحمدة، وخوف المذمة، فإن ما لا يعرف سببه لا يمكن معالجته؛ إذ العلاج عبارة عن حل أسباب المرض. والله الموفّق بكرمه ولطفه وصلى الله على كل عبد مصطفى.

بيان علاج حب الجاه:

اعلم أن من غلب على قلبه حب الجاه، صار مقصور الهم على مراعاة الخلق مشغوفاً بالتودد إليهم، والمراآة لأجلهم. ولا يزال في أقواله وأفعاله ملتفتاً إلى ما يعظم منزلته عندهم، وذلك بذر النفاق وأصل الفساد، ويجر ذلك لا محالة إلى التساهل في العبادات، والمراآة بها، وإلى اقتحام المحظورات للتوصل إلى اقتناص القلوب، ولذلك شبه رسول الله صلى الله عليه وسلم حب الشرف والمال وإفسادهما للدين بذئبين ضاريين وقال صلى الله عليه وسلم: ((**إِنَّهُ يُنْبِتُ النِّفَاقَ كَمَا يُنْبِتُ الْمَاءُ الْبَقْلَ**))[2] إذ النفاق هو مخالفة الظاهر للباطن بالقول أو الفعل، وكل من طلب المنزلة في قلوب الناس فيضطر إلى النفاق معهم وإلى التظاهر بخصال حميدة هو خال عنها وذلك هو عين النفاق.فحب الجاه إذاً من المهلكات فيجب علاجه وإزالته عن القلب، فإنه طبع جبل القلب عليه كما جبل على حب المال، وعلاجه مركب من علم وعمل.

أما العلم: فهو أن يعلم السبب الذي لأجله أحب الجاه وهو كمال القدرة على أشخاص الناس وعلى قلوبهم، وقد بيَّنا أن ذلك إن صفا وسلم فآخره الموت فليس هو من الباقيات الصالحات، بل لو سجد لك كل من على بسيط الأرض من المشرق إلى المغرب فإلى خمسين سنة لا يبقى الساجد ولا المسجود له ويكون حالك كحال من مات قبلك من ذوي الجاه مع المتواضعين له، فهذا لا ينبغي أن يترك به الدين الذي هو الحياة الأبدية التي لا انقطاع لها، ومن فهم الكمال الحقيقي والكمال الوهمي

---

(١) **النسيب**: الرجل الشريف المعروف حسبه وأصوله. (العامي الفصيح)

(٢) لم نجد له أصلاً.[علمية]

www.dawateislami.net

كما سبق صغر الجاه في عينه إلا أن ذلك إنما يصغر في عين من ينظر إلى الآخرة كأنه يشاهدها ويستحقر العاجلة ويكون الموت كالحاصل عنده، ويكون حاله كحال الحسن البصري حين كتب إلى عمر بن عبد العزيز: «أما بعد! فكأنّك بآخر من كتب عليه الموت قد مات» فانظر كيف مد نظره نحو المستقبل وقدره كائناً. وكذلك حال عمر بن عبد العزيز حين كتب في جوابه: «أما بعد! فكأنك بالدنيا لم تكن، وكأنك بالآخرة لم تزل»، فهؤلاء كان التفاتهم إلى العاقبة فكان عملهم لها بالتقوى؛ إذ علموا أن العاقبة للمتقين فاستحقروا الجاه والمال في الدنيا. وأبصار أكثر الخلق ضعيفة مقصورة على العاجلة لا يمتد نورها إلى مشاهدة العواقب، ولذلك قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُوْنَ الْحَيٰوةَ الدُّنْيَاوَ الْاٰخِرَةُ خَيْرٌوَّ اَبْقٰى﴾ [الأعلى: ١٦،١٧] وقال عز وجل: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّوْنَ الْعَاجِلَةَ وَتَذَرُوْنَ الْاٰخِرَةَ﴾ [القيامة: ٢٠،٢١] فمن هذا حده فينبغي أن يعالج قلبه من حب الجاه بالعلم بالآفات العاجلة، وهو أن يتفكر في الأخطار التي يستهدف لها أرباب الجاه في الدنيا، فإن كل ذي جاه محسود ومقصود بالإيذاء، وخائف على الدوام على جاهه، ومحترز من أن تتغير منزلته في القلوب، والقلوب أشدّ تغيراً من القدر في غليانها، وهي مترددة بين الإقبال والإعراض. فكل ما يبنى على قلوب الخلق يضاهي[1] ما يبنى على أمواج البحر فإنه لا ثبات له. والاشتغال بمراعاة القلوب، وحفظ الجاه، ودفع كيد الحساد ومنع أذى الأعداء، كلٌّ ذلك غموم عاجلة ومكدرة للذة الجاه. فلا يفي في الدنيا مرجوها بمخوفها فضلاً عما يفوت في الآخرة. فبهذا ينبغي أن تعالج البصيرة الضعيفة. وأما من نفذت بصيرته، وقوي إيمانه، فلا يلتفت إلى الدنيا. فهذا هو العلاج من حيث العلم.

وأما من حيث العمل: فإسقاط الجاه على قلوب الخلق بمباشرة أفعال يلام عليها حتى يسقط من أعين الخلق وتفارقه لذة القبول ويأنس بالخمول ويرد الخلق ويقنع بالقبول من الخالق. وهذا هو مذهب الملامتية إذ اقتحموا[2] الفواحش في صورتها ليسقطوا أنفسهم من أعين الناس فيسلموا من آفة الجاه وهذا غير جائز لمن يقتدى به فإنه يوهن[3] الدين في قلوب المسلمين وأما الذي لا يقتدى به فلا يجوز له أن يقدم على محظور لأجل ذلك، بل له أن يفعل من المباحات ما يسقط قدره عند الناس، كما روي أن بعض الملوك قصد بعض الزهاد فلما علم بقربه منه استدعى طعاماً وبقلاً وأخذ يأكل بشره ويعظم اللقمة، فلمّا نظر إليه الملك سقط من عينه وانصرف فقال الزاهد: الحمد لله الذي صرَّفك عني.

---

(١) يضاهي: أي يُشابه. (اتحاف)

(٢) أي رموا بنفسهم فيها على شدة ومشقة. (أساس البلاغة)

(٣) **الوهن**: أي الضعف. (المعجم الوسيط)

www.dawateislami.net

ومنهم من شرب شراباً حلالاً في قَدَح لونه لون الخمر حتى يظن به أنه يشرب الخمر فيسقط من أعين الناس. وهذا في جوازه نظر من حيث الفقه إلا أن أرباب الأحوال ربما يعالجون أنفسهم بما لا يفتي به الفقيه مهما رأوا إصلاح قلوبهم فيه ثم يتداركون ما فرط منهم فيه من صورة التقصير كما فعل بعضهم، فإنه عرف بالزهد وأقبل الناس عليه فدخل حماماً ولبس ثياب غيره وخرج فوقف في الطريق، حتى عرفوه فأخذوه وضربوه، واستردوا منه الثياب، وقالوا: إنه طرَّار[1] وهجروه. وأقوى الطرق في قطع الجاه: الاعتزال عن الناس والهجرة إلى موضع الخمول، فإنّ المعتزل في بيته في البلد الذي هو به مشهور لا يخلو عن حب المنزلة التي ترسخ له في القلوب بسبب عزلته، فإنه ربما يظن أنه ليس محباً لذلك الجاه وهو مغرور، وإنما سكنت نفسه لأنها قد ظفرت بمقصودها، ولو تغير الناس عما اعتقدوه فيه فذموه أو نسبوه إلى أمر غير لائق به، جزعت نفسه وتألمت، وربما توصلت إلى الاعتذار عن ذلك وإماطة ذلك الغبار عن قلوبهم، وربما يحتاج في إزالة ذلك عن قلوبهم إلى كذب وتلبيس ولا يبالي به، وبه يتبين بعد أنه محب للجاه والمنزلة. ومن أحب الجاه والمنزلة فهو كمن أحب المال بل هو شر منه، فإن فتنة الجاه أعظم ولا يمكنه أن لا يحب المنزلة في قلوب الناس ما دام يطمع في الناس، فإذا أحرز قوته من كسبه أو من جهة أخرى وقطع طمعه عن الناس رأساً أصبح الناس كلهم عنده كالأرذال[2]، فلا يبالي أكان له منزلة في قلوبهم أم لم يكن، كما لا يبالي بما في قلوب الذين هم منه في أقصى المشرق لأنه لا يراهم ولا يطمع فيهم، ولا يقطع الطمع عن الناس إلا بالقناعة، فمن قنع استغنى عن الناس وإذا استغنى لم يشتغل قلبه بالناس ولم يكن لقيام منزلته في القلوب عنده وزن[3]، ولا يتم ترك الجاه إلا بالقناعة وقطع الطمع. ويستعين على جميع ذلك بالأخبار الواردة في ذم الجاه ومدح الخمول والذل مثل قولهم: المؤمن لا يخلو من ذلة أو قلة أو علة، وينظر في أحوال السلف وإيثارهم للذل على العز ورغبتهم في ثواب الآخرة رضي الله عنهم أجمعين.

بيان وجه العلاج لحب المدح وكراهة الذم:

اعلم أن أكبر الناس إنما هلكوا بخوف مذمة الناس وحب مدحهم، فصار حركاتهم كلّها موقوفة على ما يوافق رضا الناس رجاء للمدح وخوفاً من الذم، وذلك من المهلكات فيجب معالجته وطريقه ملاحظة الأسباب التي لأجلها يحب المدح ويكره الذم.

---

(١) **الطرار**. وهو الذي يقطع النفقات على غفلة من أهلها. (اتحاف)

(٢) أي الأسقاط. (اتحاف)

(٣) أي مقدار. (اتحاف)

www.dawateislami.net

أما السبب الأول: فهو استشعار الكمال بسبب قول المادح فطريقك فيه أن ترجع إلى عقلك وتقول لنفسك: هذه الصفة التي يمدحك بها أنت متصف بها أم لا؟ فإن كنت متصفاً بها فهي إما صفة تستحق بها المدح كالعلم والورع وإما صفة لا تستحق المدح كالثروة والجاه والأعراض الدنيوية، فإن كانت من الأعراض الدنيوية فالفرح بها كالفرح بنبات الأرض الذي يصير على القرب هشيماً[١] تذروه الرياح[٢] وهذا من قلة العقل بل العاقل يقول كما قال المتنبي:

أشد الغم عندي في سرور تيقن عنه صاحبه انتقالاً

فلا ينبغي أن يفرح الإنسان بعروض الدنيا، وإن فرح فلا ينبغي أن يفرح بمدح المادح بها بل بوجودها والمدح ليس هو سبب وجودها، وإن كانت الصفة مما يستحق الفرح بها كالعلم والورع فينبغي أن لا يفرح بها لأن الخاتمة غير معلومة، وهذا إنما يقتضي الفرح لأنه يقرب عند الله زلفى[٣] وخطر الخاتمة باق ففي الخوف من سوء الخاتمة شغل عن الفرح بكل ما في الدنيا، بل الدنيا دار أحزان وغموم لا دار فرح وسرور، ثم إن كنت تفرح بها على رجاء حسن الخاتمة فينبغي أن يكون فرحك بفضل الله عليك بالعلم والتقوى لا بمدح المادح، فإن اللذّة في استشعار الكمال، والكمال موجود من فضل الله لا من المدح والمدح تابع له فلا ينبغي أن تفرح بالمدح، والمدح لا يزيدك فضلاً.

وإن كانت الصفة التي مدحت بها أنت خال عنها ففرحك بالمدح غاية الجنون، ومثالك مثال من يهزأ به إنسان ويقول: سبحان الله ما أكثر العطر الذي في أحشائه[٤]، وما أطيب الروائح التي تفوح منه إذا قضى حاجته. وهو يعلم ما تشتمل عليه أمعاءه[٥] من الأقذار والأنتان، ثم يفرح بذلك فكذلك إذا أثنوا عليك بالصلاح والورع ففرحت به والله مطلع على خبائث باطنك وغوائل[٦] سريرتك وأقذار صفاتك كان ذلك من غاية الجهل.

فإذا المادح إن صدق فليكن فرحك بصفتك التي هي من فضل الله عليك وإن كذب فينبغي أن يغمك ذلك ولا تفرح به.

---

(١) أي متحطماً متكسراً. (اتحاف)

(٢) أي تطيروه. (اتحاف)

(٣) أي القربى. (فتح الباري، باب وأقم الصلاة طرفي النهار...إلخ)

(٤) أحشاء جمع الحشا، والحشا: ما في البطن. (القاموس المحيط)

(٥) المِعَى: المصران وجمعه أَمْعَاءٌ. (المصباح المنير)

(٦) الغيلة بالكسر والغائلة: الفساد والشر، وغائلة العبد إباقه وفجوره ونحو ذلك والجمع: الغوائل. (المصباح المنير)

www.dawateislami.net

وأما السبب الثاني: وهو دلالة المدح على تسخير قلب المادح وكونه سبباً لتسخير قلب آخر فهذا يرجع إلى حب الجاه والمنزلة في القلوب وقد سبق وجه معالجته، وذلك بقطع الطمع عن الناس وطلب المنزلة عند الله، وبأن تعلم أن طلبك المنزلة في قلوب الناس وفرحك به يسقط منزلتك عند الله فكيف تفرح به!

وأما السبب الثالث: وهو الحشمة التي اضطرت المادح إلى المدح، فهو أيضاً يرجع إلى قدرة عارضة لا ثبات لها ولا تستحق الفرح بل ينبغي أن يغمك مدح المادح وتكرهه وتغضب به كما نقل ذلك عن السلف. لأن آفة المدح على الممدوح عظيمة كما ذكرناه في كتاب آفات اللسان. قال بعض السلف: من فرح بمدح فقد مكن الشيطان من أن يدخل في بطنه. وقال بعضهم: إذا قيل لك: نعم الرجل أنت، فكان أحب إليك من أن يقال لك: بئس الرجل أنت فأنت والله بئس الرجل، وروي في بعض الأخبار – فإن صح فهو قاصم[1] للظهور– أن رجلاً أثنى على رجل خيراً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ((**لَوْ كَانَ صَاحِبُكَ حَاضِرًا فَرَضِيَ الَّذِيْ قُلْتَ فَمَاتَ عَلَى ذَلِكَ دَخَلَ النَّارَ**)) [2] وقال صلى الله عليه وسلم مرة للمادح: ((**وَيْحَكَ قَصَمْتَ ظَهْرَهُ لَوْ سَمِعَكَ مَا أَفْلَحَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**)) [3] وقال صلى الله عليه وسلم: ((**أَلاَ لاَ تَمَادَحُوْا وَإِذَا رَأَيْتُمُ الْمَادِحِيْنَ فَاحْثُوْا فِيْ وُجُوْهِهِمُ التُّرَابَ**))[4].

فلهذا كان الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين على وَجَلٍ[5] عظيم من المدح وفتنته وما يدخل على القلب من السرور العظيم به، حتى إن بعض الخلفاء الراشدين سأل رجلاً عن شيء فقال: أنت يا أمير المؤمنين خير مني وأعلم، فغضب وقال: إني لم آمرك بأن تزكيني. وقيل: لبعض الصحابة لا يزال الناس بخير ما أبقاك الله، فغضب وقال: إني لأحسبك عراقياً. وقال بعضهم: لما مدح، اللّهم إن عبدك تقرب إليّ بمقتك[6] فأشهدك على مقته، وإنما كرهوا المدح خيفة أن يفرحوا بمدح الخلق وهم ممقوتون عند الخالق، فكان اشتغال قلوبهم بحالهم عند الله تعالى يبغض إليهم مدح الخلق؛ لأن الممدوح هو المقرب عند الله والمذموم بالحقيقة، هو المبعد من الله، الملقى في النار مع الأشرار، فهذا الممدوح إن كان عند الله من أهل النار فما أعظم جهله إذا فرح بمدح غيره، وإن كان من أهل الجنة

---

(١) **القصم**: إهلاك الله الظالم، وكسر الشيء بإبانة بعض أجزائه. (إكمال الإعلام)

(٢) ...تذكرة الموضوعات، باب ذم الدنيا والغنى...الخ، ص: ١٧٧.

(٣) ...كنز العمال، كتاب الاخلاق، الباب الثاني في الاخلاق والافعال المذمومة، الحديث: ٨٣٣٢، ٣/٢٥٨.

(٤) ...صحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب النهي عن المدح...الخ، الحديث: ٣٠٠٢، ص: ١٢٠٠، دون قول: الا تمادحوا.

(٥) وَجَل: أي خَوْف. (المحيط في اللغة)

(٦) **المقت**: بغض شديد ناشيء عن فعل قبيح. (التعاريف)

www.dawateislami.net

فلا ينبغي أن يفرح إلا بفضل الله تعالى وثنائه عليه إذ ليس أمره بيد الخلق. ومهما علم أن الأرزاق والآجال بيد الله تعالى قل التفاته إلى مدح الخلق وذمهم وسقط من قلبه حب المدح واشتغل بما يهمه من أمر دينه. والله الموفق للصواب برحمته.

بيان علاج كراهة الذم:

قد سبق أن العلة في كراهة الذم هو ضد العلة في حب المدح. فعلاجه أيضاً يفهم منه. والقول الوجيز[1] فيه، أن من ذمك لا يخلو من ثلاثة أحوال: إمّا أن يكون قد صدق فيما قال وقصد به النصح والشفقة، وإما أن يكون صادقاً ولكن قصده الإيذاء والتعنت، وإمّا أن يكون كاذباً. فإن كان صادقاً وقصده النصح فلا ينبغي أن تذمه وتغضب عليه وتحقد بسببه، بل ينبغي أن تتقلد منته فإن من أهدى إليك عيوبك فقد أرشدك إلى المهلك حتى تتقيه، فينبغي أن تفرح به وتشتغل بإزالة الصفة المذمومة عن نفسك إن قدرت عليها. فأما اغتمامك[2] بسببه وكراهتك له وذمك إياه فإنه غاية الجهل.

وإن كان قصده التعنت فأنت قد انتفعت بقوله إذ أرشدك إلى عيبك إن كنت جاهلاً به، أو ذكرك عيبك إن كنت غافلاً عنه، أو قبحه في عينك لينبعث حرصك على إزالته إن كنت قد استحسنته. وكل ذلك أسباب سعادتك وقد استفدته منه فاشتغل بطلب السعادة فقد أُتِيْحَ لك[3] أسبابها بسبب ما سمعته من المذمة. فمهما قصدت الدخول على ملك وثوبك ملوث بالعَذِرة وأنت لا تدري، ولو دخلت عليه كذلك لخِفت أن يحز[4] رقبتك لتلويثك مجلسه بالعَذِرة، فقال لك قائل: أيّها الملوَّث بالعَذِرة طَهِّرْ نفسك، فينبغي أن تفرح به لأن تنبيهك بقوله غنيمةٌ، وجميع مساوئ الأخلاق مهلكة في الآخرة والإنسان إنما يعرفها من قول أعدائه فينبغي أن تغتنمه. وأمّا قصد العدو التعنت فجناية منه على دين نفسه وهو نعمة منه عليك فلم تغضب عليه بقول انتفعت به أنت وتضرر هو به؟.

الحالة الثالثة: أن يفتري عليك بما أنت بريء منه عند الله تعالى فينبغي أن لا تكره ذلك ولا تشتغل بذمه بل تتفكر في ثلاثة أمور:

أحدها: أنّك إن خلوت من ذلك العيب فلا تخلو عن أمثاله وأشباهه وما ستره الله من عيوبك أكثر، فاشكر الله تعالى إذ لم يطلعه على عيوبك ودفعه عنك بذكر ما أنت بريء عنه.

---

(١) أي المختصر الخالي عن التطويل. (اتحاف)

(٢) **اغتمام:** الغطاء على القلب من الهم. (جمهرة اللغة)

(٣) أي قُدِّرَ لك. (المنجد)

(٤) أي أنْ يَقْطَع. (اتحاف، لسان العرب)

www.dawateislami.net

والثاني: أنّ ذلك كفارات لبقية مساويك وذنوبك فكأنه رماك بعيب أنت بريء منه وطهرك من ذنوب أنت ملوث بها، وكل من اغتابك فقد أهدى إليك حسناته، وكل من مدحك فقد قطع ظهرك، فما بالك تفرح بقطع الظهر وتحزن لهدايا الحسنات التي تقربك إلى الله تعالى! وأنت تزعم أنك تحب القرب من الله.

وأما الثالث: فهو أن المسكين قد جنى على دينه حتى سقط من عين الله وأهلك نفسه بافترائه وتعرض لعقابه الأليم، فلا ينبغي أن تغضب عليه مع غضب الله عليه فتشمت به الشيطان وتقول: اللّهم أهلكه بل ينبغي أن تقول: اللّهم أصلحه، اللّهم تب عليه، اللّهم ارحمه، كما قال صلى الله عليه وسلم: ((**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِى اَللّهُمَّ اهْدِ قَوْمِيْ فَإِنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ**)) [1] لما أن كسروا ثنيته وشجوا وجهه وقتلوا عمّه حمزة يوم أحد. ودعا إبراهيم بن أدهم لمن شج رأسه بالمَغفرة فقيل له في ذلك فقال: علمت أني مأجور بسببه وما نالني منه إلا خير فلا أرضى أن يكون هو معاقباً بسببي. ومما يهوّن عليك كراهة المذمة قطع الطمع فإن من استغنيت عنه مهما ذمك لم يعظم أثر ذلك في قلبك. وأصل الدين القناعة، وبها ينقطع الطمع عن المال والجاه، وما دام الطمع قائماً كان حب الجاه والمدح في قلب من طمعت فيه غالباً، وكانت همتك إلى تحصيل المنزلة في قلبه مصروفة، ولا ينال ذلك إلا بهدم الدين، فلا ينبغي أن يطمع طالب المال والجاه ومحب المدح ومبغض الذم في سلامة دينه فإن ذلك بعيد جداً.

بيان اختلاف أحوال الناس في المدح والذم:

اعلم أن للناس أربعة أحوال بالإضافة إلى الذام والمادح:

الحالة الأولى: أن يفرح بالمدح ويشكر المادح ويغضب من الذم ويحقد على الذام ويكافئه أو يحب مكافأته، وهذا حال أكثر الخلق وهو غاية درجات المعصية في هذا الباب.

الحالة الثانية: أن يمتعض في الباطن[2] على الذام ولكن يمسك لسانه وجوارحه عن مكافأته ويفرح باطنه، ويرتاح للمادح ولكن يحفظ ظاهره عن إظهار السرور وهذا من النقصان إلا أنه بالإضافة إلى ما قبله كمال.

الحالة الثالثة: وهي أول درجات الكمال أن يستوي عنده ذامه ومادحه فلا تغمه المذمة ولا تسره المدحة، وهذا قد يظنه بعض العباد بنفسه ويكون مغروراً إن لم يمتحن نفسه بعلاماته، وعلاماته أن لا يجد في نفسه استثقالاً للذام عند تطويله الجلوس عنده أكثر مما يجده في المادح، وأن لا يجد في

---

(١) ...دلائل النبوة للبيهقي، باب سياق قصة خروج النبي صلى الله عليه وسلم الى أحد...الخ، ٣/٢١٥.

(٢) أي يلتوي باطنه بوجع. (اتحاف)

www.dawateislami.net

نفسه زيادة هزة ونشاط في قضاء حوائج المادح فوق ما يجده في قضاء حاجة الذام، وأن لا يكون انقطاع الذام عن مجلسه أهون عليه من انقطاع المادح، وأن لا يكون موت المادح المطري[1] له أشد نكاية في قلبه من موت الذام، وأن لا يكون غمه بمصيبة المادح وما يناله من أعدائه أكثر مما يكون بمصيبة الذام، وأن لا تكون زلة المادح أخف على قلبه وفي عينه من زلة الذام، فمهما خف الذام على قلبه كما خف المادح واستويا من كل وجه فقد نال هذه الرتبة وما أبعد ذلك وما أشده على القلوب!

وأكثر العباد فرحهم بمدح الناس لهم مستبطن في قلوبهم وهم لا يشعرون حيث لا يمتحنون أنفسهم بهذه العلامات، وربما شعر العابد بميل قلبه إلى المادح دون الذام. والشيطان يحسن له ذلك ويقول: الذام قد عصى الله بمذمتك، والمادح قد أطاع الله بمدحك. فكيف تسوي بينهما؟ وإنما استثقالك للذام من الدين المحض. وهذا محض التلبيس، فإن العابد لو تفكر علم أن في الناس من ارتكب كبائر المعاصي أكثر مما ارتكب الذام في مذمته، ثم إنه لا يستثقلهم ولا ينفر عنهم ويعلم أن المادح الذي مدحه لا يخلو عن مذمة غيره. ولا يجد في نفسه نفرة عنه بمذمة غيره كما يجد لمذمة نفسه. والمذمة من حيث إنها معصية لا تختلف بأن يكون هو المذموم أو غيره. فإذاً العابد المغرور لنفسه يغضب ولهواه يمتعض[2]، ثم إن الشيطان يخيل إليه أنه من الدين حتى يعتل على الله بهواه فيزيده ذلك بعداً من الله، ومن لم يطلع على مكايد الشيطان وآفات النفوس فأكثر عباداته تعب ضائع يفوت عليه الدنيا ويخسره في الآخرة، وفيهم قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣،١٠٤].

الحالة الرابعة: وهي الصدق في العبادة، أن يكره المدح ويمقت المادح؛ إذ يعلم أنه فتنة عليه قاصمة للظهر مضرة له في الدين، ويحب الذام إذ يعلم أنه مهد إليه عيبه ومرشد له إلى مهمه ومهد إليه حسناته فقد قال صلى الله عليه وسلم: ((**رَأْسُ التَّوَاضُعِ أَنْ تَكْرَهَ أَنْ تُذْكَرَ بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى**))[3] وقد روي في بعض الأخبار ما هو قاصم لظهور أمثالنا إن صح إذ روي أنه صلى الله عليه وسلم قال: ((**وَيْلٌ لِلصَّائِمِ وَوَيْلٌ لِلْقَائِمِ وَوَيْلٌ لِصَاحِبِ الصُّوْفِ إِلاَّ مَنْ....**)) فقيل يا رسول الله إلا من ؟ فقال: ((**إِلاَّ مَنْ تَنَزَّهَتْ نَفْسُهُ عَنِ الدُّنْيَا وَأَبْغَضَ الْمِدْحَةَ وَاسْتَحَبَّ الْمَذَمَّةَ**))[4] وهذا شديد جداً.

---

(١) أي المبالغ. (اتحاف)

(٢) أي يغضب ويشق عليه. (تاج العروس)

(٣) ...الزهدلهنادبن السرى، باب التواضع، الحديث: ٨٠٧، ٢/ ٤١٤ بتغير.

(٤) ...تذكرة الموضوعات، باب ذم الدنيا والغنى...الخ، ص: ١٧٤.

www.dawateislami.net

وغاية أمثالنا الطمع في الحالة الثانية: وهو أن يضمر الفرح والكراهة على الذام والمادح، ولا يظهر ذلك بالقول والعمل، فأما الحالة الثالثة: وهي التسوية بين المادح والذام فلسنا نطمع فيها. ثم إن طالبنا أنفسنا بعلامة الحالة الثانية، فإنها لا تفي بها؛ لأنها لا بد وأن تتسارع إلى إكرام المادح وقضاء حاجاته وتتثاقل على إكرام الذام والثناء عليه وقضاء حوائجه ولا نقدر على أن نسوي بينهما في الفعل الظاهر كما لا نقدر عليه في سريرة القلب، ومن قدر على التسوية بين المادح والذام في ظاهر الفعل فهو جدير بأن يتخذ قدوة[1] في هذا الزمان إن وجد فإنه الكبريت الأحمر[2] يتحدث الناس به ولا يرى، فكيف بما بعده من المرتبتين. وكل واحدة من هذه الرتب أيضاً فيها درجات:

أما الدرجات في المدح: فهو أن من الناس من يتمنى المدحة والثناء وانتشار الصيت، فيتوصل إلى نيل ذلك بكل ما يمكن حتى يرائي بالعبادات ولا يبالي بمقارفة المحظورات لاستمالة قلوب الناس واستنطاق ألسنتهم بالمدح وهذا من الهالكين.

ومنهم: من يريد ذلك ويطلبه بالمباحات ولا يطلبه بالعبادات ولا يباشر المحظورات، وهذا على شفا جرف هار[3]، فإن حدود الكلام الذي يستميل به القلوب وحدود الأعمال لا يمكنه أن يضبطها فيوشك أن يقع فيما لا يحل لنيل الحمد، فهو قريب من الهالكين جداً.

ومنهم: من لا يريد المدحة ولا يسعى لطلبها ولكن إذا مدح سبق السرور إلى قلبه فإن لم يقابل ذلك بالمجاهدة ولم يتكلف الكراهية فهو قريب من أن يستجره فرط السرور إلى الرتبة التي قبلها وإن جاهد نفسه في ذلك وكلف قلبه الكراهية وبغض السرور إليه بالتفكر في آفات المدح فهو في خطر المجاهدة، فتارة تكون اليد له وتارة تكون عليه.

ومنهم: من إذا سمع المدح لم يسر به ولم يغتم به ولم يؤثر فيه، وهذا على خير وإن كان قد بقي عليه بقية من الإخلاص.

ومنهم: من يكره المدح إذا سمعه ولكن لا ينتهي به إلى أن يغضب على المادح وينكر عليه، وأقصى درجاته أن يكره ويغضب ويظهر الغضب وهو صادق فيه، لا أن يظهر الغضب وقلبه محب له، فإن ذلك عين النفاق لأنه يريد أن يظهر من نفسه الإخلاص والصدق وهو مفلس عنه، وكذلك بالضد

---

(١) أي شيخاً يقتدى به. (اتحاف)

(٢) الكبريت: أي الخالص، والكبريت الأحمر: يقال: هو من الجوهر ومَعْدِنُه خَلْفَ بلاد التُّبَّت في وادي الرَّمْل الذي مرّ به سُلَيْمانُ بن داود عليه السّلام، ويُقال : في كلِّ شيء كبْريت وهو يُبْسُه ما خلا الذَّهَبَ والفِضّة فإنّه لا يَنْكَسِر فإذا صُعِّد الشّيء ذهب كِبْرِيتُه. صُعِّد :أي نُقل من حال إلى حال. (لسان العرب ،وغيره)

(٣) أي جانب مشرف على السقوط. (التفسير الجلالين سورة التوبة: الآية ١٠٩)

www.dawateislami.net

من هذا تتفاوت الأحوال في حق الذام، وأول درجاته إظهار الغضب وآخرها إظهار الفرح، ولا يكون الفرح وإظهاره إلا ممن في قلبه حَنَقٌ[1] وحقد على نفسه لتمردها عليه وكثرة عيوبها ومواعيدها الكاذبة وتلبيساتها الخبيثة، فيبغضها بغض العدو. والإنسان يفرح ممن يذم عدوه وهذا شخص عدوه نفسه فيفرح إذا سمع ذمها ويشكر الذام على ذلك ويعتقد فطنته وذكاءه لما وقف على عيوبها، فيكون ذلك كالتشفي له من نفسه ويكون غنيمة عنده؛ إذ صار بالمذمة أوضع[2] في أعين الناس حتى لا يبتلي بفتنة الناس، وإذا سيقت إليه حسنات لم ينصب[3] فيها فعساه يكون خيراً لعيوبه التي هو عاجز عن إماطتها، ولو جاهد المريد نفسه طول عمره في هذه الخصلة الواحدة وهو أن يستوي عنده ذامه ومادحه لكان له شغل شاغل فيه لا يتفرغ معه لغيره وبينه وبين السعادة عقبات كثيرة هذه إحداها، ولا يقطع شيئًا منها إلا بالمجاهدة الشديدة في العمر الطويل.

الشطر الثاني من الكتاب في طلب الجاه والمنزلة بالعبادات:

وهو الرياء: وفيه بيان ذم الرياء وبيان حقيقة الرياء وما يرائي به، وبيان درجات الرياء، وبيان الرياء الخفي، وبيان ما يحبط العمل من الرياء وما لا يحبط، وبيان دواء الرياء وعلاجه، وبيان الرخصة في إظهار الطاعات، وبيان الرخصة في كتمان الذنوب، وبيان ترك الطاعات خوفا من الرياء والآفات، وبيان ما يصح من نشاط العبد للعبادات بسبب رؤية الخلق، وبيان ما يجب على المريد أن يلزمه قلبه قبل الطاعة وبعدها، وهي عشرة فصول وبالله التوفيق.

بيان ذم الرياء:

اعلم أن الرياء حرام والمرائي عند الله ممقوت، وقد شهدت لذلك الآيات والأخبار والآثار.

أما الآيات: فقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّيْنَ الَّذِيْنَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُوْنَ الَّذِيْنَ هُمْ يُرَآءُوْنَ﴾ [الماعون:٤،٦] وقوله عز وجل: ﴿وَالَّذِيْنَ يَمْكُرُوْنَ السَّيِّاٰتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيْدٌ وَ مَكْرُ أُولٰٓئِكَ هُوَيَبُوْرُ﴾ [فاطر:١٠] قال مجاهد هم أهل الرياء وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لَا نُرِيْدُ مِنْكُمْ جَزَآءً وَّ لَا شُكُوْرًا﴾ [الدهر:٩] فمدح المخلصين ينفي كل إرادة سوى وجه الله، والرياء ضده. وقال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوْ لِقَآءَ رَبِّهٖ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صٰلِحًا وَّ لَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهٖٓ اَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠] نزل ذلك فيمن يطلب الأجر والحمد بعباداته وأعماله.

---

(١) محركة أي غيرة. (اتحاف)

(٢) أى أحقر. (اتحاف)

(٣) أى لم يتعب. (اتحاف)

www.dawateislami.net

وأما الأخبار: فقد قال صلى الله عليه وسلم حين سأله رجل فقال: يا رسول الله فيم النجاة؟ فقال: ((**أَلاَّ يَعْمَلَ الْعَبْدُ بِطَاعَةِ اللهِ يُرِيْدُ بِهَا النَّاسَ**))[١] وقال أبو هريرة في حديث الثلاثة: المقتول في سبيل الله والمتصدق بماله والقارئ لكتاب الله. كما أوردناه في كتاب الإخلاص. وإن الله عز وجل يقول لكل واحد منهم: كذبت بل أردت أن يقال: فلان جواد، كذبت بل أردت أن يقال: فلان شجاع كذبت بل أردت أن يقال: فلان قارئ فأخبر صلى الله عليه وسلم أنهم لم يثابوا وأن رياءهم هو الذي أحبط أعمالهم.

وقال ابن عمر رضي الله عنهما : قال النبي صلى الله عليه وسلم : ((**مَنْ رَاءَى رَاءَى اللّٰهُ بِهِ وَ مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللّٰهُ بِهِ**))[٢] وفي حديث آخر طويل: إن الله تعالى يقول لملائكته إن هذا لم يردني بعمله فاجعلوه في سجين.

وقال صلى الله عليه وسلم: ((**إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الأَصْغَرُ**)) قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: ((**الرِّيَاءُ، يَقُولُ اللّٰهُ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا جَازَى الْعِبَادُ بِأَعْمَالِهِمْ اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاءُونَ فِي الدُّنْيَا فَانْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً**))[٣] وقال صلى الله عليه وسلم : ((**اسْتَعِيْذُوْا بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ جُبِّ الْحُزْنِ**)) قيل وما هو يا رسول الله؟ قال: ((**وَادٍ فِيْ جَهَنَّمَ أُعِدَّ لِلْقُرَّاءِ الْمُرَائِيْنَ**))[٤].

وقال صلى الله عليه وسلم: ((**يَقُوْلُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: مَنْ عَمِلَ لِيْ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ غَيْرِي فَهُوَ لَهُ كُلُّهُ وَأَنَا مِنْهُ بَرِيْءٌ وَأَنَا أَغْنَى الأَغْنِيَاءِ عَنِ الشِّرْكِ**)) [٥].

وقال عيسى المسيح صلى الله عليه وسلم : إذا كان يوم صوم أحدكم فليدهن رأسه ولحيته ويمسح شفتيه لئلا يرى الناس أنه صائم وإذا أعطى بيمينه فليخف عن شماله وإذا صلى فليرخ ستر بابه فإن الله يقسّم الثناء كما يقسّم الرزق.

وقال نبينا صلى الله عليه وسلم: ((**لاَ يَقْبَلُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَمَلاً فِيْهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ رِيَاءٍ**))[٦] وقال عمر لمعاذ بن جبل حين رآه يبكي، ما يبكيك؟ قال: حديث سمعته من صاحب هذا القبر يعني النبي صلى الله عليه وسلم..

(١) ... اتحاف الخيرة المهرة، باب التحذير من الرياء... الخ، الحديث:، ۳۳۵۲۰۲/۱ بتغير.

(٢) ... صحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب من اشرک فی عمله غير الله، الحديث: ۲۹۸۶، ص: ۱۵۹۴.

(٣) ... شعب الايمان، باب فی اخلاص العمل لله عزوجل، الحديث: ۶۸۳۱، ۵/ ۳۳۳.

(٤) ... سنن الترمذی، كتاب الزهد، باب ماجاء فی الرياء والسمعة، الحديث: ۲۳۹۰، ۴/ ۱۷۱.

(٥) ... سنن ابن ماجه، كتاب الزهد، باب الرياء والسمعة، الحديث: ۴۲۰۲، ۴/ ۴۶۹.

(٦) ... حلية الاولياء، يوسف بن اسباط، الحديث: ۱۲۱۴۰، ۸/ ۲۶۳، عن يوسف بن اسباط.

www.dawateislami.net

وقال صلى الله عليه وسلم : ((**أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الرِّيَاءُ وَالشَّهْوَةُ الْخَفِيَّةُ**[٢]))[٣] وهي أيضاً ترجع إلى خطايا الرياء ودقائقه وقال صلى الله عليه وسلم: ((**إِنَّ فِيْ ظِلِّ الْعَرْشِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ رَجُلاً تَصَدَّقَ بِيَمِيْنِهِ فَكَادَ يُخْفِيْهَا عَنْ شِمَالِهِ**))[٤] ولذلك ورد: أن فضل عمل السر على عمل الجهر بسبعين ضعفا وقال صلى الله عليه وسلم : ((**إِنَّ الْمُرَائِيْ يُنَادَى عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَا فَاجِرُ يَا غَادِرُ يَا مُرَائِيْ ضَلَّ عَمَلُكَ وَحَبِطَ أَجْرُكَ اذْهَبْ فَخُذْ أَجْرَكَ مِمَّنْ كُنْتَ تَعْمَلُ لَهُ**))[٥].

وقال شداد بن أوس: رأيت النبي صلى الله عليه و سلم يبكي، فقلت ما يبكيك يا رسول الله؟ قال: ((**إِنِّيْ تَخَوَّفْتُ عَلَى أُمَّتِيْ الشِّرْكَ أَمَا إِنَّهُمْ لاَ يَعْبُدُونَ صَنَمًا وَلاَ شَمْساً وَلاَ قَمَراً وَلاَ حَجَراً وَلَكِنَّهُمْ يُرَاءُونَ بِأَعْمَالِهِمْ**))[٦].

وقال صلى الله عليه وسلم: ((**لَمَّا خَلَقَ اللهُ الأَرْضَ مَادَتْ**[٧] **بِأَهْلِهَا فَخَلَقَ الْجِبَالَ فَصَيَّرَهَا أَوْتَاداً لِلأَرْضِ فَقَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ مَا خَلَقَ رَبُّنَا خَلْقًا هُوَ أَشَدُّ مِنَ الْجِبَالِ، فَخَلَقَ اللهُ الْحَدِيْدَ فَقَطَعَ الْجِبَالَ ثُمَّ خَلَقَ النَّارَ فَأَذَابَتِ الْحَدِيْدَ ثُمَّ أَمَرَ اللهُ الْمَاءَ بِإِطْفَاءِ النَّارِ وَأَمَرَ الرِّيْحَ فَكَدَّرَتِ الْمَاءَ فَاخْتَلَفَتِ الْمَلاَئِكَةُ فَقَالَتْ نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى قَالُوْا: يَا رَبِّ مَا أَشَدَّ مَا خَلَقْتَ مِنْ خَلْقِكَ؟ قَالَ اللهُ تَعَالَى: لَمْ أَخْلُقْ خَلْقًا هُوَ أَشَدُّ عَلَيَّ مِنْ قَلْبِ ابْنِ آدَمَ حِيْنَ يَتَصَدَّقُ بِصَدَقَةٍ بِيَمِيْنِهِ فَيُخْفِيهَا عَنْ شِمَالِهِ فَهَذَا أَشَدُّ خَلْقٍ خَلَقْتُهُ**))[٨].

---

(١) ...المستدرک، کتاب معرفة الصحابة، استخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل على مكة، الحديث: ٥٢٣١، ٣/٣٠٦.

(٢) قال الأزهري: أستحسن أن أنصب الشهوة الخفية وأجعل الواو بمعنى مع أي الرياء مع الشهوة الخفية للمعاصي فكأنه يرائي الناس بتركه المعاصي والشهوة في قلبه. وقيل الرياء ما ظهر من العمل والشهوة الخفية حب اطلاع الناس على العمل. (فيض القدير)

✯.... روى الطبراني في المعجم هذاالحديث وفي آخره: قلت: وما الشهوة الخفية؟ قال: يصبح العبد صائما فتعرض له شهوة من شهواته فيواقعها ويدع صومه. (المعجم الكبير)

✯.... نقل المناوي في التيسير: «احذروا الشهوة الخفية» قالوا: وما هي يا رسول الله؟ قال: «العالم يحبّ أن يجلس إليه» بالبناء للمجهول أي يجلس الناس إليه للأخذ عنه والتعلم منه فإن ذلك يبطل عمله لتفويته للإخلاص فالعالم الصادق لا يتعرض لاستجلاب الناس إليه بلطف الرفق وحسن القول محبة للاستتباع فإنّ ذلك من غوائل النفس الأمارة فليحذر ذلك فإنه ابتلاء من الله واختبار والنفوس جبلت على محبة قبول الخلق والشهرة. (التيسير بشرح جامع الصغير)

(٣) ...الزهد لابن مبارک، باب فضل ذکر الله، الحديث: ١١١٤، ص: ٣٩٣.

(٤) ...صحيح البخاري، کتاب الاذان، باب من جلس في المسجد...الخ، الحديث: ٦٢٠، ١/٢٣٦.

(٥) ...اتحاف الخيرة المهرة، باب التحذير من الرياء...الخ، الحديث: ٦٠٢، ١/٣٣٥، دون قول "يامرائي".

(٦) ...المعجم الاوسط، الحديث: ٤٢١٣، ٣/١٦٨.

(٧) أي تحرّكت واضطربت. (اتحاف)

(٨) ...سنن الترمذي، کتاب التفسير، باب ومن سورة المعوذتين، الحديث: ٣٣٨٠، ٥/٤٢٢ بتغير.

www.dawateislami.net

وروى عبد الله بن المبارك بإسناده عن رجل أنه قال لمعاذ بن جبل: حدثني حديثاً سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: فبكى معاذ حتى ظننت أنه لا يسكت ثم سكت، ثم قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم قال لي: يا معاذ! قلت: لبيك بأبي أنت وأمي يا رسول الله، قال : ((**إِنِّيْ مُحَدِّثُكَ حَدِيْثًا إِنْ أَنْتَ حَفِظْتَهُ نَفَعَكَ وَإِنْ أَنْتَ ضَيَّعْتَهُ وَلَمْ تَحْفَظْهُ انْقَطَعَتْ حُجَّتُكَ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَا مُعَاذُ! إِنَّ اللهَ تَعَالى خَلَقَ سَبْعَةَ أَمْلاَك قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَات وَالأَرْضَ ثُمَّ خَلَقَ السَّمَوَات فَجَعَلَ لِكُلِّ سَمَاء مِنَ السَّبْعَةِ مَلَكًا بَوَّابًا عَلَيْهَا قَدْ جَلَّلَهَا عِظَمًا فَتَصْعَدُ الْحَفَظَةُ بِعَمَلِ الْعَبْدِ مِنْ حِيْنَ أَصْبَحَ إِلَى حِيْنَ أَمْسَى لَهُ نُوْرٌ كَنُوْرِ الشَّمْسِ حَتَّى إِذَا صَعِدَتْ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا زَكَّتْهُ فَكَثَّرَتْهُ فَيَقُوْلُ الْمَلَكُ لِلْحَفَظَة: اضْرِبُوْا بِهَذَا الْعَمَلِ وَجْهَ صَاحِبِهِ أَنَا صَاحِبُ الْغِيْبَةِ أَمَرَنِيْ رَبِّيْ أَنْ لاَ أَدَعَ عَمَلَ مَنِ اغْتَابَ النَّاسَ يُجَاوِزُنِيْ إِلَى غَيْرِيْ، قَالَ ثُمَّ تَأْتِي الْحَفَظَةُ بِعَمَلٍ صَالِحٍ مِنْ أَعْمَالِ الْعَبْدِ فَتَمُرُّ بِهِ فَتُزَكِّيْهِ وَتُكَثِّرُهُ حَتَّى تَبْلُغَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَة فَيَقُوْلُ لَهُمْ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِهَا: قِفُوْا وَاضْرِبُوْا بِهَذَا الْعَمَلِ وَجْهَ صَاحِبِهِ إِنَّهُ أَرَادَ بِعَمَلِهِ هَذَا عَرَضَ الدُّنْيَا أَمَرَنِيْ رَبِّيْ أَنْ لاَ أَدَعَ عَمَلَهُ يُجَاوِزُنِيْ إِلَى غَيْرِيْ إِنَّهُ كَانَ يَفْتَخِرُ بِهِ عَلَى النَّاسِ فِيْ مَجَالِسِهِمْ، قَالَ: وَتَصْعَدُ الْحَفَظَةُ بِعَمَلِ الْعَبْدِ يَبْتَهِجُ[1] نُوْرًا مِنْ صَدَقَة وَصِيَامٍ وَصَلاَة قَدْ أَعْجَبَ الْحَفَظَةُ فَيُجَاوِزُوْنَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الثَّالِثَة فَيَقُوْلُ لَهُمْ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِهَا: قِفُوْا وَاضْرِبُوْا بِهَا الْعَمَلَ وَجْهَ صَاحِبِهِ أَنَا مَلَكُ الْكِبْرِ أَمَرَنِيْ رَبِّيْ أَنْ لاَ أَدَعَ عَمَلَهُ يُجَاوِزُنِيْ إِلَى غَيْرِيْ إِنَّهُ كَانَ يَتَكَبَّرُ عَلَى النَّاسِ فِيْ مَجَالِسِهِمْ، قَالَ: وَتَصْعَدُ الْحَفَظَةُ بِعَمَلِ الْعَبْدِ يَزْهَرُ[2] كَمَا يَزْهَرُ الْكَوْكَبُ الدُّرِّيُّ[3] لَهُ دَوِيٌّ[4] مِنْ تَسْبِيْحٍ وَصَلاَة وَحَجٍّ وَعُمْرَة حَتَّى يُجَاوِزُوْا بِهِ السَّمَاءَ الرَّابِعَةَ فَيَقُوْلُ لَهُمُ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِهَا: قِفُوْا وَاضْرِبُوْا بِهَذَا الْعَمَلِ وَجْهَ صَاحِبِهِ اضْرِبُوْا بِهِ ظَهْرَهُ وَبَطْنَهُ أَنَا صَاحِبُ الْعُجْبِ أَمَرَنِيْ رَبِّيْ أَنْ لاَ أَدَعَ عَمَلَهُ يُجَاوِزُنِيْ إِلَى غَيْرِيْ إِنَّهُ كَانَ إِذَا عَمِلَ عَمَلاً أَدْخَلَ الْعُجْبَ فِيْ عَمَلِهِ قَالَ: وَتَصْعَدُ الْحَفَظَةُ بِعَمَلِ الْعَبْدِ حَتَّى يُجَاوِزُوْا بِهِ السَّمَاءَ الْخَامِسَةَ كَأَنَّهُ الْعَرُوْسُ الْمَزْفُوْفَةُ إِلَى أَهْلِهَا فَيَقُوْلُ لَهُمُ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِهَا: قِفُوْا وَاضْرِبُوْا بِهَذَا الْعَمَلِ وَجْهَ صَاحِبِهِ وَاحْمِلُوْهُ عَلَى عَاتِقِهِ أَنَا مَلَكُ الْحَسَدِ إِنَّهُ كَانَ يَحْسُدُ النَّاسَ مَنْ يَّتَعَلَّمُ وَيَعْمَلُ بِمِثْلِ عَمَلِهِ وَكُلُّ مَنْ كَانَ يَأْخُذُ فَضْلاً مِنَ الْعِبَادَةِ يَحْسُدُهُمْ وَيَقَعُ فِيْهِمْ أَمَرَنِيْ رَبِّيْ أَنْ لاَ أَدَعَ عَمَلَهُ يُجَاوِزُنِيْ إِلَى غَيْرِي قَالَ: وَتَصْعَدُ**

---

(١) البهجة: حسن اللون وظهور السرور. (التعاريف)

(٢) أي يضيء. (اتحاف)

(٣) الثاقب المضيء نسب إلى الدر لبياضه. (مختار الصحاح)

(٤) الدَّوِيُّ بالفتح المحبرة والجمع دَوًى مثل نواة ونوى، ودَوِيٌّ جمع الجمع. (مختار الصحاح)

www.dawateislami.net

الْحَفَظَةُ بِعَمَلِ الْعَبْدِ مِنْ صَلاَةٍ وَزَكَاةٍ وَحَجٍّ وَعُمْرَةٍ وَصِيَامٍ فَيُجَاوِزُوْنَ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ السَّادِسَةِ فَيَقُوْلُ لَهُمْ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِهَا: قِفُوْا وَاضْرِبُوا بِهَذَا الْعَمَلِ وَجْهَ صَاحِبِهِ إِنَّهُ كَانَ لاَ يَرْحَمُ إِنْسَاناً قَطُّ مِنْ عِبَادِ اللهِ أَصَابَهُ بَلاَءٌ أَوْ ضُرٌّ أَضَرَّ بِهِ بَلْ كَانَ يَشْمَتُ بِهِ، أَنَا مَلَكُ الرَّحْمَةِ أَمَرَنِيْ رَبِّيْ أَنْ لاَ أَدَعَ عَمَلَهُ يُجَاوِزُنِيْ إِلَى غَيْرِيْ قَالَ: وَتَصْعَدُ الْحَفَظَةُ بِعَمَلِ الْعَبْدِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ مِنْ صَوْمٍ وَصَلاَةٍ وَنَفَقَةٍ وَزَكَاةٍ وَاجْتِهَادٍ وَوَرَعٍ لَهُ دَوِيٌّ كَدَوِيِّ الرَّعْدِ وَضَوْءٌ كَضَوْءِ الشَّمْسِ مَعَهُ ثَلاَثَةُ آلاَفِ مَلَكٍ فَيُجَاوِزُوْنَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ فَيَقُوْلُ لَهُمْ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِهَا: قِفُوْا وَاضْرِبُوْا بِهَذَا الْعَمَلِ وَجْهَ صَاحِبِهِ اضْرِبُوْا بِهِ جَوَارِحَهُ اقْفِلُوْا بِهِ عَلَى قَلْبِهِ إِنِّيْ أَحْجُبُ عَنْ رَبِّيْ كُلَّ عَمَلٍ لَمْ يُرَدْ بِهِ وَجْهُ رَبِّيْ إِنَّهُ أَرَادَ بِعَمَلِهِ غَيْرَ اللهِ تَعَالَى إِنَّهُ أَرَادَ رِفْعَةً عِنْدَ الْفُقَهَاءِ وَذِكْراً عِنْدَ الْعُلَمَاءِ وَصِيْتاً فِي الْمَدَائِنِ أَمَرَنِيْ رَبِّيْ أَنْ لاَ أَدَعَ عَمَلَهُ يُجَاوِزُنِيْ إِلَى غَيْرِيْ، وَكُلُّ عَمَلٍ لَمْ يَكُنْ لِلّهِ خَالِصاً فَهُوَ رِيَاءٌ وَلاَ يَقْبَلُ اللهُ عَمَلَ الْمُرَائِيْ قَالَ: وَتَصْعَدُ الْحَفَظَةُ بِعَمَلِ الْعَبْدِ مِنْ صَلاَةٍ وَزَكَاةٍ وصِيَامٍ وَحَجٍّ وَعُمْرَةٍ وَخُلُقٍ حَسَنٍ وَصَمْتٍ وَذِكْرٍ لِلّهِ تَعَالَى وَتُشَيِّعُهُ مَلاَئِكَةُ السَّمَوَاتِ حَتَّى يَقْطَعُوْا بِهِ الْحُجُبَ كُلَّهَا إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَيَقِفُوْنَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَيَشْهَدُوْنَ لَهُ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ الْمُخْلِصِ لِلّهِ قَالَ: فَيَقُوْلُ اللهُ لَهُمْ أَنْتُمُ الْحَفَظَةُ عَلَى عَمَلِ عَبْدِيْ وَأَنَا الرَّقِيْبُ عَلَى نَفْسِهِ إِنَّهُ لَمْ يُرِدْنِيْ بِهَذَا الْعَمَلِ وَأَرَادَ بِهِ غَيْرِيْ فَعَلَيْهِ لَعْنَتِيْ فَتَقُوْلُ الْمَلاَئِكَةُ كُلُّهُمْ: عَلَيْهِ لَعْنَتُكَ وَلَعْنَتُنَا وَتَقُوْلُ السَّمَوَاتُ كُلُّهَا: عَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَلَعْنَتُنَا وَتَلْعَنُهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيْهِنَّ)) قال معاذ: قلت يا رسول الله أنت رسول الله وأنا معاذ، قال: ((اقْتَدِ بِيْ وَإِنْ كَانَ فِيْ عَمَلِكَ نَقْصٌ يَا مُعَاذُ حَافِظْ عَلَى لِسَانِكَ مِنَ الْوَقِيْعَةِ فِيْ إِخْوَانِكَ مِنْ حَمَلَةِ الْقُرْآنِ وَاحْمِلْ ذُنُوْبَكَ عَلَيْكَ وَلاَ تَحْمِلْهَا عَلَيْهِمْ وَلاَ تُزَكِّ نَفْسَكَ بِذَمِّهِمْ وَلاَ تَرْفَعْ نَفْسَكَ عَلَيْهِمْ وَلاَ تُدْخِلْ عَمَلَ الدُّنْيَا فِيْ عَمَلِ الآخِرَةِ وَلاَ تَتَكَبَّرْ فِيْ مَجْلِسِكَ لِكَيْ يَحْذَرَ النَّاسُ مِنْ سُوْءِ خُلُقِكَ وَلاَ تُنَاجِ رَجُلاً وَعِنْدَكَ آخَرُ وَلاَ تَتَعَظَّمْ عَلَى النَّاسِ فَيَنْقَطِعَ عَنْكَ خَيْرُ الدُّنْيَا وَلاَ تُمَزِّقِ النَّاسَ فَتُمَزَّقَكَ كِلاَبُ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي النَّارِ قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَّالنّٰشِطٰتِ نَشْطًا﴾ [النازعات:٢] أَتَدْرِيْ مَنْ هُنَّ يَا مُعَاذُ؟)) قلت : ما هن بأبي أنت وأمي يا رسول الله؟ قال: ((كِلاَبٌ فِي النَّارِ تَنْشِطُ اللَّحْمَ وَالْعَظْمَ)) قلت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله فمن يطيق هذه الخصال؟ ومن ينجو منها ؟ قال :((يَا مُعَاذُ إِنَّهُ لَيَسِيْرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللهُ عَلَيْهِ))[1] قال: فما رأيت أكثر تلاوة للقرآن من معاذ للحذر مما في هذا الحديث.

---

(١) ...الترغيب والترهيب، المقدمة، الترهيب من الرياء...الخ، الحديث: ٥٩، ١/ ٤٨-٥١، فيه: وبالجلية فآثار الوضع ظاهرة عليه.

www.dawateislami.net

وأما الآثار: فيروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه رأى رجلاً يطأطئ[1] رقبته، فقال: يا صاحب الرقبة! ارفع رقبتك ليس الخشوع في الرقاب إنما الخشوع في القلوب. ورأى أبو أمامة الباهلي رجلاً في المسجد يبكي في سجوده فقال: أنت أنت لو كان هذا في بيتك؟. وقال علي كرم الله وجهه: للمرائي ثلاث علامات: يكسل إذا كان وحده، وينشط إذا كان في الناس، ويزيد في العمل إذا أثني عليه وينقص إذا ذم. وقال رجل لعبادة بن الصامت أقاتل بسيفي في سبيل الله أريد به وجه الله تعالى ومحمدة الناس، قال لا شيء لك فسأله ثلاث مرات كل ذلك يقول: لا شيء لك ثم قال في الثالثة: إن الله يقول أنا أغنى الأغنياء عن الشرك، الحديث.

وسأل رجلٌ سعيدَ بن المسيب فقال: إن أحدنا يصطنع المعروف يحب أن يحمد ويؤجر فقال له: أتحب أن تمقت؟ قال: لا، قال: فإذا عملت لله عملاً فأخلصه. وقال الضحاك: لا يقولن أحدكم هذا لوجه الله ولوجهك، ولا يقولن هذا لله وللرحم، فإن الله تعالى لا شريك له. وضرب عمر رجلاً بالدرة ثم قال له: اقتص مني فقال: لا بل أدعها لله ولك، فقال له عمر: ما صنعت شيئاً إما أن تدعها لي فأعرف ذلك أو تدعها لله وحده، فقال: ودعتها لله وحده فقال: فنعم إذن. وقال الحسن: لقد صحبت أقواماً إن كان أحدهم لتعرض له الحكمة لو نطق بها لنفعته ونفعت أصحابه وما يمنعه منها إلا مخافة الشهرة وإن كان أحدهم ليمر فيرى الأذى في الطريق فما يمنعه أن ينحيه إلا مخافة الشهرة. ويقال: إن المرائي ينادي يوم القيامة بأربعة أسماء يا مرائي يا غادر يا خاسر يا فاجر اذهب فخذ أجرك ممن عملت له فلا أجر لك عندنا.

وقال الفضيل بن عياض: كانوا يراءون بما يعملون وصاروا اليوم يراءون بما لا يعملون. وقال عكرمة: إن الله يعطي العبد على نيته ما لا يعطيه على عمله لأن النية لا رياء فيها. وقال الحسن رضي الله عنه: المرائي يريد أن يغلب قدر الله تعالى وهو رجل سوء يريد أن يقول الناس هو رجل صالح وكيف يقولون وقد حل من ربه محل الأرذياء فلا بد لقلوب المؤمنين أن تعرفه. وقال قتادة: إذا راءى العبد يقول الله تعالى انظروا إلى عبدي يستهزئ بي. وقال مالك بن دينار: القراء ثلاثة: قراء الرحمن، وقراء الدنيا، وقراء الملوك، وأن محمد بن واسع من قراء الرحمن. وقال الفضل: من أراد أن ينظر إلى مراء فلينظر إليّ.

وقال محمد بن المبارك الصوري: أظهر السمت بالليل فإنه أشرف من سمتك بالنهار لأن السمت بالنهار للمخلوقين وسمت الليل لرب العالمين. وقال أبو سليمان: التوقي عن العمل أشد من

---

(١) أي يخفض. (القاموس المحيط)

www.dawateislami.net

العمل. وقال ابن المبارك: إن كان الرجل ليطوف بالبيت وهو بخراسان فقيل له وكيف ذاك؟ قال: يحب أن يذكر أنه مجاور بمكة وقال إبراهيم بن أدهم: ما صدق الله من أراد أن يشتهر.

بيان حقيقة الرياء وما يراءى به:

اعلم أن الرياء مشتق من الرؤية، والسمعة مشتقة من السماع. وإنما الرياء أصله طلب المنزلة في قلوب الناس بإيرائهم خصال الخير إلا أن الجاه والمنزلة تطلب في القلب بأعمال سوى العبادات وتطلب بالعبادات، واسم الرياء مخصوص بحكم العادة بطلب المنزلة في القلوب بالعبادات وإظهارها، فحد الرياء: هو إرادة العباد بطاعة الله فالمرائي هو العابد والمراءى هو الناس المطلوب رؤيتهم بطلب المنزلة في قلوبهم والمراءى به هو الخصال التي قصد المرائي إظهارها. والرياء هو قصده إظهار ذلك والمراءى به كثير وتجمعه خمسة أقسام وهي مجامع ما يتزين به العبد للناس وهو: البدن، والزي، والقول، والعمل، والأتباع، والأشياء الخارجة. وكذلك أهل الدنيا يراءون بهذه الأسباب الخمسة إلا أن طلب الجاه وقصد الرياء بأعمال ليست من جملة الطاعات أهون من الرياء بالطاعات.

القسم الأول: الرياء في الدين بالبدن:

وذلك بإظهار النُحُوْل[1] والصُفار ليوهم بذلك شدة الاجتهاد وعظم الحزن على أمر الدين وغلبة خوف الآخرة، وليدل بالنحول على قلة الأكل وبالصفار على سهر الليل وكثرة الاجتهاد وعظم الحزن على الدين، وكذلك يرائي بتشعيث الشعر ليدل به على استغراق الهم بالدين وعدم التفرغ لتسريح الشعر. وهذه الأسباب مهما ظهرت استدل الناس بها على هذه الأمور فارتاحت النفس لمعرفتهم فلذلك تدعوه النفس إلى إظهارها لنيل تلك الراحة ويقرب من هذا خفض الصوت وإغارة العينين وذُبُول الشفتين ليستدل بذلك على أنه مواظب على الصوم. وأن وقار الشرع هو الذي خفض من صوته أو ضعف الجوع هو الذي ضعف من قوته، وعن هذا قال المسيح عليه السلام: إذا صام أحدكم فليدهن رأسه ويرجل شعره ويكحل عينيه. وكذلك روي عن أبي هريرة، وذلك كله لما يخاف عليه من نزغ الشيطان بالرياء ولذلك قال ابن مسعود: أصبحوا صياماً مدهنين فهذه مرآة أهل الدين بالبدن فأمّا أهل الدنيا فيراءون بإظهار السمن وصفاء اللون واعتدال القامة وحسن الوجه ونظافة البدن وقوة الأعضاء وتناسبها.

الثاني: الرياء بالهيئة والزيِّ:

أما الهيئة فبتشعيث شعر الرأس وحلق الشارب وإطراق الرأس في المشي و الهدء في الحركة وإبقاء أثر السجود على الوجه وغلظ الثياب ولبس الصوف وتشميرها إلى قريب من الساق وتقصير

---

(١) **النحول**: الخفة في البدن. (تاج العروس)

www.dawateislami.net

الأكمام وترك تنظيف الثوب وتركه مخرقاً، كل ذلك يراائي به ليظهر من نفسه أنه متبع للسنة فيه ومقتد فيه بعباد الله الصالحين. ومن ذلك لبس المرقعة[1] والصلاة على السجادة ولبس الثياب الزرق تشبهاً بالصوفية مع الإفلاس من حقائق التصوف في الباطن، ومنه التقنع بالإزار فوق العمامة وإسبال الرداء على العينين ليرى به أنه قد انتهى تقشفه[2] إلى الحذر من غبار الطريق ولتنصرف إليه الأعين بسبب تميزه بتلك العلامة، ومنه الدراعة والطَّيْلَسَان[3] يلبسه من هو خال عن العلم ليوهم أنه من أهل العلم.

والمراءون بالزي[4] على طبقات: فمنهم من يطلب المنزلة عند أهل الصلاح بإظهار الزهد فيلبس الثياب المخرقة الوسخة القصيرة الغليظة ليراائي بغلظها ووسخها وقصرها وتخرقها أنه غير مكترث بالدنيا ولو كلف أن يلبس ثوباً وسطاً نظيفاً مما كان السلف يلبسه لكان عنده بمنزلة الذبح، وذلك لخوفه أن يقول الناس قد بدا له من الزهد ورجع عن تلك الطريقة ورغب في الدنيا. وطبقة أخرى يطلبون القبول عند أهل الصلاح وعند أهل الدنيا من الملوك والوزراء والتجار ولو لبسوا الثياب الفاخرة ردهم القراء، ولو لبسوا الثياب المخرقة البذلة ازدرتهم أعين الملوك والأغنياء، فهم يريدون الجمع بين قبول أهل الدين والدنيا فلذلك يطلبون الأصواف الدقيقة والأكسية الرقيقة والمرقعات المصبوغة والفُوَط[5] الرفيعة فيلبسونها، ولعل قيمة ثوب أحدهم قيمة ثوب أحد الأغنياء، ولونه وهيأته لون ثياب الصلحاء، فيلتمسون القبول عند الفريقين وهؤلآء إن كلفوا لبس ثوب خَشِن أو وسخ لكان عندهم كالذبح خوفاً من السقوط من أعين الملوك والأغنياء، ولو كلفوا لبس الديبقي[6] والكَتَّان الدقيق الأبيض والمقَصَّب المعلم[7] وإن كانت قيمته دون قيمة ثيابهم لعظم ذلك عليهم خوفاً من أن يقول أهل الصلاح قد رغبوا في زي أهل الدنيا. وكل طبقة منهم رأى منزلته في زي مخصوص فيثقل عليه الانتقال إلى ما دونه أو إلى ما فوقه وإن كان مباحا خيفة من المذمة.

---

(١) **المرقعة**: وهي ثوب يقع قطعاً ثم يرقع رقعاً ثم يخيط بالصوف ويسمّى أيضاً بالخرقة وهي من لبس الصوفية. (اتحاف)

(٢) المتقشف الذي لا يتعاهد النظافة، ثم قيل للمتزهد الذي يقنع بالمرقع من الثياب والوسخ متقشف من القشف وهو شدة العيش وخشونته. (المغرب في ترتيب المعرب)

(٣) **الطَّيْلَسَان**: هو كساء أسود مربع. (اتحاف)

(٤) **الزِّيُّ**. هي اللباس والهيئة. (لسان العرب)

(٥) **الفوط**: هي غلاظ قصار تكون مآزر أو هي مآزر مخططة يشتريها الجمالون والأعراب والخَدَم وسِفَل الناس بالكوفة فيأتزرون بها. (تاج العروس)

(٦) منسوب إلى دبيق وهي من قرى دمياط قد خرجت منذ زمان كان يعمل فيها هذه الثياب المنسوجة بالحرير. (اتحاف)

(٧) **القصب**: ثياب تُتّخذ من كَتان رقاقٌ ناعمةٌ واحدها «قَصَبيّ» مثل «عَرَبِيّ». (لسان العرب)

www.dawateislami.net

وأما أهل الدنيا : فمراآتهم بالثياب النفيسة والمراكب الرفيعة وأنواع التوسع والتجمل في الملبس والمسكن وأثاث البيت وفره الخيول وبالثياب المصبغة والطيالسة النفيسة، وذلك ظاهر بين الناس فإنهم يلبسون في بيوتهم الثياب الخشنة ويشتد عليهم لو برزوا للناس على تلك الهيئة ما لم يبالغوا في الزينة.

الثالث: الرياء بالقول:

ورياء أهل الدين بالوعظ والتذكير والنطق بالحكمة وحفظ الأخبار والآثار؛ لأجل الاستعمال في المحاورة وإظهاراً لغزارة العلم ودلالة على شدة العناية بأحوال السلف الصالحين، وتحريك الشفتين بالذكر في محضر الناس، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بمشهد الخلق، وإظهار الغضب للمنكرات وإظهار الأسف على مقارفة الناس للمعاصي، وتضعيف الصوت في الكلام وترقيق الصوت بقراءة القرآن ليدل بذلك على الخوف والحزن، وادعاء حفظ الحديث ولقاء الشيوخ والرد على من يروي الحديث ببيان خلل في لفظه ليعرف أنه بصير بالأحاديث والمبادرة إلى أن الحديث صحيح أو غير صحيح لإظهار الفضل فيه، والمجادلة على قصد إفحام الخصم ليظهر للناس قوته في علم الدين. والرياء بالقول كثير وأنواعه لا تنحصر.

وأما أهل الدنيا فمراآتهم بالقول بحفظ الأشعار والأمثال والتفاصح في العبارات، وحفظ النحو الغريب للأغراب على أهل الفضل وإظهار التودد إلى الناس لاستمالة القلوب.

الرابع: الرياء بالعمل:

كمراآة المصلي بطول القيام ومد الظهر وطول السجود والركوع وإطراق الرأس وترك الالتفات وإظهار الهدء والسكون وتسوية القدمين واليدين وكذلك بالصوم والغزو والحج وبالصدقة وبإطعام الطعام وبالإنحبات[1] في المشي عند اللقاء كإرخاء الجُفُوْن[2] وتنكيس الرأس[3] والوقار في الكلام، حتى إن المرائي قد يسرع في المشي إلى حاجته فإذا اطلع عليه أحد من أهل الدين رجع إلى الوقار وإطراق الرأس[4] خوفاً من أن ينسبه إلى العجلة وقلة الوقار، فإن غاب الرجل عاد إلى عجلته فإذا رآه عاد إلى خشوعه ولم يحضره ذكر الله حتى يكون يجدد الخشوع له، بل هو لاطلاع إنسان عليه يخشى أن لا يعتقد فيه أنه من العباد والصلحاء، ومنهم من إذا سمع هذا استحيا من أن تخالف مِشيته في الخلوة مشيته

---

(١) أى بالخشوع والتواضع. (لسان العرب)

(٢) **الجفون:** جَفْنُ الْعَيْنِ غِطَاؤُهَا مِنْ أَعْلَاهَا وَأَسْفَلِهَا وَهُوَ مُذَكَّرٌ وَجَفْنُ السَّيْفِ غِلَافُهُ وَالْجَمْعُ جُفُونٌ وَقَدْ يُجْمَعُ عَلَى أَجْفَانٍ. (المصباح المنير)

(٣) أي المطأطئ رأسه. (تاج العروس)

(٤) أي خفضه وارخى عينيه ينظر إلى الارض. (نجعة الرائد)

www.dawateislami.net

بمرأى من الناس فيكلف نفسه المشية الحسنة في الخلوة حتى إذا رآه الناس لم يفتقر إلى التغيير ويظن أنه يتخلص به عن الرياء وقد تضاعف به رياء، فإنه صار في خلوته أيضاً مرائياً فإنه إنّما يحسن مِشْيته في الخلوة ليكون كذلك في الملأ لا لخوف من الله وحياء منه.

وأما أهل الدنيا فمراآتهم بالتبختر[١] والاختيال وتحريك اليدين وتقريب الخطا والأخذ بأطراف الذيل[٢] وإدارة العطفين[٣] ليدلوا بذلك على الجاه والحشمة.

الخامس: المُراءاة بالأصحاب والزائرين والمخالطين:

كالذي يتكلف أن يستزير عالماً من العلماء ليقال: إن فلاناً قد زار فلاناً، أو عابداً من العباد ليقال: إن أهل الدين يتبركون بزيارته ويترددون إليه أو ملكاً من الملوك أو عاملاً من عمال السلطان ليقال: إنهم يتبركون به لعظم رتبته في الدين وكالذي يكثر ذكر الشيوخ ليرى أنه لقي شيوخاً كثيرة واستفاد منهم فيباهي بشيوخه، ومباهاته ومراءاته تترشح[٤] منه عند مخاصمته، فيقول لغيره: من لقيت من الشيوخ وأنا قد لقيت فلاناً وفلاناً ودرت البلاد وخدمت الشيوخ وما يجري مجراه.

فهذه مجامع ما يرائي به المراءون وكلهم يطلبون بذلك الجاه والمنزلة في قلوب العباد.

ومنهم من يقنع بحسن الاعتقادات فيه فكم من راهب انزوى[٥] إلى ديره[٦] سنين كثيرة وكم من عابد اعتزل إلى قلة جبل مدة مديدة وإنما خبأته[٧] من حيث علمه بقيام جاهه في قلوب الخلق.

ولو عرف أنهم نسبوه إلى جريمة في ديره أو صومعته لتشوش قلبه ولم يقنع بعلم الله ببراءة ساحته، بل يشتد لذلك غمه ويسعى بكل حيلة في إزالة ذلك من قلوبهم مع أنه قد قطع طمعه من أموالهم ولكنه يحب مجرد الجاه فإنه لذيذ كما ذكرناه في أسبابه فإنه نوع قدرة وكمال في الحال وإن كان سريع الزوال لا يغتر به إلا الجهال ولكن أكثر الناس جهال .

ومن المرائين من لا يقنع بقيام منزلته بحبل يلتمس مع ذلك إطلاق اللسان بالثناء والحمد .

---

(١) **التبختر**: مِشية فيها خُيَلاء. (الاشتقاق)

(٢) **الذيل**: آخر كل شيء، والذيل من الإزار والثوب:الطرف الذي يلي الأرض. (تاج العروس)

(٣) **العِطف**: المَنْكِب ويقال: لرجل يتمايل في مشيته من الخيلاء والتبختر، أي المتكبر. (لسان العرب)

(٤) أي تَبْدُو وتَقْوَى. [علمية]

(٥) أي انقبض وانضم. (لسان العرب)

(٦) أي صومعته. (أساس البلاغة)

(٧) أي ستره. (فتح الباري)

www.dawateislami.net

ومنهم من يريد انتشار الصيت في البلاد لتكثر الرحلة إليه. ومنهم من يريد الاشتهار عند الملوك لتقبل شفاعته وتنجز الحوائج على يده فيقوم له بذلك جاه عند العامة. ومنهم من يقصد التوصل بذلك إلى جمع حطام وكسب مال ولو من الأوقاف وأموال اليتامى وغير ذلك من الحرام وهؤلاء شر طبقات المرائين الذين يراءون بالأسباب التي ذكرناها فهذه حقيقة الرياء وما به يقع الرياء.

فإن قلت: فالرياء حرام أو مكروه أو مباح أو فيه تفصيل؟

فأقول: فيه تفصيل فإن الرياء هو طلب الجاه وهو إما أن يكون بالعبادات أو بغير العبادات فإن كان بغير العبادات فهو كطلب المال فلا يحرم من حيث إنه طلب منزلة في قلوب العباد ولكن كما يمكن كسب المال بتلبيسات وأسباب محظورات فكذلك الجاه وكما أن كسب قليل من المال وهو ما يحتاج إليه الإنسان محمود فكسب قليل من الجاه وهو ما يسلم به عن الآفات أيضا محمود وهو الذي طلبه يوسف عليه السلام حيث قال: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥] وكما أن المال فيه سم ناقع ودرياق نافع فكذلك الجاه وكما أن كثير المال يلهي ويطغي وينسي ذكر الله والدار الآخرة فكذلك كثير الجاه بل أشد، وفتنة الجاه أعظم من فتنة المال، وكما أنا لا نقول تملك المال الكثير حرام فلا نقول أيضا تملك القلوب الكثيرة حرام إلا إذا حملته كثرة المال وكثرة الجاه على مباشرة ما لا يجوز نعم انصراف الهم إلى سعة الجاه مبدأ الشرور كانصراف الهمّ إلى كثرة المال، ولا يقدر محب الجاه والمال على ترك معاصي القلب واللسان وغيرها.

وأما سعة الجاه من غير حرص منك على طلبه ومن غير اغتمام بزواله إن زال فلا ضرر فيه فلا جاه أوسع من جاه رسول الله صلى الله عليه وسلم وجاه الخلفاء الراشدين ومن بعدهم من علماء الدين ولكن انصراف الهم إلى طلب الجاه نقصان في الدين ولا يوصف بالتحريم.

فعلى هذا نقول: تحسين الثوب الذي يلبسه الإنسان عند الخروج إلى الناس مرآة وهو ليس بحرام لأنه ليس رياء بالعبادة بل بالدنيا وقس على هذا كل ما تجمل للناس وتزين لهم، والدليل عليه ما روي عن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد أن يخرج يوماً إلى الصحابة فكان ينظر في حب الماء[1] ويسوي عمامته وشعره فقالت: أو تفعل ذلك يا رسول الله ؟ قال: ((**نَعَمْ، إِنَّ اللهَ تَعَالَى يُحِبُّ مِنَ الْعَبْدِ أَنْ يَتَزَيَّنَ لإِخْوَانِهِ إِذَا خَرَجَ إِلَيْهِمْ**))[2] نعم، هذا كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم عبادة لأنه كان مأموراً بدعوة الخلق وترغيبهم في الاتباع واستمالة قلوبهم ولو سقط من

---

(١) أي الدن الذي فيه الماء. (اتحاف)

(٢) ...قال العراقي، اخرجه ابن عدي وقال: حديث منكر.

www.dawateislami.net

أعينهم لم يرغبوا في اتباعه فكان يجب عليه أن يظهر لهم محاسن أحواله لئلا تزدريه[1] أعينهم فإن أعين عوام الخلق تمتد إلى الظواهر دون السرائر فكان ذلك قصد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن لو قصد قاصد به أن يحسن نفسه في أعينهم حذراً من ذمهم ولومهم واسترواحاً إلى توقيرهم واحترامهم كان قد قصد أمراً مباحاً إذ للإنسان أن يحترز من ألم المذمة ويطلب راحة الأنس بالإخوان ومهما استثقلوه واستقذروه لم يأنس بهم.

فإذن المراآة بما ليس من العبادات قد تكون مباحة وقد تكون طاعة وقد تكون مذمومة وذلك بحسب الغرض المطلوب بها ولذلك نقول: الرجل إذا أنفق ماله على جماعة من الأغنياء لا في معرض العبادة والصدقة ولكن ليعتقد الناس أنه سخي فهذا مراآة وليس بحرام وكذلك أمثاله، أما العبادات كالصدقة والصلاة والصيام والغزو والحج فللمرائي فيه حالتان: إحداهما: أن لا يكون له قصد إلا الرياء المحض دون الأجر وهذا يبطل عبادته لأن الأعمال بالنيات وهذا ليس بقصد العبادة ثم لا يقتصر على إحباط عبادته حتى نقول: صار كما كان قبل العبادة بل يعصي بذلك ويأثم كما دلت عليه الأخبار والآيات والمعنى فيه أمران.

أحدهما: يتعلق بالعباد وهو التلبيس والمكر لأنه خيل إليهم أنه مخلص مطيع لله وأنه من أهل الدين وليس كذلك والتلبيس في أمر الدنيا حرام أيضاً حتى لو قضى دين جماعة وخيل للناس أنه متبرع عليهم ليعتقدوا سخاوته أثم به لما فيه من التلبيس وتملك القلوب بالخداع والمكر.

والثاني: يتعلق بالله وهو أنه مهما قصد بعبادة الله تعالى خلق الله فهو مستهزئ بالله ولذلك قال قتادة: إذا راءى العبد قال الله لملائكته: انظروا إليه كيف يستهزئ بي. ومثاله أن يتمثل بين يدي ملك من الملوك طول النهار كما جرت عادة الخدم وإنما وقوفه لملاحظة جارية من جواري الملك أو غلام من غلمانه فإن هذا استهزاء بالملك إذ لم يقصد التقرب إلى الملك بخدمته بل قصد بذلك عبداً من عبيده فأيّ استحقار يزيد على أن يقصد العبد بطاعة الله تعالى مراآة عبد ضعيف لا يملك له ضراً ولا نفعاً! وهل ذلك إلا لأنه يظن أن ذلك العبد أقدر على تحصيل أغراضه من الله...؟ وأنه أولى بالتقرب إليه من الله...؟ إذ آثره على ملك الملوك فجعله مقصود عبادته وأيّ استهزاء يزيد على رفع العبد فوق المولى؟ فهذا من كبائر المهلكات ولهذا سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم الشرك الأصغر.

نعم بعض درجات الرياء أشدّ من بعض كما سيأتي بيانه في درجات الرياء إن شاء الله تعالى ولا يخلو شيء منه عن إثم غليظ أو خفيف بحسب ما به المراءاة ولو لم يكن في الرياء إلا أنه يسجد ويركع

---

(١) أي تحتقروه. (اتحاف)

www.dawateislami.net

لغير الله لكان فيه كفاية، فإنه وإن لم يقصد التقرب إلى الله فقد قصد غير الله، ولعَمري[1] لو عظم غير الله بالسجود لكفر كفراً جلياً إلا أن الرياء هو الكفر الخفي لأن المرائي عظم في قلبه الناس فاقتضت تلك العظمة أن يسجد ويركع فكان الناس هم المعظمون بالسجود من وجه ومهما زال قصد تعظيم الله بالسجود وبقي تعظيم الخلق كان ذلك قريباً من الشرك إلا أنه قصد تعظيم نفسه في قلب من عظم عنده بإظهاره من نفسه صورة التعظيم لله. فعن هذا كان شركاً خفياً لا شركاً جلياً، وذلك غاية الجهل ولا يقدم عليه إلا من خدعه الشيطان وأوهم عنده أن العباد يملكون من ضره ونفعه ورزقه وأجله ومصالح حاله ومآله أكثر مما يملكه الله تعالى فلذلك عدل بوجهه عن الله إليهم وأقبل بقلبه عليهم ليستميل بذلك قلوبهم ولو وكله الله تعالى إليهم في الدنيا والآخرة لكان ذلك أقل مكافأة له على صنيعه فإن العباد كلهم عاجزون عن أنفسهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً فكيف يملكون لغيرهم هذا في الدنيا؟ فكيف في يوم لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً بل تقول الأنبياء فيه نفسي نفسي، فكيف يستبدل الجاهل عن ثواب الآخرة ونيل القرب عند الله ما يرتقبه بطمعه الكاذب في الدنيا من الناس؟ فلا ينبغي أن نشك في أن المرائي بطاعة الله في سخط الله من حيث النقل والقياس جميعاً هذا إذا لم يقصد الأجر، فأما إذا قصد الأجر والحمد جميعاً في صدقته أو صلاته فهو الشرك الذي يناقض الإخلاص. وقد ذكرنا حكمه في كتاب الإخلاص. ويدل على ما نقلناه من الآثار قول سعيد بن المسيب وعبادة بن الصامت إنه لا أجر له فيه أصلاً.

بيان درجات الرياء:

اعلم أن بعض أبواب الرياء أشد وأغلظ من بعض واختلافه باختلاف أركانه وتفاوت الدرجات فيه وأركانه ثلاثة المراءى به والمراءى لأجله ونفس قصد الرياء.

الركن الأول: نفس قصد الرياء وذلك لا يخلو إمّا أن يكون مجرداً دون إرادة عبادة الله تعالى والثواب، وإما أن يكون مع إرادة الثواب فإن كان كذلك فلا يخلو إمّا أن تكون إرادة الثواب أقوى وأغلب أو أضعف أو مساوية لإرادة العبادة فتكون الدرجات أربعاً.

الأولى: وهي أغلظها أن لا يكون مراده الثواب أصلاً، كالذي يصلى بين أظهر الناس ولو انفرد لكان لا يصلي، بل ربما يصلي من غير طهارة مع الناس، فهذا جرد قصده إلى الرياء فهو الممقوت عند الله تعالى. وكذلك من يخرج الصدقة خوفاً من مذمة الناس وهو لا يقصد الثواب ولا خلا بنفسه لمّا أداها فهذه الدرجة العليا من الرياء .

---

(١) "لعَمري، وما عمري" قسم بحياته، وهو في هذا الاستعمال مفتوح العين. (توضيح المقاصد والمسالك)

www.dawateislami.net

الثانية: أن يكون له قصداً لثواب أيضاً ولكن قصداً ضعيفاً بحيث لو كان في الخلوة لكان لا يفعله ولا يحمله ذلك القصد على العمل ولو لم يكن قصد الثواب لكان الرياء يحمله على العمل فهذا قريب مما قبله وما فيه من شائبة قصد ثواب لا يستقل بحمله على العمل لا ينفي عنه المقت والإثم.

الثالثة: أن يكون له قصد الثواب وقصد الرياء متساويين بحيث لو كان كل واحد منهما خالياً عن الآخر لم يبعثه على العمل فلما اجتمعا انبعثت الرغبة، أو كان كل واحد منهما لو انفرد لاستقل بحمله على العمل فهذا قد أفسد مثل ما أصلح فنرجو أن يسلم رأسا برأس لا له ولا عليه، أو يكون له من الثواب مثل ما عليه من العقاب وظواهر الأخبار تدل على أنه لا يسلم وقد تكلّمنا عليه في كتاب الإخلاص .

الرابعة: أن يكون إطلاع الناس مرجحاً ومقوياً لنشاطه ولو لم يكن لكان لا يترك العبادة ولو كان قصد الرياء وحده لما أقدم عليه فالذي نظنه والعلم عند الله أنه لا يحبط أصل الثواب ولكنه ينقص منه أو يعاقب على مقدار قصد الرياء ويثاب على مقدار قصد الثواب وأما قوله صلى الله عليه وسلم: ((**يَقُوْلُ اللهُ تَعَالَى أَنَا أَغْنَى الأَغْنِيَاءِ عَنِ الشِّرْكِ**))[1] فهو محمول على ما إذا تساوى القصدان أو كان قصد الرياء أرجح.

الركن الثاني: المراءى به وهو الطاعات وذلك ينقسم إلى الرياء بأصول العبادات وإلى الرياء بأوصافها.

القسم الأول: وهو الأغلظ، الرياء بالأصول وهو على ثلاث درجات:

الأولى: الرياء بأصل الإيمان وهذا أغلظ أبواب الرياء وصاحبه مخلد في النار وهو الذي يظهر كلمتي الشهادة وباطنه مشحون بالتكذيب ولكنه يرائي بظاهر الإسلام وهو الذي ذكره الله تعالى في كتابه في مواضع شتى كقوله عز وجل: ﴿**إِذَا جَآءَكَ الْمُنٰفِقُوْنَ قَالُوْا نَشْهَدُ اِنَّكَ لَرَسُوْلُ اللّٰهِ وَ اللّٰهُ يَعْلَمُ اِنَّكَ لَرَسُوْلُهٗ وَ اللّٰهُ يَشْهَدُ اِنَّ الْمُنٰفِقِيْنَ لَكٰذِبُوْنَ**﴾ [المنافقون :١] أي في دلالتهم بقولهم على ضمائرهم وقال تعالى: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُّعْجِبُكَ قَوْلُهٗ فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَ يُشْهِدُ اللّٰهَ عَلٰى مَا فِيْ قَلْبِهٖ وَهُوَ اَلَدُّ الْخِصَامِ وَاِذَا تَوَلّٰى سَعٰى فِي الْاَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيْهَا**﴾ الآية [البقره :٢٠٤، ٢٠٥] وقال تعالى: ﴿**وَاِذَا لَقُوْكُمْ قَالُوْٓا اٰمَنَّا وَاِذَا خَلَوْا عَضُّوْا عَلَيْكُمُ الْاَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ**﴾ [آل عمران : ١١٩] وقال تعالى :﴿**يُرَآءُوْنَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُوْنَ اللّٰهَ اِلَّا قَلِيْلًا مُّذَبْذَبِيْنَ بَيْنَ ذٰلِكَ**﴾ [النساء : ١٤٢،١٤٣] والآيات فيهم كثيرة وكان النفاق يكثر في ابتداء الإسلام ممن يدخل في ظاهر الإسلام ابتداء لغرض وذلك مما يقل في زماننا ولكن يكثر نفاق من ينسل عن الدين باطناً فيجحد الجنة والنار والدار الآخرة ميلاً إلى قول الملحدة أو يعتقد على بساط الشرع والأحكام ميلاً إلى أهل الإباحة أو يعتقد

---

(١) ... صحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب من اشرك في عمله غير الله، الحديث: ٢٩٨٥، ص: ١٥٩٤ بتغير قليل.

www.dawateislami.net

كفراً أو بدعة وهو يظهر خلافه، فهؤلاء من المنافقين والمرائين المخلدين في النار وليس وراء هذا الرياء رياء وحال هؤلاء أشد حالاً من الكفار المجاهرين فإنهم جمعوا بين كفر الباطن ونفاق الظاهر.

الثانية: الرياء بأصول العبادات مع التصديق بأصل الدين، وهذا أيضاً عظيم عند الله ولكنه دون الأول بكثير. ومثاله: أن يكون مال الرجل في يد غيره فيأمره بإخراج الزكاة خوفاً من ذمه والله يعلم منه أنه لو كان في يده لما أخرجها، أو يدخل وقت الصلاة وهو في جمع وعادته ترك الصلاة في الخلوة، وكذلك يصوم رمضان وهو يشتهي خلوة من الخلق ليفطر، وكذلك يحضر الجمعة ولولا خوف المذمة لكان لا يحضرها أو يصل رحمه أو يبر والديه لا عن رغبة ولكن خوفاً من الناس، أو يغزو أو يحج كذلك فهذا مراء معه أصل الإيمان بالله يعتقد أنه لا معبود سواه ولو كلف أن يعبد غير الله أو يسجد لغيره لم يفعل ولكنه يترك العبادات للكسل وينشط عند إطلاع الناس، فتكون منزلته عند الخلق أحب إليه من منزلته عند الخالق، وخوفه من مذمة الناس أعظم من خوفه من عقاب الله، ورغبته في محمدتهم أشد مرغبته في ثواب الله وهذا غاية الجهل، وما أجدر صاحبه بالمقت وإن كان غير منسل عن أصل الإيمان من حيث الاعتقاد.

الثالثة: أن لا يرائي بالإيمان ولا بالفرائض ولكنه يرائي بالنوافل والسنن التي لو تركها لا يعصي ولكنه يكسل عنها في الخلوة لفتور رغبته في ثوابها ولإيثار لذة الكسل على ما يرجى من الثواب ثم يبعثه الرياء على فعلها وذلك كحضور الجماعة في الصلاة وعيادة المريض واتباع الجنازة وغسل الميت وكالتهجد بالليل وصيام يوم عرفة وعاشوراء ويوم الاثنين والخميس فقد يفعل المرائي جملة ذلك خوفاً من المذمة أو طلباً للمحمدة، ويعلم الله تعالى منه أنه لو خلا بنفسه لما زاد على أداء الفرائض فهذا أيضاً عظيم ولكنه دون ما قبله فإن الذي قبله آثر حمد الخلق على حمد الخالق وهذا أيضاً قد فعل ذلك واتقى ذم الخلق دون ذم الخالق فكان ذم الخلق أعظم عنده من عقاب الله وأمّا هذا فلم يفعل ذلك لأنه لم يخف عقاباً على ترك النافلة لو تركها وكأنه على شطر من الأول وعقابه نصف عقابه فهذا هو الرياء بأصول العبادات.

القسم الثاني: الرياء بأوصاف العبادات لا بأصولها وهو أيضاً على ثلاث درجات:

الأولى: أن يرائي بفعل ما في تركه نقصان العبادة كالذي غرضه أن يخفف الركوع والسجود ولا يطول القراءة فإذا رآه الناس أحسن الركوع والسجود وترك الالتفات وتمم القعود بين السجدتين. و قال ابن مسعود: من فعل ذلك فهو استهانة يستهين بها ربه عز وجل أي أنه ليس يبالي باطلاع الله عليه في الخلوة فإذا اطلع عليه آدمي أحسن الصلاة، ومن جلس بين يدي إنسان متربعاً أو متكئاً فدخل غلامه فاستوى وأحسن الجلسة كان ذلك منه تقديماً للغلام على السيد واستهانة بالسيد لا محالة، وهذا حال

www.dawateislami.net

المرائي بتحسين الصلاة في الملأ دون الخلوة وكذلك الذي يعتاد إخراج الزكاة من الدنانير الرديئة أو من الحب الرديء فإذا اطلع عليه غيره أخرجها من الجيد خوفاً من مذمته، وكذلك الصائم يصون صومه عن الغيبة والرفث لأجل الخلق لا إكمالاً لعبادة الصوم خوفاً من المذمة فهذا أيضاً من الرياء المحظور لأن فيه تقديماً للمخلوقين على الخالق ولكنه دون الرياء بأصول التطوعات.

فإن قال المرائي: إنما فعلت ذلك صيانة لألسنتهم عن الغيبة فإنهم إذا رأوا تخفيف الركوع والسجود وكثرة الالتفات أطلقوا اللسان بالذم والغيبة وإنما قصدت صيانتهم عن هذه المعصية فيقال له: هذه مكيدة للشيطان عندك وتلبيس وليس الأمر كذلك فإن ضررك من نقصان صلاتك وهي خدمة منك لمولاك أعظم من ضررك بغيبة غيرك فلو كان باعثك الدين لكان شفقتك على نفسك أكثر وما أنت في هذا إلا كمن يهدي وصيفة[1] إلى ملك لينال منه فضلاً وولاية يتقلدها، فيهديها إليه وهي عوراء[2] قبيحة مقطوعة الأطراف ولا يبالي به إذا كان الملك وحده، وإذا كان عنده بعض غلمانه امتنع خوفاً من مذمة غلمانه. وذلك محال بل من يراعي جانب غلام الملك ينبغي أن تكون مراقبته للملك أكثر.

نعم للمرائي فيه حالتان: إحداهما أن يطلب بذلك المنزلة والمحمدة عند الناس وذلك حرام قطعاً. والثانية: أن يقول ليس يحضرني الإخلاص في تحسين الركوع والسجود ولو خففت كانت صلاتي عند الله ناقصة وآذاني الناس بذمهم وغيبتهم، فأستفيد بتحسين الهيبة دفع مذمتهم ولا أرجو عليه ثواباً فهو خير من أن أترك تحسين الصلاة فيفوت الثواب وتحصل المذمة فهذا فيه أدنى نظر. والصحيح أن الواجب عليه أن يحسن ويخلص فإن لم تحضره النية فينبغي أن يستمر على عادته في الخلوة فليس له أن يدفع الذم بالمراءاة بطاعة الله فإن ذلك استهزاء كما سبق.

الدرجة الثانية: أن يرائي بفعل ما لا نقصان في تركه ولكن فعله في حكم التكملة والتتمة لعبادته، كالتطويل في الركوع والسجود، ومد القيام وتحسين الهيئة ورفع اليدين، والمبادرة إلى التكبيرة الأولى وتحسين الاعتدال، والزيادة في القراءة على السور المعتادة، وكذلك كثرة الخلوة في صوم رمضان وطول الصمت وكاختيار الأجود على الجيد في الزكاة وإعتاق الرقبة الغالية في الكفارة وكل ذلك مما لو خلا بنفسه لكان لا يقدم عليه.

---

(١) **الوصيفة**: أي الجارية بينة الوصافة والإيصاف والجمع الوصائف. (لسان العرب)

(٢) أي معيبة. (اتحاف)

www.dawateislami.net

الثالثة: أن يرائي بزيادات خارجة عن نفس النوافل أيضاً كحضوره الجماعة قبل القوم وقصده للصف الأول وتوجهه إلى يمين الإمام وما يجري مجراه وكل ذلك مما يعلم الله منه أنه لو خلا بنفسه لكان لا يبالي أين وقف ومتى يحرم بالصلاة.

فهذه درجات الرياء بالإضافة إلى ما يرائي به وبعضه أشد من بعض والكل مذموم.

الركن الثالث: المرائي لأجله فإن للمرائي مقصوداً لا محالة وإنما يرائي لإدراك مال أو جاه أو غرض من الأغراض لا محالة وله أيضاً ثلاث درجات.

الأولى: وهي أشدها وأعظمها أن يكون مقصوده التمكن من معصية الله كالذي يرائي بعباداته ويظهر التقوى والورع بكثرة النوافل والامتناع عن أكل الشبهات، وغرضه أن يعرف بالأمانة فيولى القضاء أو الأوقاف أو الوصايا أو مال الأيتام فيأخذها أو يسلم إليه تفرقة الزكاة أو الصدقات ليستأثر بما قدر عليه منها، أو يودع الودائع فيأخذها ويجحدها أو تسلم إليه الأموال التي تنفق في طريق الحج فيختزل[1] بعضها أو كلها، أو يتوصل بها إلى استتباع الحجيج[2] ويتوصل بقوتهم إلى مقاصده الفاسدة في المعاصي. وقد يظهر بعضهم زي التصوف وهيئة الخشوع وكلام الحكمة على سبيل الوعظ والتذكير وإنما قصده التحبب إلى امرأة أو غلام لأجل الفجور، وقد يحضرون مجالس العلم والتذكير وحَلَق القرآن يظهرون الرغبة في سماع العلم والقرآن وغرضهم ملاحظة النساء والصبيان، أو يخرج إلى الحج ومقصوده الظفر بمن في الرفقة من امرأة أو غلام. وهؤلاء أبغض المرائين إلى الله تعالى لأنهم جعلوا طاعة ربهم سلماً إلى معصيته واتخذوها آلة ومتجراً وبضاعة لهم في فسقهم، ويقرب من هؤلاء وإن كان دونهم من هو مقترف[3] جريمة اتهم بها وهو مصر عليها ويريد أن ينفي التهمة عن نفسه فيظهر التقوى لنفي التهمة كالذي جحد وديعة واتهمه الناس بها فيتصدق بالمال ليقال: إنه يتصدق بمال نفسه فكيف يستحل مال غيره وكذلك من ينسب إلى فجور بامرأة أو غلام فيدفع التهمة عن نفسه بالخشوع وإظهار التقوى .

الثانية: أن يكون غرضه نيل حظ مباح من حظوظ الدنيا من مال أو نكاح امرأة جميلة أو شريفة كالذي يظهر الحزن والبكاء ويشتغل بالوعظ والتذكير لتبذل له الأموال ويرغب في نكاحه النساء فيقصد إما امرأة بعينها لينكحها، أو امرأة شريفة على الجملة وكالذي يرغب في أن يتزوج بنت عالم

---

(١) أي يقتطع. (لسان العرب)

(٢) الحجيج والحُجّاج جمع حاجٍّ. (القاموس المحيط)

(٣) أي مرتكب. (قاموس المحدث)

www.dawateislami.net

عابد فيظهر له العلم والعبادة ليرغب في تزويجه ابنته، فهذا رياء محظور لأنه طلب بطاعة الله متاع الحياة الدنيا ولكنه دون الأول فإنه المطلوب بهذا مباح في نفسه.

الثالثة: أن لا يقصد نيل حظ وإدراك مال أو نكاح ولكن يظهر عبادته خوفاً من أن ينظر إليه بعين النقص ولا يعد من الخاصة والزهاد ويعتقد أنه من جملة العامة كالذي يمشي مستعجلاً فيطلع عليه الناس فيحسن المشي ويترك العجلة كيلا يقال: إنه من أهل اللهو والسهو لا من أهل الوقار، وكذلك إن سبق إلى الضحك أو بدا منه المزاح فيخاف أن ينظر إليه بعين الاحتقار فيتبع ذلك بالاستغفار، وتنفس الصعداء وإظهار الحزن، ويقول: ما أعظم غفلة الآدمي عن نفسه، والله يعلم منه أنه لو كان في خلوة لما كان يثقل عليه ذلك، وإنما يخاف أن ينظر إليه بعين الاحتقار لا بعين التوقير، وكالذي يرى جماعة يصلون التراويح أو يتهجدون أو يصومون الخميس والاثنين أو يتصدقون فيوافقهم خيفة أن ينسب إلى الكسل ويلحق بالعوام ولو خلا بنفسه لكان لا يفعل شيئاً من ذلك، وكالذي يعطش يوم عرفة أو عاشوراء أو في الأشهر الحرم فلا يشرب خوفاً من أن يعلم الناس أنه غير صائم فإذا ظنوا به الصوم امتنع عن الأكل لأجله أو يدعى إلى طعام فيمتنع ليظن أنه صائم، وقد لا يصرح بأني صائم ولكن يقول: لي عذر، وهو جمع بين خبيثين فإنه يرى أنه صائم ثم يرى أنه مخلص ليس بمراء وأنه يحترز من أن يذكر عبادته للناس فيكون مرائياً فيريد أن يقال: إنه ساتر لعبادته ثم إن اضطر إلى شرب لم يصبر عن أن يذكر لنفسه فيه عذراً تصريحاً أو تعريضاً بأن يتعلل بمرض يقتضي فرط العطش ويمنع من الصوم أو يقول: أفطرت تطييباً لقلب فلان ثم قد لا يذكر ذلك متصلاً بشربه كي لا يظن به أنه يعتذر رياء ولكنه يصبر ثم يذكر عذره في معرض حكاية عرضًا مثل أن يقول: إن فلاناً محب للإخوان شديد الرغبة في أن يأكل الإنسان من طعامه وقد ألحّ عليّ[1] اليوم ولم أجد بُدًّا من تطييب قلبه ومثل أن يقول: إن أمي ضعيفة القلب مشفقة عليّ تظن أني لو صمت يوماً مرضت فلا تدعني أصوم، فهذا وما يجري مجراه من آفات الرياء فلا يسبق إلى اللسان إلا لرسوخ عرق الرياء في الباطن، أما المخلص فإنه لا يبالي كيف نظر الخلق إليه فإن لم يكن له رغبة في الصوم وقد علم الله ذلك منه فلا يريد أن يعتقد غيره ما يخالف علم الله فيكون ملبساً، وإن كان له رغبة في الصوم لله قنع بعلم الله تعالى ولم يشرك فيه غيره وقد يخطر له أن في إظهاره اقتداء غيره به وتحريك رغبة الناس فيه وفيه مكيدة وغرور وسيأتي شرح ذلك وشروطه.

---

(١) أي أقبل عليّ مواظباً. (لسان العرب)

www.dawateislami.net

فهذه درجات الرياء ومراتب أصناف المرائين وجميعهم تحت مقت الله وغضبه وهو من أشد المهلكات وإن من شدته أن فيه شوائب[1] هي أخفى من دبيب النمل كما ورد به الخبر يزل فيه فحول العلماء فضلاً عن العباد الجهلاء بآفات النفوس وغوائل القلوب والله أعلم.

بيان الرياء الخفي الذي هو أخفى من دبيب النمل:

اعلم أن الرياء جلي وخفي فالجلي: هو الذي يبعث على العمل ويحمل عليه ولو قصد الثواب وهو أجلاه وأخفى منه قليلاً هو ما لا يحمل على العمل بمجرده إلا أنه يخفف العمل الذي يريد به وجه الله كالذي يعتاد التهجد كل ليلة ويثقل عليه فإذا نزل عنده ضيف تنشط له وخف عليه وعلم أنه لولا رجاء الثواب لكان لا يصلي لمجرد رياء الضيفان.

وأخفى من ذلك ما لا يؤثر في العمل ولا بالتسهيل والتخفيف أيضاً، ولكنه مع ذلك مستبطن في القلب، ومهما لم يؤثر في الدعاء إلى العمل لم يمكن أن يعرف إلا بالعلامات، وأجلى علاماته أن يسر باطلاع الناس على طاعته فرب عبد يخلص في عمله ولا يعتقد الرياء بل يكرهه ويرده ويتسم العمل كذلك ولكن إذا اطلع عليه الناس سره ذلك وارتاح له وروح ذلك عن قلبه شدة العبادة وهذا السرور يدل على رياء خفي منه يُرَشِّحُ السّرُورَ ولولا التفات القلب إلى الناس لما ظهر سروره عند اطلاع الناس فلقد كان الرياء مستكناً في القلب استكنان النار في الحجر، فأظهر عنه اطلاع الخلق أثر الفرح والسرور ثم إذا استشعر لذة السرور بالاطلاع ولم يقابل ذلك بكراهية فيصير ذلك قوتاً وغذاء للعرق الخفي من الرياء حتى يتحرك على نفسه حركة خفية فيتقاضى تقاضياً خفياً أن يتكلف سبباً يطلع عليه بالتعريض وإلقاء الكلام عرضاً وإن كان لا يدعو إلى التصريح وقد يخفى فلا يدعو إلى الإظهار بالنطق تعريضاً وتصريحاً ولكن بالشمائل كإظهار النحول والصفار وخفض الصوت ويبس الشفتين وجفاف الريق وآثار الدموع وغلبة النعاس الدال على طول التهجد.

وأخفى من ذلك أن يختفي بحيث لا يريد الاطلاع ولا يسر بظهور طاعته ولكنه مع ذلك إذا رأى الناس أحب أن يبدءوه بالسلام وأن يقابلوه بالبشاشة والتوقير وأن يثنوا عليه وأن ينشطوا في قضاء حوائجه وأن يسامحوه في البيع والشراء وأن يوسعوا له في المكان فإن قصر فيه مقصر ثقل ذلك على قلبه ووجد لذلك استبعاداً في نفسه كأنه يتقاضى الاحترام مع الطاعة التي أخفاها مع أنه لم يطلع عليه، ولو لم يكن قد سبق منه تلك الطاعة لما كان يستبعد تقصير الناس في حقه ومهما لم يكن وجود العبادة

---

(١) أي شبهات. (القاموس الوحيد)

www.dawateislami.net

كعدمها في كل ما يتعلق بالخلق لم يكن قد قنع بعلم الله ولم يكن خالياً عن شوب خفي من الرياء أخفى من دبيب النمل. وكل ذلك يوشك أن يحبط الأجر ولا يسلم منه إلا الصديقون.

وقد روي عن علي كرم الله وجهه أنه قال: إن الله عز وجل يقول للقراء يوم القيامة: أ لم يكن يرخص عليكم السعر؟ أ لم تكونوا تبتدءون بالسلام؟ أ لم تكونوا تقضى لكم الحوائج؟ وفي الحديث: «لا أجر لكم قد استوفيتم أجوركم». وقال عبد الله بن المبارك: روي عن وهب بن منبه أنه قال: إن رجلاً من السواح[1] قال لأصحابه: إنا إنما فارقنا الأموال والأولاد مخافة الطغيان فنخاف أن نكون قد دخل علينا في أمرنا هذا من الطغيان أكثر مما دخل على أهل الأموال في أموالهم، إن أحدنا إذا لقي أحب أن يعظم لمكان دينه، وإن سأل حاجة أحب أن تقضى له لمكان دينه، وإن اشترى شيئاً أحب أن يرخص عليه لمكان دينه، فبلغ ذلك ملكهم فركب في موكب[2] من الناس فإذا السهل[3] والجبل قد امتلأ بالناس فقال السائح: ما هذا؟ قيل: هذا الملك قد أظللك، فقال للغلام: ائتني بطعام فأتاه ببقل وزيت وقلوب الشجر فجعل يحشو شِدقه[4] ويأكل أكلاً عنيفاً، فقال الملك: أين صاحبكم؟ فقالوا: هذا، قال: كيف أنت؟ قال: كالناس. وفي حديث آخر: بخير، فقال الملك: ما عند هذا من خير فانصرف عنه، فقال السائح: الحمد لله الذي صرفك عني وأنت لي ذام. فلم يزل المخلصون خائفين من الرياء الخفي يجتهدون لذلك في مخادعة الناس عن أعمالهم الصالحة يحرصون على إخفائها أعظم مما يحرص الناس على إخفاء فواحشهم، كل ذلك رجاء أن تخلص أعمالهم الصالحة فيجازيهم الله في القيامة بإخلاصهم على ملأ من الخلق إذ علموا أن الله لا يقبل في القيامة إلا الخالص وعلموا شدّة حاجتهم وفاقتهم في القيامة وأنه يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون ولا يجزي والد عن ولده ويشتغل الصديقون بأنفسهم فيقول كل واحد: نفسي نفسي فضلاً عن غيرهم فكانوا كزوار بيت الله إذا توجهوا إلى مكة فإنهم يستصحبون مع أنفسهم الذهب المغربي الخالص لعلمهم أن أرباب البوادي لا يروج عندهم الزائف والنبهرج[5]، والحاجة تشتد في البادية ولا وطن يفزع إليه، ولا حميم يتمسك به فلا ينجي إلى الخالص من النقد فكذا يشاهد أرباب القلوب يوم القيامة والزاد الذي يتزودونه له من التقوى.

---

(١) **التحقيق**:السُوَّاح خطأ والصواب السُيَّاح جمع سائح. (مجلة مجمع اللغة العربية)

(٢) أي جماعة الفرسان. (مختار الصحاح)

(٣) السهل ضد الجبل وهي الأرض اللينة. (مختار الصحاح وغيره)

(٤) الشِدْق جانب الفم. (لسان العرب)

(٥) الزائف والنبهرج: الرديء والغير الخالص. (تاج العروس)

www.dawateislami.net

فإذن شوائب الرياء الخفي كثيرة لا تنحصر ومهما أدرك من نفسه تفرقة بين أن يطلع على عبادته إنسان أو بهيمة ففيه شعبة من الرياء فإنه لما قطع طمعه عن البهائم لم يبال حضره البهائم أو الصبيان الرضع أم غابوا اطلعوا على حركته أم لم يطلعوا فلو كان مخلصاً قانعاً بعلم الله لاستحقر عقلاء العباد كما استحقر صبيانهم ومجانينهم وعلم أن العقلاء لا يقدرون له على رزق ولا أجل ولا زيادة ثواب ونقصان عقاب كما لا يقدر عليه البهائم والصبيان والمجانين فإذا لم يجد ذلك ففيه شَوْب[1] خفي ولكن ليس كل شوب محبطاً للأجر مفسداً للعمل بل فيه تفصيل.

فإن قلت: فما نرى أحداً ينفك عن السرور إذا عرفت طاعاته فالسرور مذموم كله أو بعضه محمود وبعضه مذموم؟ فنقول: أولا: كل سرور فليس بمذموم بل السرور منقسم إلى محمود وإلى مذموم فأما المحمود فأربعة أقسام.

الأول: أن يكون قصده إخفاء الطاعة والإخلاص لله، ولكن لما اطلع عليه الخلق علم أن الله أطلعهم وأظهر الجميل من أحواله فيستدل به على حسن صنع الله به ونظره إليه وإلطافه به، فإنه يستر الطاعة والمعصية ثم الله يستر عليه المعصية ويظهر الطاعة ولا لطف أعظم من ستر القبيح وإظهار الجميل، فيكون فرحه بجميل نظر الله له لا بحمد الناس وقيام المنزلة في قلوبهم وقد قال تعالى: ﴿**قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا**﴾ [يونس : ٥٨] فكأنه ظهر له أنه عند الله مقبول ففرح به.

الثاني: أن يستدل بإظهار الله الجميل وستره القبيح عليه في الدنيا أنه كذلك يفعل في الآخرة، إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((**مَا سَتَرَ اللَّهُ عَلَى عَبْدٍ ذَنْباً فِي الدُّنْيَا إِلاَّ سَتَرَهُ عَلَيْهِ فِي الآخِرَةِ**))[2] فيكون الأول فرحاً بالقبول في الحال من غير ملاحظة المستقبل وهذا التفات إلى المستقبل.

الثالث: أن يظن رغبة المطلعين على الاقتداء به في الطاعة فيتضاعف بذلك أجره فيكون له أجر العلانية بما أظهر آخراً وأجر السر بما قصده أولا ومن اقتدى به في طاعة فله مثل أجر أعمال المقتدين به من غير أن ينقص من أجورهم شيء وتوقع ذلك جدير بأن يكون سبب السرور فإن ظهور مخايل الربح لذيذ وموجب للسرور لا محالة.

الرابع: أن يحمده المطلعون على طاعته فيفرح بطاعتهم لله في مدحهم وبحبهم للمطيع وبميل قلوبهم إلى الطاعة؛ إذ من أهل الإيمان من يرى أهل الطاعة فيمقته ويحسده أو يذمه ويهزأ به أو ينسبه

---

(١) أي الخَلْط. (القاموس المحيط)

(٢) ... صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والاداب، باب بشارة من ستر الله...الخ، الحديث: ٢٥٩٠، ص: ١٣٩٧.

www.dawateislami.net

إلى الرياء ولا يحمده عليه، فهذا فرح بحسن إيمان عباد الله وعلامة الإخلاص في هذا النوع أن يكون فرحه بحمدهم غيره مثل فرحه بحمدهم إياه.

وأما المذموم وهو **الخامس:** فهو أن يكون فرحه لقيام منزلته في قلوب الناس حتى يمدحوه ويعظموه ويقوموا بقضاء حوائجه ويقابلوه بالإكرام في مصادره وموارده فهذا مكروه والله تعالى أعلم.

بيان ما يحبط العمل من الرياء الخفي والجلي وما لا يحبط:

فنقول فيه: إذا عقد العبد العبادة على الإخلاص ثم ورد عليه وارد الرياء فلا يخلو إما أن يرد عليه بعد فراغه من العمل أو قبل الفراغ، فإن ورد بعد الفراغ سرور مجرد بالظهور من غير إظهار فهذا لا يفسد العمل إذ العمل قد تم على نعت الإخلاص سالماً عن الرياء فما يطرأ بعده فيرجو أن لا ينعطف عليه أثر لا سيما إذا لم يتكلف هو إظهاره والتحدث به ولم يتمن إظهاره وذكره، ولكن اتفق ظهوره بإظهار الله ولم يكن منه إلا ما دخل من السرور والارتياح على قلبه، نعم لو تم العمل على الإخلاص من غير عقد رياء ولكن ظهرت له بعده رغبة في الإظهار فتحدث به وأظهره فهذا مخوف.

وفي الآثار والأخبار ما يدل على أنه يحبط فقد روي عن ابن مسعود أنه سمع رجلاً يقول: قرأت البارحة[1] البقرة، فقال: ذلك حظه منها. وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لرجل قال له صمت الدهر يا رسول الله، فقال له: ((**مَا صُمْتَ وَلاَ أَفْطَرْتَ**)) [2] فقال بعضهم: إنما قال ذلك لأنه أظهره وقيل: هو إشارة إلى كراهة صوم الدهر وكيفما كان فيحتمل أن يكون ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم. ومن ابن مسعود استدلالاً على أن قلبه عند العبادة لم يخل عن عقد الرياء وقصده له لما أن ظهر منه التحدث به إذ يبعد أن يكون ما يطرأ بعد العمل مبطلاً لثواب العمل بل الأقيس أن يقال: إنه مثاب على عمله الذي مضى ومعاقب على مراآته بطاعة الله بعد الفراغ منها، بخلاف ما لو تغير عقده إلى الرياء قبل الفراغ من الصلاة فإن ذلك قد يبطل الصلاة ويحبط العمل. وأما إذا ورد وارد الرياء قبل الفراغ من الصلاة مثلاً وكان قد عقد على الإخلاص ولكن ورد في أثنائها وارد الرياء فلا يخلو إما أن يكون مجرد سرور لا يؤثر في العمل وإما أن يكون رياء باعثاً على العمل، فإن كان باعثاً على العمل وختم العبادة به حبط أجره، ومثاله: أن يكون في تطوع فتجددت له نظارة أو حضر ملك من الملوك وهو يشتهي أن ينظر إليه أو يذكر شيئاً نسيه من ماله وهو يريد أن يطلبه ولولا الناس لقطع الصلاة فاستتمها خوفاً من مذمة الناس فقد حبط أجره وعليه الإعادة[3] إن كان في فريضة وقد قال صلى

---

(١) **البارحة:** أقربُ ليلةٍ مَضَتْ. (لسان العرب)

(٢) ... الزهد لابن مبارك، باب ماجاء في الخشوع والخوف، الحديث: ١٥٣، ص ٥٠.

(٣) ليس عليه الإعادة عندنا لأنه ليس من مفسدات الصلاة. [علمية]

www.dawateislami.net

الله عليه وسلم: ((**العَمَلُ كَالْوِعَاءِ**[1] **إِذَا طَابَ آخِرُهُ طَابَ أَوَّلُهُ**)) [2] أي النظر إلى خاتمته. وروي: «أنه من راءى بعمله ساعة حبط عمله الذي كان قبله» وهذا منزل على الصلاة في هذه الصورة لا على الصدقة ولا على القراءة فإن كل جزء من ذلك مفرد فما يطرأ يفسد الباقي دون الماضي والصوم والحج من قبيل الصلاة. وأما إذا كان وارد الرياء بحيث لا يمنعه من قصد الإتمام لأجل الثواب كما لو حضر جماعة في أثناء الصلاة ففرح بحضورهم وعقد الرياء وقصد تحسين الصلاة لأجل نظرهم وكان لولا حضورهم لكان يتمها أيضاً فهذا رياء قد أثر في العمل وانتهض[3] باعثاً على الحركات، فإن غلب حتى انمحق معه الإحساس بقصد العبادة والثواب وصار قصد العبادة مغموراً فهذا أيضاً ينبغي أن يفسد العبادة مهما مضى ركن من أركانها على هذا الوجه، لأنا نكتفي بالنية السابقة عند الإحرام بشرط أن لا يطرأ عليها ما يغلبها ويغمرها، ويحتمل أن يقال: لا يفسد العبادة نظراً إلى حالة العقد وإلى بقاء قصد أصل الثواب وإن ضعف بهجوم قصد هو أغلب منه.

ولقد ذهب الحارث المحاسبي رحمه الله تعالى إلى الإحباط في أمر هو أهون من هذا وقال: إذا لم يرد إلا مجرد السرور باطلاع الناس -يعني سروراً هو كحب المنزلة والجاه- قال: قد اختلف الناس في هذا فصارت فرقة إلى أنه محبط لأنه نقض العزم الأول وركن إلى حمد المخلوقين ولم يختم عمله بالإخلاص وإنما يتم العمل بخاتمته، ثم قال: ولا أقطع عليه بالحبط وإن لم يتزيد في العمل ولا آمن عليه وقد كنت أقف فيه لاختلاف الناس والأغلب على قلبي أنه يحبط إذا ختم عمله بالرياء ثم قال: فإن قيل: قد قال الحسن رحمه الله تعالى إنهما حالتان فإذا كانت الأولى لله لم تضره الثانية، وقد روي أن رجلاً قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله أسر العمل لا أحب أن يطلع عليه فيطلع عليه فيسرني قال: ((**لَكَ أَجْرَانِ أَجْرُ السِّرِّ وَأَجْرُ الْعَلاَنِيَةِ**)) [4] ثم تكلم على الخبر والأثر فقال: أما الحسن فإنه أراد بقوله: لا يضره أي لا يدع العمل ولا تضره الخطرة وهو يريد الله ولم يقل؛ إذ عقد الرياء بعد عقد الإخلاص لم يضره، وأما الحديث فتكلم عليه بكلام طويل يرجع حاصله إلى ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه يحتمل أنه أراد ظهور عمله بعد الفراغ وليس في الحديث أنه قبل الفراغ.

---

(١) **الوِعاء**: ظرف الشيء، والجمع أَوْعِيَةٌ. (لسان العرب)

(٢) ... سنن ابن ماجه، كتاب الزهد، باب التوقي على العمل، الحديث: ٤١٩٩، ٤/٤٦٨ بتغير.

(٣) أي قَامَ. (لسان العرب)

(٤) ... شعب الايمان، باب في السرور بالحسنة والاغتمام، الحديث: ٧٠٠٩، ٥/٣٧٦.

www.dawateislami.net

الثاني: أنه أراد أن يسر به للاقتداء به أو لسرور آخر محمود مما ذكرناه قبل لا سروراً بسبب حب المحمدة والمنزلة بدليل أنه جعل له به أجراً ولا ذاهب من الأمة إلى أن للسرور بالمحمدة أجراً وغايته أن يعفى عنه، فكيف يكون للمخلص أجر وللمرائي أجران؟.

والثالث: أنه قال: أكثر من يروي الحديث يرويه غير متصل إلى أبي هريرة بل أكثرهم يوقفه على أبي صالح ومنهم من يرفعه فالحكم بالعمومات الواردة في الرياء أولى. هذا ما ذكره ولم يقطع به بل أظهر ميلاً إلى الإحباط.

والأقيس عندنا أن هذا القدر إذا لم يظهر أثره في العمل بل بقي العمل صادراً عن باعث الدين وإنما انضاف إليه السرور بالاطلاع فلا يفسد العمل لأنه لم ينعدم به أصل نيته وبقيت تلك النية باعثة على العمل وحاملة على الإتمام.

وأما الأخبار التي وردت في الرياء فهي محمولة على ما إذا لم يرد به إلا الخلق، وأما ما ورد في الشركة فهو محمول على ما إذا كان قصد الرياء مساوياً لقصد الثواب أو أغلب منه، أما إذا كان ضعيفاً بالإضافة إليه فلا يحبط بالكلية ثواب الصدقة وسائر الأعمال ولا ينبغي أن يفسد الصلاة ولا يبعد أيضاً أن يقال: إن الذي أوجب عليه صلاة خالصة لوجه الله. والخالص ما لا يشوبه شيء، فلا يكون مؤدياً للواجب مع هذا الشوب والعلم عند الله فيه. وقد ذكرنا في كتاب الإخلاص كلاماً أوفى مما أوردناه الآن فليرجع إليه فهذا حكم الرياء الطارئ بعد عقد العبادة إما قبل الفراغ أو بعد الفراغ.

القسم الثالث: الذي يقارن حال العقد بأن يبتدأ الصلاة على قصد الرياء فإن استمر عليه حتى سلم فلا خلاف في أنه يقضي ولا يعتد بصلاته وإن ندم عليه في أثناء ذلك واستغفر ورجع قبل التمام ففيما يلزمه ثلاثة أوجه قالت فرقة: لم تنعقد صلاته مع قصد الرياء فليستأنف. وقالت فرقة: تلزمه إعادة الأفعال كالركوع والسجود وتفسد أفعاله دون تحريمة الصلاة لأن التحريم عقد والرياء خاطر في قلبه لا يخرج التحريم عن كونه عقداً. وقالت فرقة: لا يلزم إعادة شيء بل يستغفر الله بقلبه ويتم العبادة على الإخلاص والنظر إلى خاتمة العبادة كما لو ابتدأ بالإخلاص وختم بالرياء لكان يفسد عمله. وشبهوا ذلك بثوب أبيض لطخ بنجاسة عارضة فإذا أزيل العارض عاد إلى الأصل فقالوا: إن الصلاة والركوع والسجود لا تكون إلا لله ولو سجد لغير الله لكان كافراً ولكن اقترن به عارض الرياء ثم زال بالندم والتوبة وصار إلى حالة لا يبالي بحمد الناس وذمهم فتصح صلاته.

ومذهب الفريقين الآخرين خارج عن قياس الفقه جداً خصوصاً من قال: يلزمه إعادة الركوع والسجود دون الافتتاح لأن الركوع والسجود إن لم يصح صارت أفعالاً زائدة في الصلاة فتفسد الصلاة

www.dawateislami.net

وكذلك قول من يقول: لو ختم بالإخلاص صح نظراً إلى الآخر فهو أيضاً ضعيف لأن الرياء يقدح في النية وأولى الأوقات بمراعاة أحكام النية حال الافتتاح.

فالذي يستقيم على قياس الفقه هو أن يقال: إن كان باعثه مجرد الرياء في ابتداء العقد دون طلب الثواب وامتثال الأمر لم ينعقد افتتاحه ولم يصح ما بعده وذلك فيمن إذا خلا بنفسه لم يصل ولما رأى الناس تحرم بالصلاة وكان بحيث لو كان ثوبه نجساً أيضاً كان يصلي لأجل الناس فهذه صلاة لا نية فيها إذ النية عبارة عن إجابة باعث الدين وههنا لا باعث ولا إجابة.

فأما إذا كان بحيث لولا الناس أيضاً لكان يصلي إلا أنه ظهر له الرغبة في المحمدة أيضاً فاجتمع الباعثان فهذا إما أن يكون في صدقة وقراءة وما ليس فيه تحليل وتحريم أو في عقد صلاة وحج فإن كان في صدقة فقد عصى بإجابة باعث الرياء وأطاع بإجابة باعث الثواب: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة : ٧،٨] فله ثواب بقدر قصده الصحيح وعقاب بقدر قصده الفاسد ولا يحبط أحدهما الآخر.

وإن كان في صلاة تقبل الفساد بتطرق خلل إلى النية فلا يخلو إما أن تكون فرضاً أو نفلاً فإن كانت نفلاً فحكمها أيضاً حكم الصدقة فقد عصى من وجه وأطاع من وجه إذ اجتمع في قلبه الباعثان ولا يمكن أن يقال: صلاته فاسدة والاقتداء به باطل حتى إن من صلى التراويح وتبين من قرائن حاله أن قصده الرياء بإظهار حسن القراءة ولولا اجتماع الناس خلفه وخلا في بيت وحده لما صلى، لا يصح الاقتداء به فإن المصير إلى هذا بعيد جداً بل يظن بالمسلم أنه يقصد الثواب أيضاً بتطوعه فتصح باعتبار ذلك القصد صلاته ويصح الاقتداء به وإن اقترن به قصد آخر وهو به عاص.

فأما إذا كان في فرض واجتمع الباعثان وكان كل واحد لا يستقل وإنما يحصل الانبعاث بمجموعهما فهذا لا يسقط الواجب عنه لأن الإيجاب لم ينتهض باعثاً في حقه بمجرده واستقلاله وإن كان كل باعث مستقلاً حتى لو لم يكن باعث الرياء لأدى الفرائض، ولو لم يكن باعث الفرض لأنشأ صلاة تطوعاً لأجل الرياء فهذا محل النظر. وهو محتمل جداً فيحتمل أن يقال: إن الواجب صلاة خالصة لوجه الله ولم يؤد الواجب الخالص ويحتمل أن يقال: الواجب امتثال الأمر بباعث مستقل بنفسه وقد وجد فاقتران غيره به لا يمنع سقوط الفرض عنه كما لو صلى في دار مغصوبة فإنه وإن كان عاصياً بإيقاع الصلاة في الدار المغصوبة فإنه مطيع بأصل الصلاة ومسقط للفرض عن نفسه وتعارض الاحتمال في تعارض البواعث في أصل الصلاة.

www.dawateislami.net

أما إذا كان الرياء في المبادرة مثلاً دون أصل الصلاة مثل من بادر إلى الصلاة في أول الوقت لحضور جماعة ولو خلا لأخر إلى وسط الوقت ولولا الفرض لكان لا يبتدأ صلاة لأجل الرياء فهذا مما يقطع بصحة صلاته وسقوط الفرض به لأن باعث أصل الصلاة من حيث إنها صلاة لم يعارضه غيره بل من حيث تعيين الوقت فهذا أبعد من القدح في النية.

هذا في رياء يكون باعثاً على العمل وحاملاً عليه وأما مجرد السرور بإطلاع الناس عليه إذا لم يبلغ أثره إلى حيث يؤثر في العمل فبعيد أن يفسد الصلاة.

فهذا ما نراه لائقاً بقانون الفقه والمسألة غامضة من حيث أن الفقهاء لم يتعرضوا لها في فن الفقه والذين خاضوا فيها وتصرفوا لم يلاحظوا قوانين الفقه ومقتضى فتاوى الفقهاء في صحة الصلاة وفسادها بل حملهم الحرص على تصفية القلوب وطلب الإخلاص على إفساد العبادات بأن الخواطر وما ذكرناه هو الأقصد فيما نراه والعلم عند الله عز وجل فيه وهو عالم الغيب والشهادة وهو الرحمن الرحيم.

بيان دواء الرياء وطريق معالجة القلب فيه:

قد عرفت مما سبق أن الرياء محبط للأعمال وسبب للمقت عند الله تعالى وأنه من كبائر المهلكات وما هذا وصفه فجدير بالتشمير عن ساق الجد في إزالته ولو بالمجاهدة وتحمل المشاق فلا شفاء إلا في شرب الأدوية المرة البَشِعَةِ[1] وهذه مجاهدة يضطر إليها العباد كلهم إذ الصبي يخلق ضعيف العقل والتمييز ممتد العين إلى الخلق كثير الطمع فيهم فيرى الناس يتصنع بعضهم لبعض فيغلب عليه حب التصنع بالضرورة، ويرسخ ذلك في نفسه وإنما يشعر بكونه مهلكاً بعد كمال عقله وقد انغرس الرياء في قلبه وترسخ فيه، فلا يقدر على قمعه إلا بمجاهدة شديدة ومكابدة[2] لقوة الشهوات فلا ينفك أحد عن الحاجة إلى هذه المجاهدة ولكنها تشق أولاً وتخف آخراً وفي علاجه مقامان: أحدهما: قلع عروقه وأصوله التي منها انشعابه والثاني: دفع ما يخطر منه في الحال.

المقام الأول: في قلع عروقه واستئصال أصوله: وأصله حب المنزلة والجاه وإذا فضل رجع إلى ثلاثة أصول: وهي لذة المَحْمِدَة، والفرار من ألم الذم، والطمع فيما في أيدي الناس. ويشهد للرياء بهذه الأسباب وأنها الباعثة للمرائي ما روى أبو موسى: أن أعرابياً سأل النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله! الرجل يقاتل حمية –ومعناه أنه يأنف أن يقهر أو يذم بأنه مقهور مغلوب– وقال: والرجل يقاتل ليرى مكانه –وهذا هو طلب لذة الجاه والقدر في القلوب– والرجل يقاتل للذكر –وهذا هو

---

(١) **البشعة:** الكريهة الطعم. (اتحاف)

(٢) **المكابدة:** تحمُّل الأمر الشديد. (القاموس الوحيد)

www.dawateislami.net

الحمد باللسان- فقال صلى الله عليه وسلم: ((**مَنْ قَاتَلَ لِتَكُوْنَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِيْ سَبِيْلِ اللهِ**))[1] وقال ابن مسعود: إذا التقى الصفان نزلت الملائكة فكتبوا الناس على مراتبهم فلان يقاتل للذكر، وفلان يقاتل للملك، والقتال للملك إشارة إلى الطمع في الدنيا. وقال عمر رضي الله عنه: يقولون فلان شهيد ولعله يكون قد ملأ دفتي راحلته ورقاً. وقال صلى الله عليه وسلم: ((**مَنْ غَزَا لاَ يَبْغِيْ إِلاَّ عِقَالاً فَلَهُ مَا نَوَى**))[2] فهذا إشارة إلى الطمع وقد لا يشتهي الحمد ولا يطمع فيه ولكن يحذر من ألم الذم كالبخيل بين الأسخياء وهم يتصدقون بالمال الكثير فإنه يتصدق بالقليل كي لا يبخل وهو ليس يطمع في الحمد وقد سبقه غيره، وكالجَبَان[3] بين الشجعان لا يفر من الزَّحْفِ[4] خوفاً من الذم وهو لا يطمع في الحمد وقد هجم غيره على صف القتال، ولكن إذا أيس من الحمد كره الذم، وكالرجل بين قوم يصلون جميع الليل فيصلي ركعات معدودة حتى لا يذم بالكسل وهو لا يطمع في الحمد وقد يقدر الإنسان على الصبر عن لذة الحمد ولا يقدر على الصبر على ألم الذم، ولذلك قد يترك السؤال عن علم هو محتاج إليه خيفة من أن يذم بالجهل ويفتي بغير علم ويدعي العلم بالحديث وهو به جاهل كل ذلك حذراً من الذم، فهذه الأمور الثلاثة هي التي تحرك المرائي إلى الرياء وعلاجه ما ذكرناه في الشطر الأول من الكتاب على الجملة.

ولكنا نذكر الآن ما يخص الرياء، وليس يخفى أن الإنسان إنما يقصد الشيء ويرغب فيه لظنه أنه خير له ونافع ولذيذ إما في الحال وإما في المآل، فإن علم أنه لذيذ في الحال ولكنه ضار في المآل سهل عليه قطع الرغبة عنه كمن يعلم أن العسل لذيذ ولكن إذا بان له أن فيه سماً أعرض عنه، فكذلك طريق قطع هذه الرغبة أن يعلم ما فيه من المضرة.

ومهما عرف العبد مضرة الرياء وما يفوته من صلاح قلبه وما يحرم عنه في الحال من التوفيق وفي الآخرة من المنزلة عند الله وما يتعرض له من العقاب العظيم، والمقت الشديد، والخزي الظاهر حيث ينادى على رؤوس الخلائق: يا فاجر يا غادر يا مرائي أما استحييت إذا اشتريت بطاعة الله عرض الدنيا، وراقبت قلوب العباد واستهزأت بطاعة الله، وتحببت إلى العباد بالتبغض إلى الله، وتزينت لهم بالشين عند الله، وتقربت إليهم بالبعد من الله، وتحمدت إليهم بالتذمم عند الله وطلبت رضاهم بالتعرض لسخط الله أما كان أحد أهون عليك من الله! فمهما تفكر العبد في هذا الخزي وقابل ما يحصل له من

---

(١) ...صحيح مسلم، كتاب الامارة، باب من قاتل لتكون كلمة الله...الخ، الحديث: ١٩٠٤، ص ١٠٥٥.

(٢) ...سنن النسائي، كتاب الجهاد، باب من غزا في سبيل الله...الخ، الحديث: ٣١٣٥، ص ٥١٠.

(٣) أي ضعيف القلب. (شرح الزرقاني)

(٤) أي الجيش والقتال. (تاج العروس وغيره)

www.dawateislami.net

العباد والتزين لهم في الدنيا بما يفوته في الآخرة وبما يحبط عليه من ثواب الأعمال مع أن العمل الواحد ربما كان يترجح به ميزان حسناته لو أخلص، فإذا فسد بالرياء حوّل إلى كفة السيئات فترجح به ويهوي[1] إلى النار، فلو لم يكن في الرياء إلا إحباط عبادة واحدة لكان ذلك كافيا في معرفة ضرره وإن كان مع ذلك سائر حسناته راجحة، فقد كان ينال بهذه الحسنة علو الرتبة عند الله في زمرة النبيين والصديقين وقد حط عنهم بسبب الرياء، ورد إلى صف النعال من مراتب الأولياء هذا مع ما يتعرض له في الدنيا من تشتت الهم[2] بسبب ملاحظة قلوب الخلق فإن رضا الناس غاية لا تدرك، فكل ما يرضى به فريق يسخط به فريق ورضا بعضهم في سخط بعضهم ومن طلب رضاهم في سخط الله سخط الله عليه وأسخطهم أيضا عليه ثم أي غرض له في مدحهم وإيثار ذم الله لأجل حمدهم ولا يزيده حمدهم رزقاً ولا أجلاً ولا ينفعه يوم فقره وفاقته وهو يوم القيامة.

وأما الطمع فيما في أيديهم فبأن يعلم أن الله تعالى هو المسخر للقلوب بالمنع والإعطاء وأن الخلق مضطرون فيه ولا رازق إلا الله ومن طمع في الخلق لم يخل من الذل والخيبة[3]، وإن وصل إلى المراد لم يخل عن المِنَّة والمَهَانَة[4] فكيف يترك ما عند الله برجاء كاذب ووهم فاسد قد يصيب وقد يخطئ؟ وإذا أصاب فلا تفي لذته بألم منته ومَذَلّته.

وأما ذمهم فلم يحذر منه ولا يزيده ذمهم شيئًا ما لم يكتبه عليه الله ولا يعجل أجله ولا يؤخر رزقه ولا يجعله من أهل النار إن كان من أهل الجنة، ولا يبغضه إلى الله إن كان محمودا عند الله، ولا يزيده مقتاً إن كان ممقوتاً عند الله، فالعباد كلهم عجزة لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياتاً ولا نشوراً فإذا قرر في قلبه آفة هذه الأسباب وضررها فترت[5] رغبته وأقبل على الله قلبه، فإن العاقل لا يرغب فيما يكثر ضرره ويقل نفعه، ويكفيه أن الناس لو علموا ما في باطنه من قصد الرياء وإظهار الإخلاص لمقتوه وسيكشف الله عن سره حتى يبغضه إلى الناس ويعرفهم أنه مراء وممقوت عند الله، ولو أخلص لله لكشف الله لهم إخلاصه وحببه إليهم وسخرهم له وأطلق ألسنتهم بالمدح والثناء عليه مع أنه لا كمال في مدحهم ولا نقصان في ذمهم كما قال شاعر بني تميم: إن مدحي زَين[6] وإن

---

(١) أي يسقط. (اتحاف)

(٢) أي تفريقه. (اتحاف)

(٣) **الخيبة**: الحرمان والخسران. (تاج العروس)

(٤) أي الذل والحقارة. (اتحاف، تاج العروس)

(٥) أي ضعفت. (اتحاف)

(٦) **زين**: يدل على حسن الشئ وتحسينه. (معجم مقاييس اللغة)

www.dawateislami.net

ذمي شَين[1] فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((**كَذَبْتَ، ذَاكَ اللهُ الَّذِيْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ**))[2] إذ لا زين إلا في مدحه ولا شين إلا في ذمه، فأيّ خير لك في مدح الناس وأنت عند الله مذموم ومن أهل النار؟ وأيّ شر لك من ذم الناس وأنت عند الله محمود في زمرة المقربين؟.

فمن أحضر في قلبه الآخرة ونعيمها المؤبد والمنازل الرفيعة عند الله استحقر ما يتعلق بالخلق أيام الحياة مع ما فيه من الكدورات والمنغصات، واجتمع همه وانصرف إلى الله قلبه، وتخلص من مذلة الرياء ومقاساة قلوب الخلق وانعطف من إخلاصه أنوار على قلبه ينشرح بها صدره وينفتح بها له من لطائف المكاشفات ما يزيد به أنسه بالله ووحشته من الخلق واستحقاره للدنيا واستعظامه للآخرة، وسقط محل الخلق من قلبه وانحل عنه داعية الرياء، وتذلل له منهج الإخلاص، فهذا وما قدمنا في الشطر الأول هي الأدوية العلمية القالعة مغارس الرياء.

وأما الدواء العملي فهو أن يعود نفسه إخفاء العبادات وإغلاق الأبواب دونها كما تغلق الأبواب دون الفواحش حتى يقنع قلبه بعلم الله و اطلاعه على عباداته ولا تنازعنه النفس إلى طلب علم غير الله به. وقد روي أن بعض أصحاب أبي حفص الحداد ذم الدنيا وأهلها فقال: أظهرت ما كان سبيلك أن تخفيه لا تجالسنا بعد هذا. فلم يرخص في إظهار هذا القدر لأن في ضمن ذم الدنيا دعوى الزهد فيها فلا دواء للرياء مثل الإخفاء وذلك يشق في بداية المجاهدة، وإذا صبر عليه مدة بالتكلف سقط عنه ثقله وهان عليه ذلك بتواصل ألطاف الله وما يمد به عباده من حسن التوفيق والتأييد والتسديد، ولكن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، فمن العبد "المجاهدة" ومن الله "الهداية" ومن العبد "قرع الباب" ومن الله "فتح الباب" والله لا يضيع أجر المحسنين وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً.

المقام الثاني: في دفع العارض منه في أثناء العبادة وذلك لا بد من تعلمه أيضاً، فإن من جاهد نفسه وقلع مغارس الرياء من قلبه بالقناعة وقطع الطمع وإسقاط نفسه من أعين المخلوقين واستحقار مدح المخلوقين وذمهم فالشيطان لا يتركه في أثناء العبادات، بل يعارضه بخطرات الرياء ولا تنقطع عنه نزعاته وهوى النفس وميلها لا ينمحي بالكلية فلا بد وأن يتشمر لدفع ما يعرض من خاطر الرياء. وخواطر الرياء ثلاثة: قد تخطر دفعة واحدة كالخاطر الواحد وقد تترادف على التدريج.

فالأول: العلم باطلاع الخلق ورجاء اطلاعهم ثم يتلوه هيجان الرغبة من النفس في حمدهم وحصول المنزلة عندهم ثم يتلوه هيجان الرغبة في قبول النفس له والركون إليه وعقد الضمير على

---

(١) **شين**: كلمة تدل على خلاف الزينة. (معجم مقاييس اللغة)

(٢) ... سنن الترمذي، كتاب التفسير، باب ومن سورة الحجرات، الحديث: ٣٢٧٨، ٥/١٧٨، دون قول: كذبت.

www.dawateislami.net

تحقيقه فالأول معرفة. والثاني: حالة تسمى الشهوة والرغبة. والثالث: فعل يسمى العزم وتصميم العقد، وإنما كمال القوة في دفع الخاطر الأول ورده قبل أن يتلوه الثاني فإذا خطر له معرفة اطلاع الخلق أو رجاء اطلاعهم دفع ذلك بأن قال: ما لك وللخلق علموا أو لم يعلموا؟ والله عالم بحالك فأيّ فائدة في علم غيره؟ فإن هاجت الرغبة إلى لذة الحمد يذكر ما رسخ في قلبه من قبل من آفة الرياء وتعرضه للمقت عند الله في القيامة وخيبته في أحوج أوقاته إلى أعماله فكما أن معرفة اطلاع الناس تثير شهوة ورغبة في الرياء فمعرفة آفة الرياء تثير كراهة له تقابل تلك الشهوة إذ يتفكر في تعرضه لمقت الله وعقابه الأليم والشهوة تدعوه إلى القبول والكراهة تدعوه إلى الإباء والنفس تطاوع لا محالة أقواهما وأغلبهما.

فإذاً لا بد في رد الرياء من ثلاثة أمور: المعرفة والكراهة والإباء. وقد يشرع العبد في العبادة على عزم الإخلاص ثم يرد خاطر الرياء فيقبله ولا تحضره المعرفة ولا الكراهة التي كان الضمير منطوياً[1] عليها، وإنما سبب ذلك امتلاء القلب بخوف الذم وحب الحمد واستيلاء الحرص عليه بحيث لا يبقى في القلب متسع لغيره، فيعزب[2] عن القلب المعرفة السابقة بآفات الرياء وشؤم عاقبته إذ لم يبق موضع في القلب خال عن شهوة الحمد أو خوف الذم، وهو كالذي يحدث نفسه بالحلم وذم الغضب، ويعزم على التحلم[3] عند جريان سبب الغضب، ثم يجري من الأسباب ما يشتد به غضبه فينسى سابقة عزمه ويمتلئ قلبه غيظاً يمنع من تذكر آفة الغضب ويشغل قلبه عنه، فكذلك حلاوة الشهوة تملأ القلب وتدفع نور المعرفة مثل مرارة الغضب وإليه أشار جابر بقوله: بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة على أن لا نفر ولم نبايعه على الموت فأنسيناها يوم حنين حتى نودي: يا أصحاب الشجرة! فرجعوا. وذلك لأن القلوب امتلأت بالخوف فنسيت العهد السابق حتى ذكروا، وأكثر الشهوات التي تهجم فجأة[4] هكذا تكون، إذ تنسى معرفة مضرته الداخلة في عقد الإيمان. ومهما نسي المعرفة لم تظهر الكراهة فإن الكراهة ثمرة المعرفة، وقد يتذكر الإنسان فيعلم أن الخاطر الذي خطر له هو خاطر الرياء الذي يعرضه لسخط الله ولكن يستمر عليه لشدة شهوته فيغلب هواه عقله ولا يقدر على ترك لذة الحال، فيسوف بالتوبة[5] أو يتشاغل عن التفكر في ذلك لشدة الشهوة، فكم من عالم يحضره كلام لا يدعوه إلى فعله إلا رياء الخلق وهو يعلم ذلك ولكنه يستمر عليه فتكون الحجة عليه أوكد؟ إذ قبل داعي

---

(١) الطيّ: نقيض النشر. (لسان العرب)

(٢) أي يغيب. (اتحاف)

(٣) **تَحَلَّمَ**: أي تَكَلَّف الحلم. (تاج العروس)

(٤) أي مرة واحدة من غير انتظار. (اتحاف)

(٥) أي يأخرها. (اتحاف)

www.dawateislami.net

الرياء مع علمه بغائلته وكونه مذموماً عند الله ولا تنفعه معرفته إذا خلت المعرفة عن الكراهة، وقد تحضر المعرفة والكراهة ولكن مع ذلك يقبل داعي الرياء ويعمل به لكون الكراهة ضعيفة بالإضافة إلى قوة الشهوة، وهذا أيضاً لا ينتفع بكراهته إذ الغرض من الكراهة أن تصرف عن الفعل.

فإذاً لا فائدة إلا في اجتماع الثلاث وهي: المعرفة، والكراهة، والإباء. فالإباء: ثمرة الكراهة، والكراهة: ثمرة المعرفة، وقوة المعرفة بحسب قوة الإيمان ونور العلم، وضعف المعرفة بحسب الغفلة وحب الدنيا ونسيان الآخرة وقلة التفكر فيما عند الله وقلة التأمل في آفات الحياة الدنيا وعظيم نعيم الآخرة.

وبعض ذلك ينتج بعضاً ويثمره وأصل ذلك كله حب الدنيا وغلبة الشهوات فهو رأس كل خطيئة ومنبع كل ذنب؛ لأن حلاوة حب الجاه والمنزلة ونعيم الدنيا هي التي تغضب القلب وتسلبه وتحول بينه وبين التفكر في العاقبة والاستضاءة بنور الكتاب والسنة وأنوار العلوم. فإن قلت: فمن صادف من نفسه كراهة الرياء وحملته الكراهة على الإباء ولكنه مع ذلك غير خال عن ميل الطبع إليه وحبه له ومنازعته إياه إلا أنه كاره لحبه ولميله إليه وغير محبب إليه فهل يكون في زمرة المرائين؟.

فاعلم أن الله لم يكلف العباد إلا ما تطيق وليس في طاقة العبد منع الشيطان عن نزغاته ولا قمع الطبع حتى لا يميل إلى الشهوات ولا ينزع إليها وإنما غايته أن يقابل شهوته بكراهة استثارها من معرفة العواقب وعلم الدين وأصول الإيمان بالله واليوم الآخر فإذاً فعل ذلك فهو الغاية في أداء ما كلف به.

ويدل على ذلك من الأخبار ما روي أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم شكوا إليه وقالوا: تعرض لقلوبنا أشياء لأن نخر[1] من السماء فتخطفنا الطير[2] أو تهوي بنا الريح في مكان سحيق[3] أحب إلينا من أن نتكلم بها فقال عليه السلام: ((**أَوَقَدْ وَجَدْتُمُوْهُ ؟**)) قالوا نعم، قال: ((**ذَلِكَ صَرِيْحُ الإِيْمَانِ**))[4] ولم يجدوا إلا الوسواس والكراهة له ولا يمكن أن يقال: أراد بصريح الإيمان الوسوسة فلم يبق إلا حمله على الكراهة المساوقة للوسوسة والرياء، فإنه وإن كان عظيماً فهو دون الوسوسة في حق الله تعالى فإذا اندفع ضرر الأعظم بالكراهة فبأن يندفع بها ضرر الأصغر أولى.

وكذلك يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث ابن عباس أنه قال: ((**الحَمْدُ لِلّهِ الَّذِيْ رَدَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ إِلَى الْوَسْوَسَةِ**))[5] وقال أبو حازم: ما كان من نفسك وكرهته نفسك لنفسك فلا

---

(١) أي نسقط. (اتحاف)

(٢) الخَطْف: أخذ الشئ بسرعة. (المعجم الوسيط)

(٣) أي بعيد الغور. (اتحاف)

(٤) ... سنن ابی داود، کتاب الادب، باب فی ردّ الوسوسة، الحدیث: ٥١١١، ٤/٤٢٥.

(٥) ... سنن ابی داود، کتاب الادب، باب فی ردّ الوسوسة، الحدیث: ٥١١٢، ٤/٤٢٥.

www.dawateislami.net

يضرك ما هو من عدوك، وما كان من نفسك فرضيته نفسك لنفسك فعاتبها عليه. فإذن وسوسة الشيطان ومنازعة النفس لا تضرك مهما رددت مرادهما بالإباء والكراهة والخواطر التي هي العلوم والتذكرات والتخيلات للأسباب المهيجة للرياء هي من الشيطان، والرغبة والميل بعد تلك الخواطر من النفس والكراهة من الإيمان ومن آثار العقل، إلا أن للشيطان ههنا مكيدة وهي أنه إذا عجز عن حمله على قبول الرياء خيل إليه أن صلاح قلبه في الاشتغال بمجادلة الشيطان ومطاولته في الرد والجدال حتى يسلبه ثواب الإخلاص وحضور القلب؛ لأن الاشتغال بمجادلة الشيطان ومدافعته انصراف عن سر المناجاة مع الله فيوجب ذلك نقصاناً في منزلته عند الله.

والمتخلصون عن الرياء في دفع خواطر الرياء على أربع مراتب.

الأولى: أن يرده على الشيطان فيكذبه ولا يقتصر عليه بل يشتغل بمجادلته ويطيل الجدال معه لظنه أن ذلك أسلم لقلبه، وهو على التحقيق نقصان؛ لأنه اشتغل عن مناجاة الله وعن الخير الذي هو بصدده وانصرف إلى قتال قطاع الطريق، والتعريج[1] على قتال قطاع الطريق نقصان في السلوك.

الثانية: أن يعرف أن الجدال والقتال نقصان في السلوك فيقتصر على تكذيبه ودفعه ولا يشتغل بمجادلته.

الثالثة: أن لا يشتغل بتكذيبه أيضاً لأن ذلك وقفة وإن قلت: بل يكون قد قرر في عقد ضميره كراهة الرياء وكذب الشيطان فيستمر على ما كان عليه مستصحباً للكراهة غير مشتغل بالتكذيب ولا بالمخاصمة.

الرابعة: أن يكون قد علم أن الشيطان سيحسده عند جريان أسباب الرياء، فيكون قد عزم على أنه مهما نزغ الشيطان زاد فيما هو فيه من الإخلاص والاشتغال بالله وإخفاء الصدقة والعبادة غيظاً للشيطان وذلك هو الذي يغيظ الشيطان ويقمعه ويوجب يأسه وقنوطه حتى لا يرجع.

يروى عن الفضيل بن غزوان أنه قيل له: إن فلاناً يذكرك، فقال: والله لأغيظن من أمره. قيل: ومن أمره؟ قال الشيطان اللهم اغفر له أي لأغيظنه بأن أطيع الله فيه ومهما عرف الشيطان من عبد هذه العادة كف عنه خيفة من أن يزيد في حسناته.

وقال إبراهيم التيمي: إن الشيطان ليدعو العبد إلى الباب من الإثم، فلا يطعه وليحدث عند ذلك خيراً فإذا رآه كذلك تركه. وقال أيضاً: إذا رآك الشيطن متردداً طمع فيك وإذا رآك مداوماً ملك وقلاك[2]. وضرب الحارث المحاسبي رحمه الله لهذه الأربعة مثالاً أحسن فيه فقال: مثالهم كأربعة

---

(١) أي التمييل. (تاج العروس)

(٢) أي أبغضك. (القاموس المحيط)

www.dawateislami.net

قصدوا مجلساً من العلم والحديث لينالوا به فائدة وفضلاً وهداية ورشداً فحسدهم على ذلك ضال مبتدع وخاف أن يعرفوا الحق، فتقدم إلى واحد فمنعه وصرفه عن ذلك، ودعاه إلى مجلس ضلال فأبى، فلما عرف إباءه شغله بالمجادلة فاشتغل معه ليرد ضلاله وهو يظن أن ذلك مصلحة له وهو غرض الضال ليفوت عليه بقدر تأخره، فلما مر الثاني عليه نهاه واستوقفه فوقف فدفع في نحر الضال ولم يشتغل بالقتال واستعجل ففرح منه الضال بقدر توقفه للدفع فيه ومر به الثالث فلم يلتفت إليه ولم يشتغل بدفعه ولا بقتاله بل استمر على ما كان فخاب منه رجاؤه بالكلية فمر الرابع فلم يتوقف له وأراد أن يغيظه فزاد في عجلته وترك التأني في المشي، فيوشك إن عادوا ومروا عليه مرة أخرى أن يعاود الجميع إلا هذا الأخير فإنه لا يعاوده خيفة من أن يزداد فائدة باستعجاله.

فإن قلت: فإذا كان الشيطان لا تؤمن نزغاته فهل يجب الترصد[1] له قبل حضوره للحذر منه انتظاراً لوروده أم يجب التوكل على الله ليكون هو الدافع له أو يجب الاشتغال بالعبادة والغفلة عنه؟

قلنا: اختلف الناس فيه على ثلاثة أوجه: فذهبت فرقة من أهل البصرة: إلى أن الأقوياء قد استغنوا عن الحذر من الشيطان لأنهم انقطعوا إلى الله واشتغلوا بحبه فاعتزلهم الشيطان وأيس منهم وخنس[2] عنهم كما أيس من ضعفاء العباد في الدعوة إلى الخمر والزنا فصارت ملاذ الدنيا عندهم وإن كانت مباحة كالخمر والخنزير فارتحلوا من حبها بالكلية فلم يبق للشيطان إليهم سبيل فلا حاجة بهم إلى الحذر. وذهبت فرقة من أهل الشام: إلى أن الترصد للحذر منه إنما يحتاج إليه من قل يقينه ونقص توكله فمن أيقن بأن لا شريك لله في تدبيره فلا يحذر غيره ويعلم أن الشيطان ذليل مخلوق ليس له أمر ولا يكون إلا ما أراده الله فهو الضار والنافع والعارف يستحي منه أن يحذر غيره فاليقين بالوحدانية يغنيه عن الحذر.

وقالت فرقة من أهل العلم: لا بد من الحذر من الشيطان وما ذكره البصريون من أن الأقوياء قد استغنوا عن الحذر وخلت قلوبهم عن حب الدنيا بالكلية فهو وسيلة الشيطان يكاد يكون غرورا إذ الأنبياء عليهم السلام لم يتخلصوا من وسواس الشيطان ونزغاته فكيف يتخلص غيرهم وليس كل وسواس الشيطان من الشهوات وحب الدنيا بل في صفات الله تعالى وأسمائه وفي تحسين البدع والضلال وغير ذلك ولا ينجو أحد من الخطر فيه ولذلك قال تعالى : ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [الحج :٥٢].

---

(١) الترَصُّد: الترقُّب. (التعاريف)

(٢) أي تَأَخَّرَ. (اتحاف)

www.dawateislami.net

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((إِنَّهُ لَيُغَانُّ[1] عَلَى قَلْبِيْ))[2] مع أن شيطانه قد أسلم ولا يأمره إلا بخير، فمن ظن أن اشتغاله بحب الله أكثر من اشتغال رسول الله صلى الله عليه وسلم وسائر الأنبياء عليهم السلام فهو مغرور، ولم يؤمنهم ذلك من كيد الشيطان ولذلك لم يسلم منه آدم وحواء في الجنة التي هي دار الأمن والسرور بعد أن قال الله لهما: ﴿إِنَّ هٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقٰى إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوْعَ فِيْهَا وَلَا تَعْرٰى وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيْهَا وَلَا تَضْحٰى﴾ [طه : ١١٧،١١٩] ومع أنه لم ينه إلى عن شجرة واحدة وأطلق له وراء ذلك ما أراد، فإذا لم يأمن من نبي من الأنبياء وهو في الجنة دار الأمن والسعادة من كيد الشيطان فكيف يجوز لغيره أن يأمن في دار الدنيا وهي منبع المِحَن[3] والفتن ومعدن الملاذ والشهوات المنهي عنها، وقال موسى عليه السلام فيما أخبر عنه تعالى:﴿هٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطٰنِ﴾ [القصص:١٥] ولذلك حذر الله منه جميع الخلق فقال الله تعالى: ﴿يٰبَنِيْٓ اٰدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطٰنُ كَمَآ اَخْرَجَ اَبَوَيْكُمْ مِّنَ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف:٢٧] وقال عز وجل: ﴿اِنَّهٗ يَرٰىكُمْ هُوَ وَقَبِيْلُهٗ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف:٢٧] والقرآن من أوله إلى آخره تحذير من الشيطان فكيف يدع الأمن منه ؟ وأخذ الحذر من حيث أمر الله به لا ينافي الاشتغال بحب الله.

فإن من الحب له امتثال أمره وقد أمر بالحذر من العدو كما أمر بالحذر من الكفار فقال تعالى: ﴿وَلْيَاْخُذُوْا حِذْرَهُمْ وَاَسْلِحَتَهُمْ﴾ [النساء : ١٠٢] وقال تعالى: ﴿ وَاَعِدُّوْا لَهُمْ مَّا اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ قُوَّةٍ وَّمِنْ رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال : ٦٠] فإذا ألزمك بأمر الله الحذر من العدو الكافر وأنت تراه فبأن يلزمك الحذر من عدو يراك ولا تراه أولى. ولذلك قال ابن محيريز: صيد تراه ولا يراك يوشك أن تظفر به وصيد يراك ولا تراه يوشك أن يظفر بك. فأشار إلى الشيطان فكيف وليس في الغفلة عن عداوة الكافر إلا قتل هو شهادة وفي إهمال الحذر من الشيطان التعرض للنار والعقاب الأليم؟ فليس من الاشتغال بالله الإعراض عما حذر الله. وبه يبطل مذهب الفرقة الثانية في ظنهم أن ذلك قادح في التوكل فإن أخذ التُرس[4] والسلاح وجمع الجنود وحفر الخندق لم يقدح في توكل رسول الله صلى الله عليه وسلم فكيف يقدح في التوكل الخوف مما خوف الله به والحذر مما أمر بالحذر منه...! وقد ذكرنا في كتاب التوكل ما يبين غلط من زعم أن معنى التوكل النزوع عن الأسباب بالكلية وقوله تعالى: ﴿ وَاَعِدُّوْا لَهُمْ مَّا اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ قُوَّةٍ وَّمِنْ

---

(١) أي يُغْشى. (تاج العروس)

(٢) ...صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء...الخ، باب استحباب الاستغفار...الخ، الحديث: ٢٧٠٢، ص ١٤٤٩.

(٣) المِحَنُ جمع المِحْنَة وهي التي يُمتَحَن بها الإنسانُ مِن بَلِيَّة. (تاج العروس)

(٤) الترسُ هو الذي يُصنَع للوِقاية مِن السِّهام. (شرح سنن أبي داؤد)

www.dawateislami.net

رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال:٦٠] لا يناقض امتثال التوكل مهما اعتقد القلب أن الضار والنافع والمحيي والمميت هو الله تعالى فكذلك يحذر الشيطان ويعتقد أن الهادي والمضل هو الله ويرى الأسباب وسائط مسخرة كما ذكرناه في التوكل وهذا ما اختاره الحارث المحاسبي رحمه الله وهو الصحيح الذي يشهد له نور العلم وما قبله يشبه أن يكون من كلام العباد الذين لم يغزر[١] علمهم ويظنون أن ما يهجم عليهم من الأحوال في بعض الأوقات من الاستغراق بالله يستمر على الدوام وهو بعيد.

ثم اختلفت هذه الفرقة على ثلاثة أوجه في كيفية الحذر فقال قوم: إذا حذرنا الله تعالى العدو فلا ينبغي أن يكون شيء أغلب على قلوبنا من ذكره والحذر منه والترصد له فإنا إن غفلنا عنه لحظة فيوشك أن يهلكنا. وقال قوم: إن ذلك يؤدي إلى خلو القلب عن ذكر الله واشتغال الهم كله بالشيطان وذلك مراد الشيطان منا بل نشتغل بالعبادة وبذكر الله تعالى ولا ننسى الشيطان وعداوته والحاجة إلى الحذر منه فنجمع بين الأمرين فإنا إن نسيناه ربما عرض من حيث لا نحتسب وإن تجردنا لذكره كنا قد أهملنا ذكر الله فالجمع أولى.

وقال العلماء المحققون: غلط الفريقان أما الأول فقد تجرد لذكر الشيطان ونسي ذكر الله فلا يخفى غلطه وإنما أمرنا بالحذر من الشيطان كيلا يصدنا عن الذكر فكيف نجعل ذكره أغلب الأشياء على قلوبنا وهو منتهى ضرر العدو؟ ثم يؤدي ذلك إلى خلو القلب عن نور ذكر الله تعالى فإذا قصد الشيطان مثل هذا القلب وليس فيه نور ذكر الله تعالى وقوة الاشتغال به فيوشك أن يظفر به ولا يقوى على دفعه فلم يأمرنا بانتظار الشيطان ولا بإدمان ذكره.

وأما الفرقة الثانية : فقد شاركت الأولى إذ جمعت في القلب بين ذكر الله والشيطان وبقدر ما يشتغل القلب بذكر الشيطان ينقص من ذكر الله وقد أمر الله الخلق بذكره ونسيان ما عداه إبليس وغيره فالحق أن يلزم العبد قلبه الحذر من الشيطان ويقرر على نفسه عداوته فإذا اعتقد ذلك وصدق به وسكن الحذر فيه فيشتغل بذكر الله ويُكِبّ عليه[٢] بكل الهمة ولا يخطر بباله أمر الشيطان فإنه إذا اشتغل بذلك بعد معرفة عداوته ثم خطر الشيطان له تنبه له وعند التنبه يشتغل بدفعه، والاشتغال بذكر الله لا يمنع من التيقظ عند نزغة الشيطان بل الرجل ينام وهو خائف من أن يفوته مهم[٣] عند طلوع الصبح فيلزم نفسه الحذر وينام على أن يتنبه في ذلك الوقت فيتنبه في الليل مرات قبل أوانه لما أسكن في قلبه من الحذر مع أنه

---

(١) أي لا يكثر. (اتحاف)

(٢) أي يُقبِلُ عليه. (اتحاف)

(٣) أي أمر مقصود لذاته. (اتحاف)

www.dawateislami.net

بالنوم غافل عنه فاشتغاله بذكر الله كيف يمنع تنبهه! ومثل هذا القلب هو الذي يقوى على دفع العدو إذا كان اشتغاله بمجرد ذكر الله تعالى قد أمات منه الهوى وأحيا فيه نور العقل والعلم وأماط[1] عنه ظلمة الشهوات.

فأهل البصيرة أشعروا قلوبهم عداوة الشيطان وترصده وألزموها الحذر ثم لم يشتغلوا بذكره بل بذكر الله ودفعوا بالذكر شر العدو، واستضاءوا بنور الذكر حتى صرفوا خواطر العدو فمثال القلب مثال بئر أريد تطهيرها من الماء القذر ليتفجر منها الماء الصافي فالمشتغل بذكر الشيطان قد ترك فيها الماء القذر، والذي جمع بين ذكر الشيطان وذكر الله قد نزح الماء القذر من جانب ولكنه تركه جاريا إليها من جانب آخر فيطول تعبه ولا تجف البئر من الماء القذر، والبصير هو الذي جعل لمجرى الماء القذر سداً وملأها بالماء الصافي فإذا جاء الماء القذر دفعه بالسِكر والسد[2] من غير كلفة[3] ومؤنة وزيادة تعب.

بيان الرخصة في قصد إظهار الطاعات:

اعلم أن في الإسرار للأعمال فائدة الإخلاص والنجاة من الرياء، وفي الإظهار فائدة الإقتداء وترغيب الناس في الخير، ولكن فيه آفة الرياء قال الحسن: قد علم المسلمون أن السر أحرز العملين ولكن في الإظهار أيضاً فائدة ولذلك أثنى الله تعالى على السر والعلانية فقال:﴿**إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ ۚ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ**﴾ [البقرة:٢٧١].

والإظهار قسمان : أحدهما: في نفس العمل. والآخر: بالتحدث بما عمل.

القسم الأول: إظهار نفس العمل كالصدقة في الملأ لترغيب الناس فيها كما روي عن الأنصاري الذي جاء بالصرة فتتابع الناس بالعطية لما رأوه فقال النبي صلى الله عليه وسلم:((**مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً فَعَمِلَ بِهَا كَانَ لَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنِ اتَّبَعَهُ**))[4] وتجري سائر الأعمال هذا المجرى من الصلاة والصيام والحج والغزو وغيرها، ولكن الاقتداء في الصدقة على الطباع أغلب، نعم الغازي إذا هم بالخروج فاستعد وشد الرحل قبل القوم تحريضا لهم على الحركة فذلك أفضل له لأن الغزو في أصله من أعمال العلانية لا يمكن إسراره فالمبادرة إليه ليست من الإعلان بل هو تحريض مجرد، وكذلك الرجل قد يرفع صوته في الصلاة بالليل لينبه جيرانه وأهله فيقتدي به، فكل عمل لا يمكن إسراره كالحج والجهاد والجمعة فالأفضل المبادرة إليه وإظهار الرغبة فيه للتحريض بشرط أن لا يكون فيه شوائب الرياء.

---

(١) أي أزال. (اتحاف)

(٢) يقال: سكرت النهر سكراً إذا سددته، والسكر بالكسر ما يسد به النهر. (اتحاف)

(٣) أي مشقة. (اتحاف)

(٤) ...صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة...الخ، الحديث: ١٠١٧، ص: ٥٠٨.

www.dawateislami.net

وأما ما يمكن إسراره كالصدقة والصلاة فإن كان إظهار الصدقة يؤذي المتصدق عليه ويرغب الناس في الصدقة فالسر أفضل؛ لأن الإيذاء حرام فإن لم يكن فيه إيذاء فقد اختلف الناس في الأفضل فقال قوم: السر أفضل من العلانية وإن كان في العلانية قدوة. وقال قوم: السر أفضل من علانية لا قدوة فيها، أما العلانية للقدوة فأفضل من السر ويدل على ذلك أن الله عز وجل أمر الأنبياء بإظهار العمل للاقتداء وخصهم بمنصب النبوة ولا يجوز أن يظن بهم أنهم حرموا أفضل العملين ويدل عليه قوله صلى الله عليه وسلم: ((**كَانَ لَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا**))[(١)] وقد روي في الحديث: ((**إنَّ عَمَلَ السِّرِّ يُضَاعَفُ عَلَى عَمَلِ الْعَلاَنِيَّةِ سَبْعِيْنَ ضِعْفًا وَيُضَاعَفُ عَمَلُ الْعَلاَنِيَّةِ إِذَا اسْتُنَّ بِعَامِلِهِ عَلَى عَمَلِ السِّرِّ سَبْعِيْنَ ضِعْفًا**))[(٢)] وهذا لا وجه للخلاف فيه فإنه مهما انفك القلب عن شوائب الرياء وتم الإخلاص على وجه واحد في الحالتين فما يقتدى به أفضل لا محالة، وإنما يخاف من ظهور الرياء ومهما حصلت شائبة الرياء لم ينفعه اقتداء غيره وهلك به فلا خلاف في أن السر أفضل منه، ولكن على من يظهر العمل وظيفتان:

إحداهما: أن يظهره حيث يعلم أنه يقتدى به أو يظن ذلك ظناً ورب رجل يقتدي به أهله دون جيرانه، وربما يقتدي به جيرانه دون أهل السوق، وربما يقتدي به أهل محلته وإنما العالم المعروف هو الذي يقتدي به الناس كافة، فغير العالم إذا أظهر بعض الطاعات ربما نسب إلى الرياء والنفاق وذموه ولم يقتدوا به فليس له الإظهار من غير فائدة وإنما يصح الإظهار بنية القدوة ممن هو في محل القدوة على من هو في محل الاقتداء به.

والثانية: أن يراقب قلبه فإنه ربما يكون فيه حب الرياء الخفي فيدعوه إلى الإظهار بعذر الاقتداء، وإنما شهوته التجمل بالعمل وبكونه يقتدى به، وهذا حال كل من يظهر أعماله إلا الأقوياء المخلصين وقليل ما هم. فلا ينبغي أن يخدع الضعيف نفسه بذلك فيهلك وهو لا يشعر فإن الضعيف مثاله مثال الغريق الذي يحسن سباحة ضعيفة فنظر إلى جماعة من الغرقى فرحمهم فأقبل عليهم حتى تشبثوا به فهلكوا وهلك. والغرق بالماء في الدنيا ألمه ساعة وليت كان الهلاك بالرياء مثله لا بل عذابه دائم مدة مديدة وهذه مزلة أقدام العباد والعلماء فإنهم يتشبهون بالأقوياء في الإظهار ولا تقوى قلوبهم على الإخلاص فتحبط أجورهم بالرياء والتفطن لذلك غامض، ومحك ذلك أن يعرض على نفسه أنه لو قيل له: أخف العمل حتى يقتدي الناس بعابد آخر من أقرانك ويكون لك في السر مثل أجر الإعلان فإن مال قلبه إلى أن يكون هو المقتدى به وهو المظهر للعمل، فباعثه الرياء دون طلب الأجر واقتداء الناس به ورغبتهم في الخير فإنهم قد رغبوا في الخير بالنظر إلى غيره وأجره قد توفر عليه مع إسراره فما بال

---

(١) ... صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة...الخ، الحديث: ١٠١٧، ص ٥٠٨.

(٢) ... شعب الايمان، باب في السرور بالحسنة والاغتنام، الحديث: ٧٠١٢، ٥/٣٧٦ مفهوماً.

www.dawateislami.net

قلبه يميل إلى الإظهار لولا ملاحظته لأعين الخلق ومراءاتهم فليحذر العبد خدع النفس فإن النفس خدوع والشيطان مترصد وحب الجاه على القلب غالب، وقلما تسلم الأعمال الظاهرة عن الآفات فلا ينبغي أن يعدل بالسلامة شيئا والسلامة في الإخفاء وفي الإظهار من الأخطار ما لا يقوى عليه أمثالنا، فالحذر من الإظهار أولى بنا وبجميع الضعفاء.

القسم الثاني: أن يتحدث بما فعله بعد الفراغ، وحكمه حكم إظهار العمل نفسه والخطر في هذا أشدّ لأن مؤنة النطق خفيفة على اللسان، وقد تجري في الحكاية زيادة ومبالغة وللنفس لذة في إظهار الدعاوي عظيمة، إلا أنه لو تطرق إليه الرياء لم يؤثر في إفساد العبادة الماضية بعد الفراغ منها فهو من هذا الوجه أهون، والحكم فيه أن من قوي قلبه وتم إخلاصه وصغر الناس في عينه واستوى عنده مدحهم وذمهم، وذكر ذلك عند من يرجو الاقتداء به والرغبة في الخير بسببه فهو جائز بل هو مندوب إليه إن صفت النية وسلمت عن جميع الآفات لأنه ترغيب في الخير والترغيب في الخير خير.

وقد نقل مثل ذلك عن جماعة من السلف الأقوياء قال سعد بن معاذ: ما صليت صلاة منذ أسلمت فحدثت نفسي بغيرها ولا تبعت جنازة فحدثت نفسي بغير ما هي قائلة وما هو مقول لها وما سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول قولا قط إلا علمت أنه حق.

وقال عمر رضي الله عنه: ما أبالي أصبحت على عسر أو يسر لأني لا أدري أيهما خير لي. وقال ابن مسعود: ما أصبحت على حال فتمنيت أن أكون على غيرها وقال عثمان رضي الله عنه: ما تغنيت ولا تمنيت ولا مسست ذكري بيميني منذ بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال شداد بن أوس: ما تكلمت بكلمة منذ أسلمت حتى أزمها وأخطمها[1] غير هذه، وكان قد قال لغلامه: ائتنا بالسُّفْرَةِ[2] لنعبث[3] بها حتى ندرك الغداء، وقال أبو سفيان لأهله حين حضره الموت: لا تبكوا عليّ فإني ما أحدثت ذنباً منذ أسلمت، وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى: ما قضى الله في بقضاء قط فسرني أن يكون قضى لي بغيره وما أصبح لي هوى إلا في مواقع قدر الله.

فهذا كله إظهار لأحوال شريفة وفيها غاية المراآة إذا صدرت ممن يرائي بها وفيها غاية الترغيب إذا صدرت ممن يقتدى به فذلك على قصد الاقتداء جائز للأقوياء بالشروط التي ذكرناها فلا ينبغي أن يسد باب إظهار الأعمال والطباع مجبولة على حب التشبه والاقتداء بل إظهار المرائي للعبادة إذا لم يعلم الناس أنه رياء فيه خير كثير للناس ولكنه شر للمرائي، فكم من مخلص كان سبب إخلاصه

---

(١) يقال: زم ناقته خطمها إذا حبسها بزمام أو خطام. (اتحاف)

(٢) السفرة: التي يُؤكَل عليها. (تاج العروس)

(٣) أي لنخلط. (القاموس المحيط)

www.dawateislami.net

الاقتداء بمن هو مراء عند الله وقد روي أنه كان يجتاز[1] الإنسان في سِكَكِ[2] البصرة عند الصبح فيسمع أصوات المصلين بالقرآن من البيوت فصنف بعضهم كتاباً في دقائق الرياء فتركوا ذلك وترك الناس الرغبة فيه فكانوا يقولون: ليت ذلك الكتاب لم يصنف فإظهار المرائي فيه خير كثير لغيره إذا لم يعرف رياؤه ((**إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر**))، و((**بأقوام لا خلاق لهم**))[3] كما ورد في الأخبار وبعض المرائين ممن يقتدى به منهم. والله تعالى أعلم.

بيان الرخصة في كتمان الذنوب وكراهة إطلاع الناس عليها وكراهة ذمهم له:

اعلم أن الأصل في الإخلاص استواء السريرة والعلانية كما قال عمر رضي الله عنه لرجل: عليك بعمل العلانية قال: يا أمير المؤمنين وما عمل العلانية؟ قال: ما إذا اطلع عليك لم تستحي منه. وقال أبو مسلم الخولاني: ما عملت عملاً أبالي أن يطلع الناس عليه إلا إتياني أهلي والبول والغائط، إلا أن هذه درجة عظيمة لا ينالها كل واحد ولا يخلو الإنسان عن ذنوب بقلبه أو بجوارحه وهو يخفيها ويكره اطلاع الناس عليها لا سيما ما تختلج[4] به الخواطر في الشهوات والأماني، والله مطلع على جميع ذلك فإرادة العبد لإخفائها عن العبيد ربما يظن أنه رياء محظور وليس كذلك بل المحظور أنه يستر ذلك ليرى الناس أنه ورع خائف من الله تعالى مع أنه ليس كذلك فهذا هو ستر المرائي.

وأما الصادق الذي لا يرائي فله ستر المعاصي ويصح قصده فيه، ويصح اغتمامه باطلاع الناس عليه من ثمانية أوجه.

الأول: أن يفرح بستر الله عليه وإذا افتضح اغتم بهتك الله ستره وخاف أن يهتك ستره في القيامة إذ ورد في الخبر: ((**أن من ستر الله عليه في الدنيا ذنباً ستره الله عليه في الآخرة**))[5] وهذا غم ينشأ من قوة الإيمان.

الثاني: أنه قد علم أن الله تعالى يكره ظهور المعاصي ويحب سترها كما قال صلى الله عليه وسلم: ((**مَنِ ارْتَكَبَ شَيْئًا مِنَ هَذِهِ الْقَاذُوْرَاتِ**[6] **فَلْيَسْتَتِرْ بِسِتْرِ اللهِ**))[7] فهو وإن عصى الله بالذنب فلم

---

(١) أي يمر. (اتحاف)

(٢) السِكَّةُ الزُقاق والجمع سِكَكٌ. (المصباح المنير)

(٣) ...صحيح البخاري، كتاب القدر، باب العمل بالخواتيم، الحديث: ٦٢٠٦، ٤/٢٤٤.

(٤) أي تَتَحَرَّك وتَضْطَرِب. (تاج العروس)

(٥) ...صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب بشارة من ستر الله...الخ، الحديث: ٢٥٩٠، ص: ١٣٩٧.

(٦) **القاذورات**: جمع قاذُورَةٍ، والمراد بها الفعل القبيح والقول السيء التي نهى الله تعالى عنها. (لسان العرب وغيره)

(٧) ...المؤطا للامام مالك، كتاب الحدود، باب ماجاء فيمن اعترف...الخ، الحديث: ١٥٨٨، ٢/٣٣٦.

www.dawateislami.net

يخل قلبه عن محبة ما أحبه الله وهذا ينشأ من قوة الإيمان بكراهة الله لظهور المعاصي وأثر الصدق فيه أن يكره ظهور الذنب من غيره أيضاً ويغتم بسببه.

الثالث: أن يكره ذم الناس له به من حيث أن ذلك يغمه ويشغل قلبه وعقله عن طاعة الله تعالى، فإن الطبع يتأذى بالذم وينازع العقل ويشغل عن الطاعة وبهذه العلة أيضا ينبغي أن يكره الحمد الذي يشغله عن ذكر الله تعالى ويستغرق قلبه ويصرفه عن الذكر وهذا أيضاً من قوة الإيمان إذ صدق الرغبة في فراغ القلب لأجل الطاعة من الإيمان.

الرابع: أن يكون ستره ورغبته فيه لكراهته لذم الناس من حيث يتأذى طبعه فإن الذم مؤلم للقلب كما أن الضرب مؤلم للبدن، وخوف تألم القلب بالذم ليس بحرام ولا الإنسان به عاص وإنما يعصي إذا جزعت نفسه من ذم الناس ودعته إلى ما لا يجوز حذراً من ذمهم وليس يجب على الإنسان أن لا يغتم بذم الخلق ولا يتألم به، نعم كمال الصدق في أن تزول عنه رؤيته للخلق فيستوي عنده ذامه ومادحه لعلمه أن الضار والنافع هو الله وأن العباد كلهم عاجزون وذلك قليل جداً، وأكثر الطباع تتألم بالذم لما فيه من الشعور بالنقصان ورب تألم بالذم محمود إذا كان الذام من أهل البصيرة في الدين فإنهم شهداء الله وذمهم يدل على ذم الله تعالى وعلى نقصان في الدين فكيف لا يغتم به! نعم الغم المذموم هو أن يغتم لفوات الحمد بالورع كأنه يحب أن يحمد بالورع، ولا يجوز أن يحب أن يحمد بطاعة الله فيكون قد طلب بطاعة الله ثواباً من غيره فإن وجد ذلك في نفسه وجب عليه أن يقابله بالكراهة والرد.

وأما كراهة الذم بالمعصية من حيث الطبع فليس بمذموم فله الستر حذراً من ذلك، ويتصور أن يكون العبد بحيث لا يحب الحمد ولكن يكره الذم وإنما مراده أن يتركه الناس حمداً وذماً، فكم من صابر عن لذة الحمد لا يصبر على ألم الذم؛ إذ الحمد يطلب اللذة وعدم اللذة لا يؤلم، وأما الذم فإنه مؤلم فحب الحمد على الطاعة طلب ثواب على الطاعة في الحال، وأما كراهة الذم على المعصية فلا محذور فيه إلا أمر واحد وهو أن يشغله غمه باطلاع الناس على ذنبه عن اطلاع الله فإن ذلك غاية النقصان في الدين بل ينبغي أن يكون غمه باطلاع الله وذمه له أكثر.

الخامس: أن يكره الذم من حيث إن الذام قد عصى الله تعالى به وهذا من الإيمان، وعلامته أن يكره ذمه لغيره أيضاً فهذا التوجع لا يفرق بينه وبين غيره بخلاف التوجع من جهة الطبع.

السادس: أن يستر ذلك كيلا يقصد بشر إذا عرف ذنبه وهذا وراء ألم الذم، فإن الذم مؤلم من حيث يشعر القلب بنقصانه وخسته وإن كان ممن يؤمن شره، وقد يخاف شر من يطلع على ذنبه بسبب من الأسباب فله أن يستر ذلك حذراً منه.

www.dawateislami.net

السابع: مجرد الحياء فإنه نوع ألم وراء ألم الذم والقصد بالشر وهو خلق كريم يحدث في أول الصبا مهما أشرق عليه نور العقل فيستحي من القبائح إذا شوهدت منه وهو وصف محمود؛ إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((**الحَيَاءُ خَيْرٌ كُلُّهُ**))[1] وقال صلى الله عليه وسلم : ((**الحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيْمَانِ**))[2] وقال صلى الله عليه وسلم : ((**الحَيَاءُ لاَ يَأْتِيْ إِلاَّ بِخَيْرٍ**))[3] وقال صلى الله عليه وسلم :((**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْحَيِيَّ الْحَلِيْمَ**))[4] فالذي يفسق ولا يبالي أن يظهر فسقه للناس جمع إلى الفسق التهتك والوقاحة[5] وفقد الحياء، فهو أشد حالاً ممن يستتر ويستحيي، إلا أن الحياء ممتزج بالرياء ومشتبه به اشتباهاً عظيماً قل من يتفطن له، ويدعي كل مراء أنه مستحي وأن سبب تحسينه العبادات هو الحياء من الناس وذلك كذب، بل الحياء خلق ينبعث من الطبع الكريم وتهيج عقيبه داعية الرياء وداعية الإخلاص ويتصور أن يخلص معه ويتصور أن يرائي معه.

وبيانه أن الرجل يطلب من صديق له قرضاً ونفسه لا تسخو بإقراضه إلا أنه يستحي من رده وعلم أنه لو راسله على لسان غيره لكان لا يستحيي ولا يقرض رياء ولا لطلب الثواب فله عند ذلك أحوال. إحداها: أن يشافه[6] بالرد الصريح ولا يبالي فينسب إلى قلة الحياء وهذا فعل من لا حياء له فإن المستحيي إما أن يتعلل[7] أو يقرض فإن أعطى فيتصور له ثلاثة أحوال:

أحدها: أن يمزج الرياء بالحياء بأن يهيج الحياء فيقبح عنده الرد فيهيج خاطر الرياء ويقول: ينبغي أن تعطي حتى يثني عليك ويحمدك وينشر اسمك بالسخاء أو ينبغي أن تعطي حتى لا يذمك ولا ينسبك إلى البخل فإذا أعطى فقد أعطى بالرياء وكان المحرك للرياء هو هيجان الحياء.

الثاني: أن يتعذر عليه الرد بالحياء ويبقى في نفسه البخل فيتعذر الإعطاء فيهيج داعي الإخلاص ويقول له: إن الصدقة بواحدة والقرض بثمان عشرة ففيه أجر عظيم وإدخال سرور على قلب صديق وذلك محمود عند الله تعالى فتسخو النفس بالإعطاء لذلك، فهذا مخلص هيج الحياء إخلاصه.

---

(١) ...صحيح مسلم، كتاب الايمان، باب بيان عدد شعب الايمان...الخ، الحديث: ٣٧، ص: ٤٠.

(٢) ...صحيح البخاري، كتاب الايمان، باب امور الايمان، الحديث: ٩، ١/١٥.

(٣) ...صحيح البخاري، كتاب الادب، باب الحياء، الحديث: ٦١١٧، ٤/١٣١.

(٤) ...المصنف لابن ابي شيبة، كتاب الادب، باب ما ذكر في الحياء وما جاء فيه، الحديث: ٦، ٦/٩٢.

(٥) **الوقاحة**: صلابة الوجه. (اتحاف)

(٦) أي يواجه. (اتحاف)

(٧) أي يعتذر ويتعلق بذكر علة مانعة له من الإقراض. (اتحاف)

www.dawateislami.net

الثالث: أن لا يكون له رغبة في الثواب ولا خوف من مذمته ولا حب لمحمدته لأنه لو طلبه مراسلة لكان لا يعطيه فأعطاه بمحض الحياء وهو ما يجده في قلبه من ألم الحياء ولولا الحياء لرده، ولو جاءه من لا يستحي منه من الأجانب أو الأراذل لكان يرده وإن كثر الحمد والثواب فيه فهذا مجرد الحياء ولا يكون هذا إلا في القبائح كالبخل ومقارفة الذنوب[1]، والمرائي يستحي من المباحات أيضاً حتى إنه يرى مستعجلاً في المشي فيعود إلى الهدو[2] أو ضاحكاً فيرجع إلى الانقباض ويزعم أن ذلك حياء وهو عين الرياء. وقد قيل: إن بعض الحياء ضعف وهو صحيح والمراد به الحياء مما ليس بقبيح كالحياء من وعظ الناس وإمامة الناس في الصلاة وهو في الصبيان والنساء محمود وفي العقلاء غير محمود. وقد تشاهد معصية من شيخ فتستحي من شيبته أن تنكر عليه لأن من إجلال الله إجلال ذي الشيبة المسلم وهذا الحياء حسن وأحسن منه أن يستحي من الله فلا تضيع الأمر بالمعروف فالقوي يؤثر الحياء من الله على الحياء من الناس، والضعيف قد لا يقدر عليه فهذه هي الأسباب التي يجوز لأجلها ستر القبائح والذنوب.

الثامن: أن يخاف من ظهور ذنبه أن يستجرئ عليه غيره ويقتدى به وهذا العلة الواحدة فقط هي الجارية في إظهار الطاعة وهو القدوة ويختص ذلك بالأئمة أو بمن يقتدى به وبهذه العلة ينبغي أيضاً أن يخفي العاصي أيضاً معصيته من أهله وولده لأنهم يتعلمون منه.

ففي ستر الذنوب هذه الأعذار الثمانية وليس في إظهار الطاعة عذر إلا هذا العذر الواحد ومهما قصد بستر المعصية أن يخيل إلى الناس أنه ورع كان مرائياً كما إذا قصد ذلك بإظهار الطاعة.

فإن قلت: فهل يجوز للعبد أن يحب حمد الناس له بالصلاح وحبهم إياه بسببه وقد قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم: دلني على ما يحبني الله عليه ويحبني الناس قال: ((**ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبُّكَ اللهُ وَانْبُذْ إِلَيْهِمْ هَذا الحُطَامَ يُحِبُّوْكَ**))[3].

فنقول: حبك لحب الناس لك قد يكون مباحاً وقد يكون محموداً وقد يكون مذموماً. فالمحمود: أن تحب ذلك لتعرف به حب الله لك، فإنه تعالى إذا أحب عبداً حببه في قلوب عباده.[4] والمذموم: أن تحب حبهم وحمدهم على حجك وغزوك وصلاتك وعلى طاعة بعينها فإن ذلك طلب عوض على طاعة

---

(١) أي ملابستها. (تاج العروس)

(٢) أي السكون. (تاج العروس)

(٣) ...حلية الاولياء، ابراهيم بن ادهم، الحديث: ١١٣٢٢-١١٣٢٣، ٨/٤٢-٤٣.

(٤) عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «إذا أحب الله العبدَ نادى جبريلَ إن الله يحب فلاناً فأحبه. فيحبه جبريلُ، فينادي جبريلُ فى أهل السماء إن الله يحب فلانا فأحبوه. فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول فى الأرض» (متفق عليه) [علمية]

www.dawateislami.net

الله عاجل سوى ثواب الله. والمباح: أن تحب أن يحبوك لصفات محمودة سوى الطاعات المحمودة المعينة فحبك ذلك كحبك المال لأن ملك القلوب وسيلة إلى الأغراض كملك الأموال فلا فرق بينهما.

بيان ترك الطاعات خوفاً من الرياء ودخول الآفات:

اعلم أن من الناس من يترك العمل خوفا من أن يكون مرائياً به وذلك غلط وموافقة للشيطان بل الحق فيما يترك من الأعمال وما لا يترك لخوف الآفات ما نذكره.

وهو أن الطاعات تنقسم إلى: ما لا لذة في عينه كالصلاة والصوم والحج والغزو فإنها مقاساة ومجاهدات إنما تصير لذيذة من حيث إنها توصل إلى حمد الناس، وحمد الناس لذيذ، وذلك عند اطلاع الناس عليه. وإلى: ما هو لذيذ وهو أكثر ما لا يقتصر على البدن بل يتعلق بالخلق كالخلافة والقضاء والولايات والحسبة وإمامة الصلاة والتذكير والتدريس وإنفاق المال على الخلق وغير ذلك مما تعظم الآفة فيه لتعلقه بالخلق ولما فيه من اللذة.

القسم الأول: الطاعات اللازمة للبدن التي لا تتعلق بالغير ولا لذة في عينها كالصوم والصلاة والحج، فخطرات الرياء فيها ثلاث:

إحداها: ما يدخل قبل العمل فيبعث على الابتداء لرؤية الناس وليس معه باعث الدين، فهذا مما ينبغي أن يترك لأنه معصية لا طاعة فيه فإنه تدرع بصورة الطاعة إلى طلب المنزلة. فإن قدر الإنسان على أن يدفع عن نفسه باعث الرياء ويقول لها: ألا تستحيين من مولاك لا تسخين بالعمل لأجله، وتسخين بالعمل لأجل عباده، حتى يندفع باعث الرياء وتسخو النفس بالعمل لله عقوبة للنفس على خاطر الرياء وكفارة له فليشتغل بالعمل.

الثانية: أن ينبعث لأجل الله ولكن يعترض الرياء مع عقد العبادة وأولها. فلا ينبغي أن يترك العمل لأنه وجد باعثاً دينياً فليشرع في العمل وليجاهد نفسه في دفع الرياء وتحسين الإخلاص بالمعالجات التي ذكرناها من إلزام النفس كراهة الرياء والإباء عن القبول.

الثالثة: أن يعقد على الإخلاص، ثم يطرأ الرياء ودواعيه فينبغي أن يجاهد في الدفع ولا يترك العمل لكي يرجع إلى عقد الإخلاص ويرد نفسه إليه قهراً حتى يتمم العمل لأن الشيطان يدعوك أولاً إلى ترك العمل فإذا لم تجب واشتغلت فيدعوك إلى الرياء فإذا لم تجب ودفعت بقي يقول لك: هذا العمل ليس بخالص وأنت مراء وتعبك ضائع فأيّ فائدة لك في عمل لا إخلاص فيه؟ حتى يحملك بذلك على ترك العمل فإذا تركته فقد حصلت غرضه.

www.dawateislami.net

ومثال من يترك العلم لخوفه أن يكون مرائياً كمن سلم إليه مولاه حنطة فيها زؤان[1] وقال: خلصها من الزؤان ونقها منه تنقية بالغة فيترك أصل العمل ويقول: أخاف إن اشتغلت به لم تخلص خلاصاً صافياً نقياً فترك العمل من أجله. وهو ترك الإخلاص مع أصل العمل فلا معنى له .

ومن هذا القبيل أن يترك العمل خوفاً على الناس أن يقولوا إنه مراء فيعصون الله به فهذا من مكايد الشيطان لأنه أولاً أساء الظن بالمسلمين وما كان من حقه أن يظن بهم ذلك، ثم إن كان فلا يضره قولهم ويفوته ثواب العبادة. وترك العمل خوفاً من قولهم إنه مراء هو عين الرياء فلولا حبه لمحمدتهم وخوفه من ذمهم فماله ولقولهم قالوا إنه مراء أو قالوا إنه مخلص؟ وأيّ فرق بين أن يترك العمل خوفاً من أن يقال إنه مراء وبين أن يحسن العمل خوفا من أن يقال إنه غافل مقصر؟ بل ترك العمل أشد من ذلك.

فهذه كلها مكايد الشيطان على العباد الجهال. ثم كيف يطمع في أن يتخلص من الشيطان بأن يترك العمل والشيطان لا يخليه بل يقول له: الآن يقول الناس إنك تركت العمل ليقال إنه مخلص لا يشتهي الشهرة. فيضطرك بذلك إلى أن تهرب فإن هربت ودخلت سرباً تحت الأرض ألقى في قلبك حلاوة معرفة الناس لتزهدك وهربك منهم، وتعظيمهم لك بقلوبهم على ذلك فكيف تتخلص منه؟ بل لا نجاة منه إلا بأن تلزم قلبك معرفة آفة الرياء وهو أنه ضرر في الآخرة ولا نفع فيه في الدنيا لتلزم الكراهة والإباء قلبك وتستمر مع ذلك على العمل ولا تبالي، وإن نزغ[2] العدو نازغ الطبع فإن ذلك لا ينقطع، وترك العمل لأجل ذلك يجر إلى البطالة وترك الخيرات.

فما دمت تجد باعثاً دينياً على العمل، فلا تترك العمل وجاهد خاطر الرياء، وألزم قلبك الحياء من الله إذا دعتك نفسك إلى أن تستبدل بحمده حمد المخلوقين وهو مطلع على قلبك، ولو اطلع الخلق على قلبك وأنك تريد حمدهم لمقتوك، بل إن قدرت على أن تزيد في العمل حياء من ربك وعقوبة لنفسك فافعل، فإن قال لك الشيطان: أنت مراء فاعلم كذبه وخدعه بما تصادف[3] في قلبك من كراهة الرياء وإبائه، وخوفك منه، وحيائك من الله تعالى.

وإن لم تجد في قلبك له كراهية ومنه خوفاً ولم يبق باعث ديني بل تجرد باعث الرياء فاترك العمل عند ذلك وهو بعيد فمن شرع في العمل لله فلا بد أن يبقى معه أصل قصد الثواب.

---

(١) وهو حب يخالط البر فيكسبه الرداءة وفيه لغات ضم الزاي مع الهمز وتركه فيكون وزن غراب، وكسر الزاي مع الواو الواحدة زِوانَة ويسمى السليم. (اتحاف)

(٢) أي قلع. (المصباح المنير)

(٣) أي تلاقى. (فيض القدير)

www.dawateislami.net

فإن قلت: فقد نقل عن أقوام ترك العمل مخافة الشهرة روي أن إبراهيم النخعي دخل عليه إنسان وهو يقرأ، فأطبق المصحف وترك القراءة وقال: لا يرى هذا أنا نقرأ كل ساعة. وقال إبراهيم التيمي: إذا أعجبك الكلام فاسكت وإذا أعجبك السكوت فتكلم. وقال الحسن: إن كان أحدهم ليمر بالأذى ما يمنعه من دفعه إلا كراهة الشهرة وكان أحدهم يأتيه البكاء فيصرفه إلى الضحك مخافة الشهرة وقد ورد في ذلك آثار كثيرة.

قلنا: هذا يعارضه ما ورد من إظهار الطاعات ممن لا يحصى وإظهار الحسن البصري هذا الكلام في معرض الوعظ أقرب إلى خوف الشهرة من البكاء وإماطة الأذى عن الطريق ثم لم يتركه.

وبالجملة: ترك النوافل جائز، والكلام في الأفضل، والأفضل إنما يقدر عليه الأقوياء دون الضعفاء فالأفضل أن يتمم العمل ويجتهد في الإخلاص ولا يتركه وأرباب الأعمال قد يعالجون أنفسهم بخلاف الأفضل لشدة الخوف فالاقتداء ينبغي أن يكون بالأقوياء وأما إطباق إبراهيم النخعي المصحف فيمكن أن يكون لعلمه بأنه سيحتاج إلى ترك القراءة عند دخوله واستئنافه بعد خروجه للاشتغال بمكالمته فرأى أن لا يراه في القراءة أبعد عن الرياء وهو عازم على الترك للاشتغال به حتى يعود إليه بعد ذلك. وأما ترك دفع الأذى فذلك ممن يخاف على نفسه آفة الشهرة وإقبال الناس عليه وشغلهم إياه عن عبادات هي أكبر من رفع خشبة من الطريق فيكون ترك ذلك للمحافظة على عبادات هي أكبر منها لا بمجرد خوف الرياء. وأما قول التيمي: إذا أعجبك الكلام فاسكت، يجوز أن يكون قد أراد به مباحات الكلام كالفصاحة في الحكايات وغيرها، فإن ذلك يورث العجب وكذلك العجب بالسكوت المباح محذور فهو عدول عن مباح إلى مباح حذراً من العجب. فأما الكلام الحق المندوب إليه فلم ينص عليه على أن الآفة مما تعظم في الكلام فهو واقع في القسم الثاني وإنما كلامنا في العبادات الخاصة ببدن العبد مما لا يتعلق بالناس ولا تعظم فيه الآفات ثم كلام الحسن في تركهم البكاء وإماطة الأذى لخوف الشهرة ربما كان حكاية أحوال الضعفاء الذين لا يعرفون الأفضل ولا يدركون هذه الدقائق، وإنما ذكره تخويفاً للناس من آفة الشهرة وزجراً عن طلبها.

القسم الثاني: ما يتعلق بالخلق وتعظم فيه الآفات والأخطار، وأعظمها الخلافة ثم القضاء[1] ثم التذكير والتدريس والفتوى ثم إنفاق المال.

أما الخلافة والإمارة: فهي من أفضل العبادات إذا كان ذلك مع العدل والإخلاص وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم:.....

(١) الخلافة: الولاية العامة، والقضاء: الولاية الخاصة. (اتحاف)

www.dawateislami.net

((**لَيَوْمٌ مِنْ إِمَامٍ عَادِلٍ خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ الرَّجُلِ وَحْدَهُ سِتِّيْنَ عَاماً**))[1] فأعظم بعبادة يوازي يوم منها عبادة ستين سنة! وقال صلى الله عليه وسلم: ((**أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ ثَلاَثَةٌ: الإِمَامُ الْمُقْسِطُ**))[2] أحدهم. وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((**ثَلاَثَةٌ لَا تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ الْإِمَامُ الْعَادِلُ**[3]))[4] أحدهم. وقال صلى الله عليه وسلم: ((**أَقْرَبُ النَّاسِ مِنِّي مَجْلِساً يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِمَامٌ عَادِلٌ**))[5] رواه أبو سعيد الخدري. فالإمارة والخلافة من أعظم العبادات ولم يزل المتقون يتركونها ويحترزون منها ويهربون من تقلدها وذلك لما فيه من عظيم الخطر، إذ تتحرك بها الصفات الباطنة ويغلب على النفس حب الجاه ولذة الاستيلاء ونفاذ الأمر وهو أعظم ملاذ الدنيا، فإذا صارت الولاية محبوبة كان الوالي ساعياً في حظ نفسه، ويوشك أن يتبع هواه فيمتنع من كل ما يقدح في جاهه وولايته، وإن كان حقاً، ويقدم على ما يزيد في مكانته وإن كان باطلاً، وعند ذلك يهلك ويكون يوم من سلطان جائر شراً من فسق ستين سنة بمفهوم الحديث الذي ذكرناه. ولهذا الخطر العظيم كان عمر رضي الله عنه يقول: من يأخذها بما فيها، وكيف لا وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((**مَا مِنْ وَالِي عَشَرَةٍ إِلاَّ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَغْلُولَةٌ يَدُهُ إِلَى عُنُقِه أَطْلَقَهُ عَدْلُهُ أَوْ أَوْبَقَه**[6] **جَوْرُهُ**))[7] رواه معقل بن يسار وولاه عمر ولاية فقال: يا أمير المؤمنين أشر عليّ قال: اجلس واكتم علي. وروى الحسن أن رجلاً ولاه النبي صلى الله عليه وسلم فقال للنبي خر لي قال: ((**اجْلِسْ**))[8] وكذلك حديث عبد الرحمن بن سمرة إذ قال له النبي صلى الله عليه وسلم: ((**يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ لاَ تَسْأَلِ الإِمَارَةَ فَإِنَّكَ إِنْ أُوتِيتَهَا مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا وَإِنْ أُوتِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وُكِلْتَ إِلَيْهَا**))[9].وقال أبو بكر رضي الله عنه لرافع بن عمر: لا تأمر على اثنين ثم ولي هو الخلافة فقام بها فقال له رافع: أ لم تقل لي لا تأمر على اثنين وأنت قد وليت أمر

---

(١) ...المعجم الكبير، الحديث: ١١٩٣٢، ١١/٣٣٧.

(٢) ...صحيح مسلم، كتاب الجنة...الخ، باب الصفات التي يعرف بها...الخ، الحديث: ٢٨٦٥، ص: ١٥٣٢ بتغير.

(٣) وتمام الحديث: «ثلاثةٌ لا تُرَدُّ دَعْوَتُهم الصَّائمُ حتّى يُفطرَ، والإمامُ العَادِل، ودَعْوةُ المَظْلوم يَرْفَعها اللهُ فَوقَ الغَمام ويَفتَحُ لها أبوابَ السّماءِ ويَقولُ الرَّبُّ تَبارَكَ وتَعالى: وَعِزَّتي وَجَلالي لأَنْصُرَنَّكَ وَلَو بَعدَ حِين». (سنن الترمذي كتاب الدعوات عن رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى اللهُ تَعالى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ باب في العفو والعافية)

(٤) ...سنن ابن ماجه، كتاب الصيام، باب في الصائم لا ترد دعوته، الحديث: ١٧٥٢، ٢/٣٤٩.

(٥) ...المسند للامام احمد بن حنبل، مسند ابي سعيد الخدري، الحديث: ١١١٧٤، ٤/٦٤.

(٦) أي أهلكه. (لسان العرب)

(٧) ...المسند للامام احمد بن حنبل، مسند ابي هريرة، الحديث: ٩٥٧٩، ٣/٤٢٥.

(٨) ...المصنف لعبد الرزاق، كتاب الجامع، باب الامام راع، الحديث: ٢٠٨١٩، ١٠/٢٨٢.

(٩) ...صحيح البخاري، كتاب الايمان والنذور، باب قول الله تعالى...الخ، الحديث: ٦٦٢٢، ٤/٢٨١ بتقدم وتاخر.

www.dawateislami.net

أمة محمد صلى الله عليه وسلم؟ فقال: بلى وأنا أقول لك ذلك فمن لم يعدل فيها فعليه بهلة الله، يعني لعنة الله. ولعل القليل البصيرة يرى ما ورد من فضل الإمارة مع ما ورد من النهي عنها متناقضاً وليس كذلك، بل الحق فيه أن الخواص الأقوياء في الدين لا ينبغي أن يمتنعوا من تقلد الولايات، وأن الضعفاء لا ينبغي أن يدوروا بها فيهلكوا، وأعني بالقوي الذي لا تميله الدنيا ولا يستفزه[1] الطمع ولا تأخذه في الله لومة لائم، وهم الذين سقط الخلق عن أعينهم وزهدوا في الدنيا وتبرموا بها وبمخالطة الخلق وقهروا أنفسهم وملكوها وقمعوا الشيطان فأيس منهم، فهؤلاء لا يحركهم إلا الحق ولا يسكنهم إلا الحق ولو زهقت فيهم أرواحهم فهم أهل نيل الفضل في الإمارة والخلافة ومن علم أنه ليس بهذه الصفة فيحرم عليه الخوض في الولايات.

ومن جرب نفسه فرآها صابرة على الحق كافة عن الشهوات في غير الولايات، ولكن خاف عليها أن تتغير إذا ذاقت لذة الولاية وأن تستحلي الجاه وتستلذ نفاذ الأمر فتكره العزل فيداهن خيفة من العزل، فهذا قد اختلف العلماء في أنه هل يلزمه الهرب من تقلد الولاية؟ فقال قائلون: لا يجب لأن هذا خوف أمر في المستقبل وهو في الحال لم يعهد نفسه إلا قوية في ملازمة الحق وترك لذات النفس، والصحيح أن عليه الاحتراز؛ لأن النفس خداعة مدعية للحق واعدة بالخير فلو وعدت بالخير جزماً لكان يخاف عليها أن تتغير عند الولاية، فكيف إذا أظهرت التردد؟ والامتناع عن قبول الولاية أهون من العزل بعد الشروع فالعزل مؤلم وهو كما قيل: العزل طلاق الرجال، فإذا شرع لا تسمح نفسه بالعزل وتميل نفسه إلى المداهنة[2] وإهمال الحق وتهوي به في قعر جهنم، ولا يستطيع النزوع منه إلى الموت إلا أن يعزل قهراً وكان فيه عذاب عاجل على كل محب للولاية. ومهما مالت النفس إلى طلب الولاية وحملت على السؤال والطلب فهو أمارة الشر ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: ((**إِنَّا لا نُوَلِّي أَمَرَنَا مَن سَأَلَنَا**))[3] فإذا فهمت اختلاف حكم القوي والضعيف علمت أن نهي أبي بكر رافعا عن الولاية ثم تقلده لها ليس بمتناقض.

وأما القضاء: فهو وإن كان دون الخلافة والإمارة فهو في معناهما فإن كل ذي ولاية أمير أي له أمر نافذ والإمارة محبوبة بالطبع والثواب في القضاء عظيم مع اتباع الحق والعقاب فيه أيضاً عظيم مع العدول عن الحق وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((**الْقُضَاةُ ثَلَاثَةٌ: قَاضِيَانِ فِي النَّارِ وَقَاضٍ فِي الْجَنَّةِ**))[4] وقال صلى الله عليه وسلم:.....

---

(١) أي لا يحركه ولا يحمله. (اتحاف)

(٢) أي المصانعة وقيل: إظهار خلاف ما يضمر. (لسان العرب)

(٣) ... صحيح مسلم، كتاب الامارة، باب النهي عن طلب الامارة... الخ، الحديث: ١٨٢٤، ص: ١٠١٤.

(٤) ... سنن الترمذي، كتاب الاحكام، باب ماجاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في القاضي، الحديث: ١٣٢٧، ٣/٦٠.

www.dawateislami.net

((مَنِ اسْتُقْضِيَ فَقَدْ ذُبِحَ بِغَيْرِ سِكِّينٍ[1]))[2] فحكمه حكم الإمارة ينبغي أن يتركه الضعفاء وكل من للدنيا ولذاتها وزن[3] في عينه، وليتقلده الأقوياء الذين لا تأخذهم في الله لومة لائم. ومهما كان السلاطين ظلمة ولم يقدر القاضي على القضاء إلا بمداهنتهم وإهمال بعض الحقوق لأجلهم ولأجل المتعلقين بهم؛ إذ يعلم أنه لو حكم عليهم بالحق لعزلوه أو لم يطيعوه فليس له أن يتقلد القضاء وإن تقلد فعليه أن يطالبهم بالحقوق ولا يكون خوف العزل عذراً مرخصاً له في الإهمال أصلاً بل إذا عزل سقطت العهدة عنه فينبغي أن يفرح بالعزل إن كان يقضي لله فإن لم تسمح نفسه بذلك فهو إذن يقضي لاتباع الهوى والشيطان فكيف يرتقب عليه ثواباً وهو مع الظلمة في الدرك الأسفل من النار.

وأما الوعظ والفتوى والتدريس ورواية الحديث وجمع الأسانيد العالية وكل ما يتسع بسببه الجاه ويعظم به القدر فآفته أيضاً عظيمة مثل آفة الولايات، وقد كان الخائفون من السلف يتدافعون الفتوى ما وجدوا إليه سبيلاً وكانوا يقولون: حدثنا باب من أبواب الدنيا، ومن قال: حدثنا فقد قال أوسعوا لي. ودفن بشر كذا وكذا قِمَطْرَةً[4] من الحديث. وقال: يمنعني من الحديث أن أشتهي أن أحدث، ولو اشتهيت أن لا أحدث لحدثت.

والواعظ يجد في وعظه وتأثر قلوب الناس به وتلاحق بكائهم وزعقاتهم[5] وإقبالهم عليه لذة لا توازيها لذة، فإذا غلب ذلك على قلبه مال طبعه إلى كل كلام مزخرف يروج عند العوام وإن كان باطلاً ويفر عن كل كلام يستثقله العوام وإن كان حقاً، ويصير مصروف الهمة بالكلية إلى ما يحرك قلوب العوام ويعظم منزلته في قلوبهم فلا يسمع حديثاً وحكمة إلا ويكون فرحه به من حيث إنه يصلح لأن يذكره على رأس المنبر، وكان ينبغي أن يكون فرحه به من حيث إنه عرف طريق السعادة وطريق سلوك سبيل الدين ليعمل به أولاً، ثم يقول: إذا أنعم الله عليَّ بهذه النعمة ونفعني بهذه الحكمة فأقصها ليشاركني في نفعها إخواني المسلمون. فهذا أيضاً مما يعظم فيه الخوف والفتنة فحكمه حكم الولايات، فمن لا باعث له إلا طلب الجاه والمنزلة والأكل بالدين والتفاخر والتكاثر فينبغي أن يتركه ويخالف الهوى فيه إلى أن ترتاض نفسه وتقوى في الدين همته ويأمن على نفسه الفتنة فعند ذلك يعود إليه.

---

(١) إشارة إلى أن محذوره الخوف من هلاك الدين دون البدن إذ الذبح في ظاهر العرف إنما هو بالسكين، أو إلى شدة الألم لكون الذبح بغير سكين إما بالخنق أو التعذيب، والذبح بالسكين أروح، والله أعلم. (اتحاف)

(٢) ...الكامل في ضعفاء الرجال، الرقم: ٢٣٤، داود بن الزبرقان، ج ٣/ ٥٦٩.

(٣) أي مقام ومنزلة. (اتحاف)

(٤) ما يُصَانُ فِيها الكُتُبُ. (تاج العروس)

(٥) أي صياحهم. (تاج العروس)

www.dawateislami.net

فإن قلت: مهما حكم بذلك على أهل العلم تعطلت العلوم واندرست وعم الجهل كافة الخلق؟

فنقول: قد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن طلب الإمارة وتوعد عليها حتى قال: ((**إِنَّكُمْ تَحْرُصُوْنَ عَلَى الإِمَارَةِ وَإِنَّهَا حَسْرَةٌ وَنَدَامَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلاَّ مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا**))[1] وقال: ((**نِعْمَتِ الْمُرْضِعَةُ وَبِئْسَتِ الْفَاطِمَةُ**[2]))[3] ومعلوم أن السلطنة والإمارة لو تعطلت لبطل الدين والدنيا جميعاً، وثار القتال بين الخلق، وزال الأمن، وخربت البلاد، وتعطلت المعايش، فلم نهي عنها مع ذلك؟ وضرب عمر رضي الله عنه أبيّ بن كعب حين رأى قوماً يتبعونه وهو في ذلك يقول: أبي سيد المسلمين. وكان يقرأ عليه القرآن فمنع من أن يتبعوه وقال: ذلك فتنة على المتبوع ومذلة على التابع، وعمر كان بنفسه يخطب ويعظ ولا يمتنع منه.

واستأذن رجل عمر أن يعظ الناس إذا فرغ من صلاة الصبح فمنعه فقال: أتمنعني من نصح الناس؟ فقال: أخشى أن تتفخ حتى تبلغ الثريا إذ رأى فيه مخايل[4] الرغبة في جاه الوعظ وقبول الخلق. والقضاء والخلافة مما يحتاج الناس إليه في دينهم كالوعظ والتدريس والفتوى وفي كل واحد منهما فتنة ولذة فلا فرق بينهما.

فأما قول القائل: نهيك عن ذلك يؤدي إلى اندراس العلم فهو غلط إذ نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القضاء لم يؤد إلى تعطيل القضاء. بل الرياسة وحبها يضطر الخلق إلى طلبها وكذلك حب الرياسة لا يترك العلوم تندرس بل لو حبس الخلق وقيدوا بالسلاسل والأغلال من طلب العلوم التي فيها القبول والرياسة لأفلتوا من الحبس وقطعوا السلاسل وطلبوها. وقد وعد الله أن يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم فلا تشغل قلبك بأمر الناس فإن الله لا يضيعهم وانظر لنفسك.

ثم إني أقول مع هذا إذا كان في البلد جماعة يقومون بالوعظ مثلاً فليس في النهي عنه إلا امتناع بعضهم وإلا فيعلم أن كلهم لا يمتنعون ولا يتركون لذة الرياسة فإن لم يكن في البلد إلا واحد وكان وعظه نافعاً للناس من حيث حسن كلامه وحسن سمته في الظاهر وتخييله إلى العوام أنه إنما يريد الله بوعظه وأنه تارك للدنيا ومعرض عنها فلا نمنعه منه ونقول له: اشتغل وجاهد نفسك فإن قال: لست أقدر على نفسي فنقول: اشتغل وجاهد لأنا نعلم أنه لو ترك ذلك لهلك الناس كلهم إذ لا قائم به غيره،

---

(١) ... صحيح البخاري، كتاب الاحكام، باب مايكره من الحرص على الامارة، الحديث: ٧١٤٨، ٤/٤٥٦.

... صحيح مسلم، كتاب الامارة، باب كراهة الامارة بغير ضرورة، الحديث: ١٨٢٥، ص: ١٠١٥.

(٢) ... صحيح البخاري، كتاب الاحكام، باب مايكره من الحرص على الامارة، الحديث: ٧١٤٨، ٤/٤٥٦.

(٣) نعمت المرضعة: أي الحالة الموصلة إلى الإمارة وهي الحياة، بئست المرضعة: الحالة القاطعة عن الإمارة وهي الموت أي فنعمت حياتهم وبئس موتهم. (حاشية السيوطي والسندي على سنن النسائي)

(٤) أي مظان. (اتحاف)

www.dawateislami.net

ولو واظب وغرضه الجاه فهو الهالك وحده وسلامة دين الجميع أحب عندنا من سلامة دينه وحده، فنجعله فداء للقوم ونقول: لعل هذا هو الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((**إِنَّ اللهَ يُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِأَقْوَامٍ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ**))[1].

ثم الواعظ هو الذي يرغب في الآخرة ويزهد في الدنيا بكلامه وبظاهر سيرته. فأما ما أحدثه الوعاظ في هذه الأعصار من الكلمات المزخرفة[2] والألفاظ المسجعة المقرونة بالأشعار مما ليس فيه تعظيم لأمر الدين وتخويف للمسلمين بل فيه الترجية والتجرئة على المعاصي بطيارات النكت، فيجب إخلاء البلاد منهم، فإنهم نواب الدجال وخلفاء الشيطان، وإنما كلامنا في واعظ حسن الوعظ جميل الظاهر يبطن في نفسه حب القبول ولا يقصد غيره، وفيما أوردناه في كتاب العلم من الوعيد الوارد في حق علماء السوء ما يبين لزوم الحذر من فتن العلم وغوائله. ولهذا قال المسيح عليه السلام: يا علماء السوء تصومون وتصلون وتتصدقون ولا تفعلون ما تأمرون وتدرسون ما لا تعملون فيا سوء ما تحكمون، تتوبون بالقول والأماني وتعملون بالهوى، وما يغني عنكم أن تنقوا[3] جلودكم وقلوبكم دنسة[4]، بحق أقول لكم: لا تكونوا كالمُنخل يخرج منه الدقيق الطيب ويبقى فيه النخالة[5]، كذلك أنتم تخرجون الحكم من أفواهكم ويبقى الغل في صدوركم. يا عبيد الدنيا! كيف يدرك الآخرة من لا تنقضي من الدنيا شهوته ولا تنقطع منها رغبته؟ بحق أقول لكم: إن قلوبكم تبكي من أعمالكم جعلتم الدنيا تحت ألسنتكم والعمل تحت أقدامكم بحق أقول لكم: أفسدتم آخرتكم بصلاح دنياكم فصلاح الدنيا أحب إليكم من صلاح الآخرة فأيّ ناس أخس منكم! لو تعلمون، ويلكم حتى متى تصفون الطريق للمدلجين[6] وتقيمون في محلة المتحيرين[7] كأنكم تدعون أهل الدنيا ليتركوها لكم مهلاً مهلاً! ويلكم ماذا يغني عن البيت المظلم أن يوضع السراج فوق ظهره وجوفه وحش مظلم! كذلك لا يغني عنكم أن يكون نور العلم بأفواهكم وأجوافكم منه وحشة معطلة، يا عبيد الدنيا! لا كعبيد أتقياء ولا كأحرار

---

(١) ... سنن النسائي الكبرى، كتاب السير، باب الاستعانة بالفجار في الحرب، الحديث: ٨٨٨٥، ٥/٢٧٩.

(٢) أي المزينة. (لسان العرب)

(٣) أي تنظفوها وتغسلوها بالماء والأشنان. (اتحاف)

(٤) أي وسخ بالمعاصي الباطنة. (اتحاف)

(٥) أي ما يرمى من الدقيق. (اتحاف)

(٦) أي السارين بالليل. (اتحاف)

(٧) أي الواقفين وقوف المتحير الذي لا يجد للسلوك سبيلا. (اتحاف)

www.dawateislami.net

كرام، توشك الدنيا أن تقلعكم[1] عن أصولكم فتلقيكم على وجوهكم، ثم تكبكم[2] على مناخركم[3]، ثم تأخذ خطاياكم بنواصيكم، ثم يدفعكم العلم من خلفكم، ثم يسلمكم إلى الملك الديان حفاة عراة، فرادى فيوقفكم على سوآتكم ثم يجزيكم بسوء أعمالكم.

وقد روى الحارث المحاسبي هذا الحديث في بعض كتبه ثم قال: هؤلاء علماء السوء شياطين الإنس وفتنة على الناس رغبوا في عرض الدنيا ورفعتها وآثروها على الآخرة وأذلوا الدين للدنيا فهم في العاجل عار وشين وفي الآخرة هم الخاسرون .

فإن قلت: فهذه الآفات ظاهرة ولكن ورد في العلم والوعظ رغائب كثيرة حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:((**لأَنْ يَهْدِىَ اللَّهُ بِكَ رَجُلاً خَيْرٌ لَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيْهَا**))[4] وقال صلى الله عليه وسلم: ((**أَيُّمَا دَاعٍ دَعَا إِلَى هُدًى وَاتُّبِعَ عَلَيْهِ كَانَ لَهُ أَجْرُهُ وَأَجْرُ مَنِ اتَّبَعَهُ**))[5] إلى غير ذلك من فضائل العلم. فينبغي أن يقال للعالم: اشتغل بالعلم واترك مراآة الخلق، كما يقال: لمن خالجه الرياء في الصلاة، لا تترك العمل ولكن أتمم العمل وجاهد نفسك.

فاعلم! أن فضل العلم كبير وخطره عظيم كفضل الخلافة والإمارة ولا نقول لأحد من عباد الله: اترك العلم إذ ليس في نفس العلم آفة وإنما الآفة في إظهاره بالتصدى[6] للوعظ والتدريس ورواية الحديث، ولا نقول له أيضاً اتركه ما دام يجد في نفسه باعثاً دينياً ممزوجاً بباعث الرياء، فأما إذا لم يحركه إلا الرياء فترك الإظهار أنفع له وأسلم، وكذلك نوافل الصلوات إذا تجرد فيها باعث الرياء وجب تركها. أما إذا خطر له وساوس الرياء في أثناء الصلاة وهو لها كاره فلا يترك الصلاة لأن آفة الرياء في العبادات ضعيفة، وإنما تعظم في الولايات وفي التصدي للمناصب الكبيرة في العلم. وبالجملة فالمراتب ثلاث:

الأولى: الولايات: والآفات فيها عظيمة وقد تركها جماعة من السلف خوفا من الآفة.

الثانية: الصوم الصلاة والحج والغزو: وقد تعرض لها أقوياء السلف وضعفاءهم ولم يؤثر عنهم الترك لخوف الآفة، وذلك لضعف الآفات الداخلة فيها والقدرة على نفيها مع إتمام العمل لله بأدنى قوة.

---

(١) أي تزيلكم. (اتحاف)

(٢) أي ترميكم. (اتحاف)

(٣) أي وجوهكم. (اتحاف)

(٤) ...صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، الحديث: ٤٢١٠، ٣/٨٥، بلفظ "خير لك من حمر النعم".

(٥) ...صحيح مسلم، كتاب العلم، باب رفع العلم وقبضه...الخ، الحديث: ٢٦٧٤، ص: ١٤٣٨.

(٦) أي: بالتعرض. (لسان العرب)

www.dawateislami.net

الثالثة: وهي متوسطة بين الرتبتين وهو التصدي لمنصب الوعظ والفتوى والرواية والتدريس والآفات فيها أقل مما في الولايات وأكثر مما في الصلاة، فالصلاة ينبغي أن لا يتركها الضعيف والقوي، ولكن يدفع خاطر الرياء. والولايات: ينبغي أن يتركها الضعفاء رأساً دون الأقوياء ومناصب العلم بينهما، ومن جرب آفات منصب العلم علم أنه بالولاة أشبه، وأن الحذر منه في حق الضعيف أسلم والله أعلم.

وههنا رتبة رابعة: وهي جمع المال وأخذه للتفرقة على المستحقين فإن في الإنفاق وإظهار السخاء استجلاباً للثناء وفي إدخال السرور على قلوب الناس لذة للنفس، والآفات فيها أيضاً كثيرة ولذلك سئل الحسن عن رجل طلب القوت ثم أمسك، وآخر طلب فوق قوته ثم تصدق به، فقال: «القاعد أفضل» لما يعرفون من قلة السلامة في الدنيا وأن من الزهد تركها قربة إلى الله تعالى. وقال أبو الدرداء: ما يسرني أنني أقمت على درج مسجد دمشق أصيب كل يوم خمسين ديناراً أتصدق بها، أما إني لا أحرم البيع والشراء ولكني أريد أن أكون من الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله. وقد اختلف العلماء فقال قوم: إذا طلب الدنيا من الحلال وسلم منها وتصدق بها فهو أفضل من أن يشتغل بالعبادات والنوافل وقال قوم: الجلوس في دوام ذكر الله أفضل والأخذ والإعطاء يشغل عن الله. وقد قال المسيح عليه السلام: يا طالب الدنيا ليبر بها تركك لها أبر. وقال: أقل ما فيه أن يشغله إصلاحه عن ذكر الله وذكر الله أكبر وأفضل وهذا فيمن سلم من الآفات. فأما من يتعرض لآفة الرياء فتركه لها أبر والاشتغال بالذكر لا خلاف في أنه أفضل.

وبالجملة، ما يتعلق بالخلق وللنفس فيه لذة فهو مثار الآفات، والأحب أن يعمل ويدفع الآفات، فإن عجز فلينظر وليجتهد وليستفت قلبه وليزن ما فيه من الخير بما فيه من الشر، وليفعل ما يدل عليه نور العلم دون ما يميل إليه الطبع. وبالجملة ما يجده أخف على قلبه فهو في الأكثر أضر عليه؛ لأن النفس لا تشير إلا بالشر وقلما تستلذ الخير وتميل إليه وإن كان لا يعد ذلك أيضاً في بعض الأحوال، وهذه أمور لا يمكن الحكم على تفاصيلها بنفي وإثبات فهو موكول إلى اجتهاد القلب لينظر فيه لدينه ويدع ما يريبه إلى ما لا يريبه.

ثم قد يقع مما ذكرناه غرور للجاهل فيمسك المال ولا ينفقه خيفة من الآفة وهو عين البخل، ولا خلاف في أن تفرقة المال في المباحات فضلاً عن الصدقات أفضل من إمساكه، وإنما الخلاف فيمن يحتاج إلى الكسب: أن الأفضل الكسب والإنفاق، أو التجرد للذكر وذلك لما في الكسب من الآفات، فأما المال الحاصل من الحلال فتفرقته أفضل من إمساكه بكل حال.

فإن قلت: فبأيّ علامة تعرف العالم والواعظ أنه صادق مخلص في وعظه غير مريد رياء الناس؟ فاعلم أن لذلك علامات:

www.dawateislami.net

إحداها : أنه لو ظهر من هو أحسن منه وعظاً أو أغزر[١] منه علماً والناس له أشد قبولاً فرح به ولم يحسده نعم لا بأس بالغبطة وهو أن يتمنى لنفسه مثل علمه.

والأخرى: أن الأكابر إذا حضروا مجلسه لم يتغير كلامه بل بقي كما كان عليه فينظر إلى الخلق بعين واحدة.

والأخرى: أن لا يحب اتباع الناس له في الطريق والمشي خلفه في الأسواق. ولذلك علامات كثيرة يطول إحصاءها.

وقد روي عن سعيد بن أبي مروان قال: كنت جالساً إلى جنب الحسن إذ دخل علينا الحجاج من بعض أبواب المسجد ومعه الحرس[٢] وهو على برذون[٣] أصفر فدخل المسجد[٤] على برذونه فجعل يلتفت في المسجد فلم يرى حلقة أحفل[٥] من حلقة الحسن فتوجه نحوها حتى بلغ قريباً منها، ثم ثنى وَرِكَه[٦] فنزل ومشى نحو الحسن، فلما رآه الحسن متوجهاً إليه تجافى له عن ناحية مجلسه قال سعيد: وتجافيت له أيضاً عن ناحية مجلسي حتى صار بيني وبين الحسن فرجة ومجلس للحجاج فجاء الحجاج حتى جلس بيني وبينه والحسن يتكلم بكلام له يتكلم به في كل يوم فما قطع الحسن كلامه. قال سعيد فقلت في نفسي: لأبلون الحسن اليوم ولأنظرن هل يحمل الحسن جلوس الحجاج إليه أن يزيد في كلامه يتقرب إليه أو يحمل الحسن هيبة الحجاج أن ينقص من كلامه؟ فتكلم الحسن كلاماً واحداً نحواً مما كان يتكلم به في كل يوم حتى انتهى إلى آخر كلامه فلما فرغ الحسن من كلامه وهو غير مكترث به، رفع الحجاج يده فضرب بها على منكب الحسن ثم قال: صدق الشيخ وبر فعليكم بهذه المجالس وأشباهها فاتخذوها حلقاً وعادة فإنه بلغني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إن مجالس الذكر رياض الجنة**»[٧] ولولا ما حملناه من أمر الناس ما غلبتمونا على هذه المجالس لمعرفتنا بفضلها، قال: ثم افتر[٨] الحجاج فتكلم حتى عجب الحسن ومن حضر من بلاغته، فلما فرغ طفق فقام، فجاء رجل من أهل الشام إلى مجلس الحسن حين قام الحجاج فقال: عباد الله المسلمين ألا تعجبون

---

(١) أي أكثر. (لسان العرب)

(٢) أي الجند والأعوان. (اتحاف)

(٣) **البرذون**: الحِصان الرومي. (اتحاف)

(٤) أي ساحته. (اتحاف)

(٥) أي أعظم وأكبر. (اتحاف)

(٦) **الورك**: ما فوق الفخذ كالكتف فوق العضد. (لسان العرب)

(٧) ...سنن الترمذي، كتاب الدعوات، باب ماجاء في عقد التسبيح باليد، الحديث: ٣٥٢١، ٥/٣٠٤.

(٨) أي فتح فمه. (اتحاف)

www.dawateislami.net

أني رجل شيخ كبير وأني أغزو فأكلف فرساً وبغلاً وأكلف فسطاطاً وأن لي ثلث مائة درهم من العطاء وأن لي سبع بنات من العيال! فشكا من حاله حتى رق الحسن له وأصحابه والحسن مكب[1] فلما فرغ الرجل من كلامه رفع الحسن رأسه فقال: ما لهم قاتلهم الله اتخذوا عباد الله خولاً[2] ومال الله دولاً وقتلوا الناس على الدينار والدرهم فإذا غزا عدو الله غزا في الفساطيط الهبابة[3] وعلى البغال السباقة وإذا أغزى أخاه أغزاه طاوياً[4] راجلاً فما فتر الحسن حتى ذكرهم بأقبح العيب وأشده، فقام رجل من أهل الشام كان جالساً إلى الحسن فسعى به إلى الحجاج وحكى له كلامه فلم يلبث الحسن أن أتته رسل الحجاج فقالوا: أجب الأمير فقام الحسن وأشفقنا عليه من شدة كلامه الذي تكلم به، فلم يلبث الحسن أن رجع إلى مجلسه وهو يتبسم وقلما رأيته فاغراً[5] فاه يضحك إنما كان يتبسم فأقبل حتى قعد في مجلسه فعظم الأمانة وقال: إنما تجالسون بالأمانة كأنكم تظنون أن الخيانة ليست إلا في الدينار والدرهم إن الخيانة أشد الخيانة أن يجالسنا الرجل فنطمئن إلى جانبه ثم ينطلق فيسعى بنا إلى شرارة من نار؟ إني أتيت هذا الرجل فقال: أقصر عليك من لسانك وقولك إذا غزا عدو الله غزا كذا وكذا، وإذا أغزى أخاه أغزاه كذا لا أبال! تحرض علينا الناس؟ أما إنا على ذلك لا نتهم نصيحتك فأقصر عليك من لسانك، قال: فدفعه الله عني. وركب الحسن حماراً يريد المنزل فبينما هو يسير إذا التفت فرأى قوماً يتبعونه فوقف فقال: هل لكم من حاجة أو تسألون عن شيء؟ وإلا فارجعوا فما يبقى هذا من قلب العبد؟ فبهذه العلامات وأمثالها تتبين سريرة الباطن. ومهما رأيت العلماء يتغايرون ويتحاسدون ولا يتوانسون ولا يتعاونون فاعلم أنهم قد اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فهم الخاسرون اللهم ارحمنا بلطفك يا أرحم الراحمين.

بيان ما يصح من نشاط العبد للعبادة بسبب رؤية الخلق وما لا يصح:

اعلم أن الرجل قد يبيت مع القوم في موضع فيقومون للتهجد، أو يقوم بعضهم فيصلون الليل كله أو بعضه، وهو ممن يقوم في بيته ساعة قريبة، فإذا رآهم انبعث نشاطه للموافقة حتى يزيد على ما كان يعتاده، أو يصلي مع أنه كان لا يعتاد الصلاة بالليل أصلاً، وكذلك قد يقع في موضع يصوم فيه أهل الموضع فينبعث له نشاط في الصوم ولولاهم لما انبعث هذا النشاط، فهذا ربما يظن أنه رياء وأن الواجب ترك الموافقة، وليس كذلك على الإطلاق بل له تفصيل لأن كل مؤمن راغب في عبادة الله تعالى

---

(١) أي خافض رأسه. (اتحاف)

(٢) أي المستخدمين. (اتحاف)

(٣) أي الخيام العالية المشرعة. (اتحاف)

(٤) أي جائعاً. (اتحاف)

(٥) أي فاتحاً. (اتحاف)

www.dawateislami.net

وفي قيام الليل وصيام النهار، ولكن قد تعوقه العوائق[١] ويمنعه الاشتغال ويغلبه التمكن من الشهوات أو تستهويه[٢] الغفلة، فربما تكون مشاهدة الغير سبب زوال الغفلة، أو تندفع العوائق والأشغال في بعض المواضع فينبعث له النشاط، فقد يكون الرجل في منزله فتقطعه الأسباب عن التهجد مثل تمكنه من النوم على فراش وثير[٣]، أو تمكنه من التمتع بزوجته أو المحادثة مع أهله وأقاربه أو الاشتغال بأولاده أو مطالعة حساب له مع معامليه، فإذا وقع في منزل غريب اندفعت عنه هذه الشواغل التي تفتر[٤] رغبته عن الخير وحصلت له أسباب باعثة على الخير كمشاهدته إياهم وقد أقبلوا على الله وأعرضوا عن الدنيا، فإنه ينظر إليهم فينافسهم[٥] ويشق عليه أن يسبقوه بطاعة الله فتتحرك داعيته للدين لا للرياء، أو ربما يفارقه النوم لاستنكاره الموضع أو سبب آخر فيغتنم زوال النوم، وفي منزله ربما يغلبه النوم وربما ينضاف إليه أنه في منزله على الدوام، والنفس لا تسمح بالتهجد دائماً وتسمح بالتهجد وقتاً قليلاً فيكون ذلك سبب هذا النشاط مع اندفاع سائر العوائق، وقد يعسر عليه الصوم في منزله ومعه أطايب[٦] الأطعمة ويشق عليه الصبر عنها، فإذا أعوزته تلك الأطعمة لم يشق عليه فتنبعث داعية الدين للصوم فإن الشهوات الحاضرة عوائق ودوافع تغلب باعث الدين، فإذا سلم منها قوي الباعث. فهذا وأمثاله من الأسباب يتصور وقوعه ويكون السبب فيه مشاهدة الناس وكونه معهم والشيطان مع ذلك ربما يصد عن العمل ويقول لا تعمل فإنك تكون مرائياً إذ كنت لا تعمل في بيتك ولا تزد على صلاتك المعتادة.

وقد تكون رغبته في الزيادة لأجل رؤيتهم وخوفاً من ذمهم ونسبتهم إياه إلى الكسل، لا سيما إذا كانوا يظنون به أنه يقوم الليل، فإن نفسه لا تسمح بأن يسقط من أعينهم فيريد أن يحفظ منزلته وعند ذلك قد يقول الشيطان: صلّ فإنك مخلص ولست تصلي لأجلهم بل لله وإنما كنت لا تصلي كل ليلة لكثرة العوائق وإنما داعيتك لزوال العوائق لا لاطلاعهم، وهذا أمر مشتبه إلا على ذوي البصائر، فإذا عرف أن المحرك هو الرياء فلا ينبغي أن يزيد على ما كان يعتاده ولا ركعة واحدة، لأنه يعصي الله بطلب محمدة الناس بطاعة الله وإن كان انبعاثه لدفع العوائق وتحرك الغبطة والمنافسة بسبب عبادتهم فليوافق. وعلامة ذلك أن يعرض على نفسه أنه لو رأى هؤلاء يصلون من حيث لا يرونه بل من وراء

---

(١) أي الموانع. (اتحاف)

(٢) تستهيمه الغفلة. (لسان العرب)

(٣) أي وطْيٍ. (اتحاف)

(٤) أي تضعف. (اتحاف)

(٥) أي فيراغبهم. (تاج العروس)

(٦) أطايب جمع أطيب وهو خلاف الخبث. (الصحاح تاج اللغة)

www.dawateislami.net

حجاب وهو في ذلك الموضع بعينه هل كانت نفسه تسخو[1] بالصلاة وهم لا يرونه فإن سخت نفسه فليصل فإن باعثه الحق وإن كان ذلك يثقل على نفسه لو غاب عن أعينهم فليترك فإن باعثه الرياء.

وكذلك قد يحضر الإنسان يوم الجمعة في الجامع من نشاط الصلاة ما لا يحضره كل يوم، ويمكن أن يكون ذلك لحب حمدهم ويمكن أن يكون نشاطه بسبب نشاطهم وزوال غفلته بسبب إقبالهم على الله تعالى، وقد يتحرك بذلك باعث الدين ويقارنه نزوع النفس إلى حب الحمد فمهما علم أن الغالب على قلبه إرادة الدين فلا ينبغي أن يترك العمل بما يجده من حب الحمد، بل ينبغي أن يرد ذلك على نفسه بالكراهية ويشتغل بالعبادة، وكذلك قد يبكي جماعة فينظر إليهم فيحضره البكاء خوفاً من الله تعالى لا من الرياء، ولو سمع ذلك الكلام وحده لما بكى، ولكن بكاء الناس يؤثر في ترقيق القلب، وقد لا يحضره البكاء فيتباكى تارة رياء وتارة مع الصدق؛ إذ يخشى على قلبه قساوة القلب حين يبكون ولا تدمع عينه فيتباكى تكلفاً وذلك محمود. وعلامة الصدق فيه أن يعرض على نفسه أنه لو سمع بكاءهم من حيث لا يرونه هل كان يخاف على نفسه القساوة فيتباكى أم لا؟ فإن لم يجد ذلك عند تقدير الاختفاء عن أعينهم فإنما خوفه من أن يقال: أنه قاسي القلب فينبغي أن يترك التباكي. قال لقمان عليه السلام لابنه: لا ترِ الناس أنك تخشى ليكرموك وقلبك فاجر. وكذلك الصيحة والتنفس والأنين عند القرآن أو الذكر أو بعض مجاري الأحوال تارة تكون من الصدق والحزن والخوف والندم والتأسف، وتارة تكون لمشاهدته حزن غيره وقساوة قلبه، فيتكلف التنفس والأنين ويتحازن وذلك محمود، وقد تقترن به الرغبة فيه لدلالته على أنه كثير الحزن ليعرف بذلك فإن تجردت هذه الداعية فهي الرياء، وإن اقترنت بداعية الحزن فإن أباها ولم يقبلها وكرهها سلم بكاؤه وتباكيه، وإن قبل ذلك وركن إليه بقلبه حبط أجره وضاع سعيه وتعرض لسخط الله تعالى به.

وقد يكون أصل الأنين عن الحزن ولكن يمده ويزيد في رفع الصوت فتلك الزيادة رياء وهو محظور؛ لأنها في حكم الابتداء لمجرد الرياء فقد يهيج من الخوف ما لا يملك العبد معه نفسه ولكن يسبقه خاطر الرياء فيقبله فيدعو إلى زيادة تحزين للصوت أو رفع له أو حفظ الدمعة على الوجه حتى تبصر بعد أن استرسلت لخشية الله، ولكن يحفظ أثرها على الوجه لأجل الرياء. وكذلك قد يسمع الذكر فتضعف قواه من الخوف فيسقط ثم يستحي أن يقال له: إنه سقط من غير زوال عقل وحالة شديدة فيزعق ويتواجد تكلفاً ليرى أنه سقط لكونه مغشياً عليه وقد كان ابتداء السقطة عن صدق وقد يزول عقله فيسقط ولكن يفيق سريعاً فتجزع نفسه أن يقال حالته غير ثابتة، وإنما هي كبرق خاطف

---

(١) تسخو من السخاوة. (المصباح المنير)

www.dawateislami.net

فيستديم الزعقة والرقص ليرى دوام حاله، وكذلك قد يفيق بعد الضعف ولكن يزول ضعفه سريعاً فيجزع أن يقال لم تكن غشيته صحيحة ولو كان لدام ضعفه فيستديم إظهار الضعف والأنين فيتكأ على غيره يرى أنه يضعف عن القيام ويتمايل في المشي ويقرب الخطا ليظهر أنه ضعيف عن سرعة المشي فهذه كلها مكايد الشيطان ونزعات النفس، فإذا خطرت فعلاجها أن يتذكر أن الناس لو عرفوا نفاقه في الباطن واطلعوا على ضميره لمقتوه وإن الله مطلع على ضميره وهو له أشد مقتاً كما روي عن ذي النون رحمه الله أنه قام وزعق فقام معه شيخ آخر رأى فيه أثر التكلف فقال يا شيخ الذي يراك حين تقوم فجلس الشيخ وكل ذلك من أعمال المنافقين وقد جاء في الخبر :((**تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنْ خُشُوعِ النِّفَاقِ**))[١] وإنما خشوع النفاق أن تخشع الجوارح والقلب غير خاشع.

ومن ذلك الاستغفار والاستعاذة بالله من عذابه وغضبه فإن ذلك قد يكون لخاطر خوف وتذكر ذنب وتندم عليه وقد يكون للمراءاة. فهذه خواطر ترد على القلب متضادة مترادفة متقاربة وهي مع تقاربها متشابهة، فراقب قلبك في كل ما يخطر لك وانظر ما هو ومن أين هو؟ فإن كان لله فامضه[٢] واحذر مع ذلك أن يكون قد خفي عليك شيء من الرياء الذي هو كدبيب النمل[٣]، وكن على وجل من عبادتك أ هي مقبولة أم لا؟ لخوفك على الإخلاص فيها، واحذر أن يتجدد لك خاطر الركون[٤] إلى حمدهم بعد الشروع بالإخلاص فإن ذلك مما يكثر جداً، فإذا خطر لك فتفكر في اطلاع الله عليك ومقته لك، وتذكر ما قاله أحد الثلاثة الذين حاجوا أيوب عليه السلام إذ قال: يا أيوب أما علمت أن العبد تضل عنه علانيته التي كان يخادع بها عن نفسه ويجزى بسريرته؟ وقول بعضهم: أعوذ بك أن يرى الناس أني أخشاك وأنت لي ماقت[٥]. وكان من دعاء علي بن الحسين رضي الله عنهما: اللهم: إني أعوذ بك أن تحسن فيَّ لامعة العيون علانيتي وتقبح لك فيما أخلو سريرتي، محافظاً على رياء الناس من نفسي ومضيعاً لما أنت مطلع عليه مني، أبدي للناس أحسن أمري، وأفضي إليك بأسوأ عملي تقرباً إلى الناس بحسناتي وفراراً منهم إليك بسيآتي فيحل بي مقتك ويجب علي غضبك، أعذني من ذلك يا رب العالمين.

وقد قال أحد الثلاثة نفر لأيوب عليه السلام: يا أيوب! ألم تعلم أن الذين حفظوا علانيتهم وأضاعوا سرائرهم عند طلب الحاجات إلى الرحمن تسود وجوههم؟

---

(١) . . . شعب الايمان، باب في اخلاص العمل لله عزوجل، الحديث: ٦٧٢٩، ٥/٣٦٤.

(٢) أَجْرِه [علمية]

(٣) أي حركةُ مَشْيِ النملة. (اتحاف)

(٤) أي الميل. (اتحاف)

(٥) أي باغض. (اتحاف)

www.dawateislami.net

فهذه جمل آفات الرياء. فليراقب العبد قلبه ليقف عليها ففي الخبر: «إن للرياء سبعين باباً» وقد عرفت أن بعضه أغمض من بعض حتى إن بعضه مثل دبيب النمل وبعضه أخفى من دبيب النمل وكيف يدرك ما هو أخفى من دبيب النمل إلا بشدة التفقد والمراقبة؟ وليته أدرك بعد بذل المجهود، فكيف يطمع في إدراكه من غير تفقد للقلب وامتحان للنفس وتفتيش عن خدعها؟ نسأل الله تعالى العافية بمنه وكرمه وإحسانه.

بيان ما ينبغي للمريد أن يلزم نفسه قبل العمل وبعده وفيه:

اعلم أن أولى ما يلزم المريد قلبه في سائر أوقاته القناعة بعلم الله في جميع طاعاته، ولا يقنع بعلم الله إلا من لا يخاف إلا الله ولا يرجو إلا الله، فأما من خاف غيره وارتجاه اشتهى إطلاعه على محاسن أحواله، فإن كان في هذه الرتبة فليلزم قلبه كراهة ذلك من جهة العقل والإيمان لما فيه من خطر التعرض للمقت، وليراقب نفسه عند الطاعات العظيمة الشاقة التي لا يقدر عليها غيره، فإن النفس عند ذلك تكاد تغلي[1] حرصاً على الإفشاء، وتقول: مثل هذا العمل العظيم أو الخوف العظيم أو البكاء العظيم لو عرفه الخلق منك لسجدوا لك! فما في الخلق من يقدر على مثله، فكيف ترضى بإخفائه فيجهل الناس محلك وينكرون قدرك ويحرمون الاقتداء بك؟ ففي مثل هذا الأمر ينبغي أن يثبت قدمه، ويتذكر في مقابلة عظم عمله عظم ملك الآخرة ونعيم الجنة ودوامه أبد الآباد، وعظم غضب الله ومقته على من طلب بطاعته ثواباً من عباده، ويعلم أن إظهاره لغيره محبب إليه وسقوط عند الله وإحباط للعمل العظيم فيقول: وكيف أتبع مثل هذا العمل بحمد الخلق وهم عاجزون لا يقدرون لي على رزق ولا أجل؟ فيلزم ذلك قلبه ولا ينبغي أن ييأس عنه فيقول: إنما يقدر على الإخلاص الأقوياء فأما المخلطون فليس ذلك من شأنهم، فيترك المجاهدة في الإخلاص لأن المخلط إلى ذلك أحوج من المتقي؛ لأن المتقي إن فسدت نوافله بقيت فرائضه كاملة تامة، والمخلط لا تخلو فرائضه عن النقصان والحاجة إلى الجبران بالنوافل، فإن لم تسلم صار مأخوذاً بالفرائض وهلك به فالمخلط إلى الإخلاص أحوج.

وقد روى تميم الداري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((**يُحَاسَبُ الْعَبْدُ يَوْمَ القِيَامَةِ فَإِنْ نَقَصَ فَرْضُهُ قِيلَ انْظُرُوا هَلْ لَهُ مِنْ تَطَوُّعٍ؟ فَإِنْ كَانَ لَهُ تَطَوُّعٌ أُكْمِلَ بِهِ فَرْضُهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ تَطَوُّعٌ أُخِذَ بِطَرَفَيْهِ فَأُلْقِيَ فِي النَّارِ**))[2] فيأتي المخلط يوم القيامة وفرضه ناقص وعليه ذنوب كثيرة فاجتهاده في جبر الفرائض وتكفير السيئات ولا يمكن ذلك إلا بخلوص النوافل، وأما المتقي فجهده في زيادة الدرجات فإن حبط تطوعه بقي من حسناته ما يترجح على السيئات فيدخل الجنة.

---

(١) أي ترتفع، وأصل الغلاء الارتفاع ومجاوزة القدر في كل شيء. (لسان العرب)

(٢) ...السنن الكبرى للبيهقي، كتاب الصلاة، باب ماروى في اتمام الفريضة...الخ، الحديث: ٤٠٠٣، ٢/ ٥٤١.

www.dawateislami.net

فإذن ينبغي أن يلزم قلبه خوف اطلاع غير الله عليه لتصح نوافله، ثم يلزم قلبه ذلك بعد الفراغ حتى لا يظهره ولا يتحدث به، وإذا فعل جميع ذلك فينبغي أن يكون وجلاً من عمله خائفاً أنه ربما داخله من الرياء الخفي ما لم يقف عليه، فيكون شاكاً في قبوله ورده مجوزاً أن يكون الله قد أحصى عليه من نيته الخفية ما مقته بها ورد عمله بسببها،ويكون هذا الشك والخوف في دام عمله وبعده لا في ابتداء العقد، بل ينبغي أن يكون متيقناً في الابتداء أنه مخلص ما يريد بعمله إلا الله حتى يصح عمله، فإذا شرع ومضت لحظة يمكن فيها الغفلة والنسيان كان الخوف من الغفلة عن شائبة خفية أحبطت عمله من رياء أو عجب أولى به، ولكن يكون رجاءه أغلب من خوفه لأنه استيقن أنه دخل بالإخلاص وشك في أنه هل أفسده برياء؟ فيكون رجاء القبول أغلب وبذلك تعظم لذته في المناجاة والطاعات.

فالإخلاص: يقين، والرياء: شك،[1] وخوفه لذلك الشك جدير بأن يكفر خاطر الرياء إن كان قد سبق وهو غافل عنه والذي يتقرب إلى الله بالسعي في حوائج الناس وإفادة العلم ينبغي أن يلزم نفسه رجاء الثواب على دخول السرور على قلب من قضى حاجته فقط، ورجاء الثواب على عمل المتعلم بعلمه فقط دون شكر ومكافأة وحمد وثناء من المتعلم والمنعم عليه فإن ذلك يحبط الأجر فمهما توقع[2] من المتعلم مساعدة في شغل وخدمة أو مرافقة في المشي في الطريق ليستكثر باستتباعه أو تردداً منه في حاجة فقد أخذ أجره فلا ثواب له غيره، نعم إن لم يتوقع هو ولم يقصد إلا الثواب على عمله بعلمه ليكون له مثل أجره ولكن خدمة التلميذ بنفسه فقبل خدمته فنرجو أن لا يحبط ذلك أجره إذا كان لا ينتظره ولا يريده منه ولا يستبعده منه لو قطعه، ومع هذا فقد كان العلماء يحذرون هذا حتى إن بعضهم وقع في بئر فجاء قوم فأدلوا حبلاً ليرفعوه فحلف عليهم أن لا يقف معهم من قرأ عليه آية من القرآن أو سمع منه حديثاً خيفة أن يحبط أجره.

وقال شقيق البلخي: أهديت لسفيان الثوري ثوباً فرده عليَّ فقلت له: يا أبا عبد الله لست أنا ممن يسمع الحديث حتى ترده عليَّ، قال: علمت ذاك ولكن أخوك يسمع منّي الحديث فأخاف أن يلين قلبي لأخيك أكثر مما يلين لغيره. وجاء رجل إلى سفيان ببدرة أو بدرتين وكان أبوه صديقاً لسفيان وكان سفيان يأتيه كثيراً فقال له: يا أبا عبد الله في نفسك من أبي شيء؟ فقال: يرحم الله أباك كان وكان وأثنى عليه فقال: يا أبا عبد الله قد عرفت كيف صار هذا المال إليَّ فأحب أن تأخذ هذه تستعين بها على عيالك قال: فقبل سفيان ذلك قال: فلما خرج قال لولده: يا مبارك ألحقه فرده عليّ، فرجع فقال: أحب أن تأخذ

---

(١) فاليقين لا يزول بالشك. (اتحاف)

(٢) أي تَرَجّى. (اتحاف)

www.dawateislami.net

مالك فلم يزل به حتى رده عليه. وكأنه كانت أخوته مع أبيه في الله تعالى فكره أن يأخذ ذلك قال ولده: فلما خرج لم أملك نفسي أن جئت إليه فقلت ويلك أي شيء قلبك هذا حجارة؟ عد أنه ليس لك عيال أما ترحمني؟ أما ترحم إخوتك؟ أما ترحم عيالنا؟ فأكثرت عليه فقال: الله يا مبارك تأكلها أنت هنيئاً مرئياً وأسأل عنها أنا. فإذن يجب على العالم أن يلزم قلبه طلب الثواب من الله في اهتداء الناس به فقط ويجب على المتعلم أن يلزم قلبه حمد الله وطلب ثوابه ونيل المنزلة عنده لا عند المعلم وعند الخلق، وربما يظن أن له أن يرائي بطاعته لينال عند المعلم رتبته فيتعلم منه وهو خطأ لأن إرادته بطاعته غير الله خسران في الحال، والعلم ربما يفيد وربما لا يفيد، فيكف يخسر في الحال عملاً نقداً على توهم علم..؟ وذلك غير جائز بل ينبغي أن يتعلم لله ويعبد الله ويخدم المعلم لله لا ليكون له في قلبه منزلة إن كان يريد أن يكون تعلمه طاعة فإن العباد أمروا أن لا يعبدوا إلا الله ولا يريدوا بطاعتهم غيره.

وكذلك من يخدم أبويه لا ينبغي أن يخدمهما لطلب المنزلة عندهما إلا من حيث إن رضا الله عنه في رضا الوالدين ولا يجوز له أن يرائي بطاعته لينال بها منزلة عند الوالدين فإن ذلك معصية في الحال وسيكشف الله عن ريائه وتسقط منزلته من قلوب الوالدين أيضاً.

وأما الزاهد المعتزل عن الناس فينبغي له أن يلزم قلبه ذكر الله والقناعة بعلمه ولا يخطر بقلبه معرفة الناس زهده واستعظامهم محله فإن ذلك يغرس الرياء في صدره حتى تتيسر عليه العبادات في خلوته به وإنما سكونه لمعرفة الناس باعتزاله واستعظامهم لمحله وهو لا يدري أنه المخفف للعمل عليه.

قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله: تعلمت المعرفة من راهب يقال له سمعان، دخلت عليه في صومعته فقلت: يا سمعان! منذ كم أنت في صومعتك؟ قال: منذ سبعين سنة، قلت: فما طعامك؟ قال: يا حنيفي وما دعاك إلى هذا؟ قلت: أحببت أن أعلم، قال: في كل ليلة حمصة قلت: فما الذي يهيج من قلبك حتى تكفيك هذه الحمصة؟ قال: ترى الدير الذي بحذائك؟ قلت: نعم، قال: إنهم يأتوني في كل سنة يوماً واحداً فيزينون صومعتي ويطوفون حولها ويعظموني فكلما تثاقلت نفسي عن العبادة ذكرتها عز تلك الساعة فأنا احتمل جهد سنة لعز ساعة، فاحتمل يا حنيفي جهد ساعة لعز الأبد، فوقر[1] في قلبي المعرفة فقال: حسبك أو أزيدك؟ قلت: بلى قال: انزل عن الصومعة فنزلت فأدلى لي ركوة[2] فيها عشرون حمصة فقال لي: ادخل الدير فقد رأوا ما أدليت إليك فلما دخلت الدير اجتمع علي النصارى فقالوا: يا حنيفي ما الذي أدلى إليك الشيخ؟ قلت: من قوته قالوا فما تصنع به ونحن أحق به؟ ثم قالوا:

---

(١) أي سكن. (تاج العروس)

(٢) أي الدلو الصغيرة. (المعجم الوسيط)

www.dawateislami.net

ساوم، قلت: عشرون ديناراً فأعطوني عشرين ديناراً فرجعت إلى الشيخ فقال: يا حنيفي ما الذي صنعت؟ قلت: بعته منهم، قال: بكم؟ قلت: بعشرين ديناراً قال: أحطأت لو ساومتهم بعشرين ألف دينار لأعطوك هذا عز من لا تعبده فانظر كيف يكون عز من تعبده! يا حنيفي أقبل على ربك ودع الذهاب والجيئة.

والمقصود أن استشعار النفس عز العظمة في القلوب يكون باعثاً في الخلوة وقد لا يشعر العبد به فينبغي أن يلزم نفسه الحذر منه، وعلامة سلامته أن يكون الخلق عنده والبهائم بمثابة واحدة فلو تغيروا عن اعتقادهم له لم يجزع ولم يضق به ذرعاً إلا كراهة ضعيفة إن وجدها في قلبه فيردها في الحال بعقله وإيمانه، فإنه لو كان في عبادة واطلع الناس كلهم عليه لم يزده ذلك خشوعاً ولم يداخله سرور بسبب اطلاعهم عليه، فإن دخل سرور يسير فهو دليل ضعفه ولكن إذا قدر على رده بكراهة العقل والإيمان وبادر[1] إلى ذلك ولم يقبل ذلك السرور بالركون إليه فيرجى له أن لا يخيب سعيه إلا أن يزيد عند مشاهدتهم في الخشوع والانقباض كي لا ينبسطوا إليه فذلك لا بأس به، ولكن فيه غرور إذ النفس قد تكون شهوتها الخفية إظهار الخشوع وتتعلل بطلب الانقباض فيطالبها في دعواها قصد الانقباض بموثق من الله غليظ وهو أنه لو علم أن انقباضهم عنه إنما حصل بأن يعدوا كثيراً أو يضحك كثيراً أو يأكل كثيراً فتسمح نفسه بذلك فإذا لم تسمح وسمحت بالعبادة فيشبه أن يكون مرادها المنزلة عندهم ولا ينجو من ذلك إلا من تقرر في قلبه أنه ليس في الوجود أحد سوى الله فيعمل عمل من لو كان على وجه الأرض وحده لكان يعمله فلا يلتفت قلبه إلى الخلق إلا خطرات ضعيفة لا يشق عليه إزالتها فإذا كان كذلك لم يتغير بمشاهدة الخلق. ومن علامة الصدق فيه أنه لو كان له صاحبان أحدهما غني والآخر فقير فلا يجد عند إقبال الغني زيادة هزة في نفسه لا كرامة إلا إذا كان في الغني زيادة علم أو زيادة ورع فيكون مكرماً له بذلك الوصف لا بالغنى، فمن كان استرواحه إلى مشاهدة الأغنياء أكثر فهو مراء أو طماع وإلا فالنظر إلى الفقراء يزيد في الرغبة إلى الآخرة ويحبب إلى القلب المسكنة، والنظر إلى الأغنياء بخلافه، فكيف استروح بالنظر إلى الغني أكثر مما يستروح إلى الفقير!.

وقد حكي أنه لم ير الأغنياء في مجلس أذل منهم فيه في مجلس سفيان الثوري كان يجلسهم وراء الصف ويقدم الفقراء حتى كانوا يتمنون أنهم فقراء في مجلسه، نعم لك زيادة إكرام للغني إذا كان أقرب إليك أو كان بينك وبينه حق وصداقة سابقة، ولكن يكون بحث لو وجدت تلك العلاقة في فقير لكنت لا تقدم الغني عليه في إكرام وتوقير البتة فإن الفقير أكرم على الله من الغني فإيثارك لا يكون إلا طمعاً في غناه ورياء له، ثم إذا سويت بينهما في المجالسة فيخشى عليك أن تظهر الحكمة والخشوع

---

(١) أي عَجَّل واسْتَبَقَ. (تاج العروس)

www.dawateislami.net

للغني أكثر مما تظهره للفقير وإنما ذلك رياء خفي أو طمع خفي كما قال ابن السماك لجارية له: مالي إذا أتيت بغداد فتحت لي الحكمة؟ فقالت: الطمع يشحذ[1] لسانك. وقد صدقت فإن اللسان ينطق عند الغني بما لا ينطق به عند الفقير، وكذلك يحضر من الخشوع عنده ما لا يحضره عند الفقير ومكايد النفس وخفاياها في هذا الفن لا تنحصر ولا ينجيك منها إلا أن تخرج ما سوى الله من قلبك وتتجرد بالشفقة على نفسك بقية عمرك ولا ترضى لها بالنار بسبب شهوات مُنَغِّصة[2] في أيام متقاربة وتكون في الدنيا كملك من ملوك الدنيا قد أمكنته الشهوات وساعدته اللذات، ولكن في بدنه سقم[3] وهو يخاف الهلاك على نفسه في كل ساعة لو اتسع في الشهوات وعلم أنه لو احتمى وجاهد شهوته عاش ودام ملكه، فلما عرف ذلك جالس الأطباء وحارف[4] الصيادلة[5]، وعود نفسه شرب الأدوية المرة وصبر على بشاعتها وهجر جميع اللذات وصبر على مفارقتها، فبدنه كل يوم يزداد نحولاً لقلة أكله ولكن سقمه يزداد كل يوم نقصاناً لشدة احتمائه، فمهما نازعته نفسه إلى شهوة تفكر في توالي الأوجاع والآلام عليه وأداه ذلك إلى الموت المفرق بينه وبين مملكته الموجب لشماتة الأعداء به ومهما اشتد عليه شرب دواء تفكر فيما يستفيده منه من الشفاء الذي هو سبب التمتع بملكه ونعيمه في عيش هنيء، وبدن صحيح، وقلب رخي، وأمر نافذ، فيخف عليه مهاجرة اللذات ومصابرة المكروهات. فكذلك المؤمن المريد لملك الآخرة احتمى عن كل مهلك له في آخرته وهي لذات الدنيا وزهرتها فاجتزى[6] منها بالقليل واختار النحول والذبول والوحشة والحزن والخوف وترك المؤانسة بالخلق خوفاً من أن يحل عليه غضب من الله فيهلك ورجاء أن ينجو من عذابه فخف ذلك كله عليه عند شدة يقينه وإيمانه بعاقبة أمره وبما أعد له من النعيم المقيم في رضوان الله أبد الآباد. ثم علم أن الله كريم رحيم لمن يزل لعباده المريدين لمرضاته عونا وبهم رءوفاً وعليهم عطوفاً ولو شاء لأغنانهم عن التعب ولكن أراد أن يبلوهم ويعرف صدق إرادتهم حكمة منه وعدلاً ثم إذا تحمل التعب في بدايته أقبل الله عليه بالمعونة والتيسير وحط عنه الأعباء وسهل عليه الصبر وحبب إليه الطاعة ورزقه فيها من لذة المناجاة ما يلهيه عن سائر

---

(١) أي يجعله حديداً منطلقا في الفصاحة. (اتحاف)

(٢) أي مكدّرة غير صافية. (اتحاف)

(٣) أي مرضٌ. [علمية]

(٤) أي عامَلَ الصيادلةَ. (المنجد)

(٥) **الصيادلة**: الصيادلة وهي الجماعة المنسوبة إلى الصندل وهو شجر طيب الرائحة، قلبت النون ياء كما يقال «صندلاني وصيدلاني»، والمراد: مَن يبيع مواد الأدوية. (روح البيان)

(٦) أي اكتفى. [علمية]

www.dawateislami.net

اللذات ويقويه على إماتة الشهوات ويتولى سياسته وتقويته وأمده بمعونته، فإن الكريم لا يضيع سعي الراجي ولا يخيب أمل المحب وهو الذي يقول: «**من تقرب إليَّ شبراً تقربت إليه ذراعاً**[1]»[2] ويقول تعالى: «لقد طال شوق الأبرار إلى لقائي وإني إلى لقائهم أشد شوقاً» فليظهر العبد في البداية جده وصدقه وإخلاصه فلا يعوزه من الله تعالى على القرب ما هو اللائق بجوده وكرمه ورأفته ورحمته.

تمّ كتاب ذم الجاه والرياء والحمد لله وحده.

كتاب ذم الكبر والعجب

وهو الكتاب التاسع من ربع المهلكات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الخالق البارئ المصور العزيز الجبار المتكبر العلي الذي لا يضعه عن مجده واضع، الجبار الذي كل جبار له ذليل خاضع وكل متكبر في جناب عزه مسكين متواضع، فهو القهار الذي لا يدفعه عن مراده دافع، الغني الذي ليس له شريك ولا منازع، القادر الذي بَهَرَ[3] أبصارَ الخلائق جلالُه وبَهاؤه[4]، وقهر العرش المجيد استواءه واستعلاءه واستيلاءه، وحصر ألسن الأنبياء وصفه وثناءه، وارتفع عن حد قدرتهم إحصاءه واستقصاءه، فاعترف بالعجز عن وصف كنه جلاله ملائكته وأنبياءه، وكسر ظهور الأكاسرة[5] عزه وعلاءه، وقصر أيدي القياصرة[6] عظمته وكبرياءه، فالعَظَمة إزاره والكبرياء رداءه، ومن نازعه فيهما قصمه بداء الموت فأعجزه دواءه، جل جلاله وتقدست أسماءه، والصلاة على محمد الذي أنزل عليه النور المنتشر ضياءه، حتى أشرقت بنوره أكناف العالم وأرجاءه[7]، وعلى آله وأصحابه الذين هم أحباء الله وأولياءه، وخيرته وأصفياءه وسلم تسليماً كثيراً.

---

(١) أي وصلت رحمتي إليه قدراً أزيد منه وكلما زاد العبد قربة زاده الله رحمة. (التيسير)

(٢) ...صحيح مسلم، كتاب التوبة، باب في الحض على التوبة والفرح بها، الحديث: ٢٦٧٥، ص: ١٤٦٧.

(٣) أي غَلَب. (مختار الصحاح)

(٤) أي حُسْنه. (الصحاح في اللغة)

(٥) المراد بالأكاسرة ملوك الفُرس جمع «كِسرٰى» وهو لقب كلِّ مَن مَلَكَ بلادَ الفُرس. (لسان العرب)

(٦) المراد بالقياصرة ملوك الروم جمع قيصر وهو كل من ملك بلاد الروم. (المعجم الوسيط)

(٧) أي أطرافه من سائر الجهات. (اتحاف)

www.dawateislami.net

أما بعد! فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((**قَالَ الله تعالى: الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي**[١] **فَمَنْ نَازَعَنِي فِيْهِمَا قَصَمْتُهُ**[٢]))[٣] وقال صلى الله عليه وسلم: ((**ثَلاثٌ مُهْلِكَاتٌ: شُحٌّ مُطَاعٌ**[٤]، **وَهَوًى مُتَّبَعٌ، وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ**[٥]))[٦] فالكبر والعجب داءان مهلكان، والمتكبر والمعجب سقيمان مريضان، وهما عند الله ممقوتات بغيضان، وإذا كان القصد في هذا الربع من كتاب إحياء علوم الدين شرح المهلكات وجب إيضاح الكبر والعجب فإنهما من قبائح المرديات[٧]. ونحن نستقصي بيانهما من الكتاب في شطرين: شطر في الكبر، وشطر في العجب.

الشطر الأول من الكتاب في الكبر:

وفيه بيان ذم الكبر، وبيان ذم الاختيال، وبيان فضيلة التواضع، وبيان حقيقة التكبر وآفته، وبيان من يتكبر عليه ودرجات التكبر، وبيان ما به التكبر، وبيان البواعث على التكبر، وبيان أخلاق المتواضعين وما فيه يظهر الكبر، وبيان علاج الكبر، وبيان امتحان النفس في خلق الكبر، وبيان المحمود من خلق التواضع والمذموم منه.

بيان ذم الكبر:

قد ذم الله الكبر في مواضع من كتابه وذم كل جبار متكبر فقال تعالى: ﴿**سَاَصۡرِفُ عَنۡ اٰيٰتِیَ الَّذِیۡنَ یَتَكَبَّرُوۡنَ فِی الۡاَرۡضِ بِغَیۡرِ الۡحَقِّ**﴾ [الأعراف:١٤٦] وقال عز وجل: ﴿**كَذٰلِكَ یَطۡبَعُ اللّٰهُ عَلٰی كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ**﴾ [المؤمن:٣٥] وقال تعالى: ﴿**وَاسۡتَفۡتَحُوۡا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِیۡدٍ**﴾ [ابراهيم:١٥] وقال تعالى: ﴿**اِنَّهٗ لَا یُحِبُّ الۡمُسۡتَكۡبِرِیۡنَ**﴾ [النحل:٢٣] وقال تعالى: ﴿**لَقَدِ اسۡتَكۡبَرُوۡا فِیۡۤ اَنۡفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوًّا كَبِیۡرًا**﴾ [الفرقان:٢١] وقال تعالى: ﴿**اِنَّ الَّذِیۡنَ یَسۡتَكۡبِرُوۡنَ عَنۡ عِبَادَتِیۡ سَیَدۡخُلُوۡنَ جَهَنَّمَ دٰخِرِیۡنَ**﴾ [المؤمن:٦٠] وذم الكبر في القرآن كثير وقد قال

---

(١) أي أنه خاص صفتي فلا يليق إلا بي فالمنازع فيه منازع في صفة من صفاتي، فإذا كان الكبر على عباده لا يليق إلا به فمن تكبر على عباده فقد جني عليه. قال القاضي عياض: **والكبرياء:** الكبر وهو الترفع على الغير بأن يرى لنفسه عليه شرفاً، **والعظمة:** كون الشيء في نفسه كاملاً شريفاً مستغنياً فالأول أرفع من الثاني إذ هو غاية العظمة. (فيض القدير، اتحاف)

(٢) أي أذللته وأهنته أو قربت هلاكه. (اتحاف)

(٣) **. . . المستدرک، کتاب الایمان، اهل الجنة المغلوبون الضعفاء...الخ، الحدیث: ٢١٠، ١/٢٣٥.**

(٤) أي بُخل يُطِيعُه الإنسانُ فلا يؤدّي ما عليه مِن حقّ الحقّ (عزّوجلّ) وحقِ الخلق، فلا يكون مجرَّد الشحّ مهلكاً إلا إذا كانَ مُطاعا، وإلا فهو مِن لوازم النفس. (اتحاف)

(٥) أي تحسين كل أحد نفَسه على غيره وإن كان قبيحاً. (اتحاف)

(٦) **. . . شعب الایمان، باب فی الخوف من الله، الحدیث: ٧٤٥، ١/٤٧١.**

(٧) أي المهلكات. [علمية]

www.dawateislami.net

رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((**لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ كِبْرٍ وَلاَ يَدْخُلُ النَّارَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ**))[1] وقال أبو هريرة رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((**يَقُوْلُ اللهُ تَعَالى: الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا أَلْقَيْتُهُ فِيْ جَهَنَّمَ وَلاَ أُبَالِي**))[2] وعن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: التقى عبد الله بن عمرو وعبد الله بن عمر على الصفا فتواقفا فمضى ابن عمرو وأقام ابن عمر يبكي فقالوا: ما يبكيك يا أبا عبد الرحمن؟ فقال: هذا يعني عبد الله بن عمرو زعم أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ((**مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ كِبْرٍ أَكَبَّهُ اللهُ[3] فِيْ النَّارِ عَلى وَجْهِهِ**))[4].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((**لا يَزَالُ الرَّجُلُ يَذْهَبُ بِنَفْسِهِ حَتَّى يُكْتَبَ فِي الْجَبَّارِينَ، فَيُصِيبُهُ مَا أَصَابَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ**))[5] وقال سليمان بن داود عليهما السلام يوما للطير والإنس والجن والبهائم: اخرجوا فخرجوا في مائتي ألف من الإنس ومائتي ألف من الجن فرفع حتى سمع زَجَلَ[6] الملائكة بالتسبيح في السموات ثم خفض حتى مست أقدامه البحر فسمع صوتاً لو كان في قلب صاحبكم مثقال ذرة من كبر لخسفت به أبعد مما رفعته.

وقال صلى الله عليه وسلم: ((**يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ عُنُقٌ لَهُ أُذُنَانِ تَسْمَعَانِ وَعَيْنَانِ تُبْصِرَانِ وَلِسَانٌ يَنْطِقُ يَقُوْلُ وُكِّلْتُ بِثَلاثَةٍ بِكُلِّ جَبَّارٍ عَنِيْدٍ وَبِكُلِّ مَنْ دَعَا مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ وَبِالْمُصَوِّرِيْنَ**))[7] وقال صلى الله عليه وسلم :((**لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بَخِيلٌ وَلاَ جَبَّارٌ وَلاَ سَيِّئُ الْمَلَكَةِ**[8]))[9] وقال صلى الله عليه وسلم: ((**تَحَاجَّت**[10] **الْجَنَّةُ وَالنَّارُ فَقَالَت النَّارُ: أُوثِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَبِّرِينَ وَقَالَت الْجَنَّةُ: مَا لِي**

---

(١) ...صحيح مسلم، كتاب الايمان، باب تحريم الكبر وبيانه، الحديث: ٩١، ص: ٦١.

(٢) ...سنن ابن ماجه، كتاب الزهد، باباالبراءة من الكبر...الخ، الحديث: ٤٢٥٧، ٤/٤٥٧، دون قول: "ولاابالي".

(٣) المعنى: أذلّه وأهانه. (مرقاة المفاتيح)

(٤) ...شعب الايمان، باب في حسن الخلق، الحديث: ٨١٥٤، ٦/٢٨٠.

(٥) ...سنن الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ماجاء في الكبر، الحديث: ٢٠٠٧، ٣/٤٠٣.

(٦) أي الصوت. (اتحاف)

(٧) ...سنن الترمذي، كتاب صفة جهنم، باب ماجاء في صفة النار، الحديث: ٢٥٨٣، ٤/٢٥٩.

(٨) الذي يُسيءُ صحبةَ المَماليك. (مرقاة المفاتيح، لسان العرب)

(٩) ...مساوئ الاخلاق للخرائطي، باب ماجاء في ذمّ البخل...الخ، الحديث: ٣٦١، ص: ١٢٨.

(١٠) أي تخاصمت. (اتحاف)

www.dawateislami.net

لاَ يَدْخُلُنِي إِلَّا ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَاطُهُمْ وَعَجَزَتُهُمْ، فَقَالَ اللّٰهُ لِلْجَنَّةِ: إِنَّمَا أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي وَقَالَ لِلنَّارِ: إِنَّمَا أَنْتِ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمَا مِلْؤُهَا))[1].

وقال صلى الله عليه وسلم: ((**بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ تَجَبَّرَ وَاعْتَدَى**[2] **وَنَسِيَ الْجَبَّارَ الْأَعْلَى، بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ تَجَبَّرَ وَاخْتَالَ وَنَسِيَ الْكَبِيْرَ الْمُتَعَالَ، بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ غَفَلَ وَسَهَا وَنَسِيَ الْمَقَابِرَ وَالْبِلَى**[3] **بِئْسَ عَبْدٌ عَتَا**[4].

وَبَغَى وَنَسِيَ الْمَبْدَأَ وَالْمُنْتَهَى))[5] وعن ثابت أنه قال: بلغنا أنه قيل: يا رسول الله ما أعظم كبر فلان! فقال: ((**أَلَيْسَ بَعْدَهُ الْمَوْتُ؟**))[6] وقال عبد الله بن عمرو: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((**إِنَّ نُوحًا عَلَيْهِ السَّلاَمُ لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ دَعَا ابْنَيْهِ وَقَالَ: إِنِّي آمُرُكُمَا بِاثْنَتَيْنِ وَأَنْهَاكُمَا عَنِ اثْنَتَيْنِ، أَنْهَاكُمَا عَنِ الشِّرْكِ وَالْكِبْرِ، وَآمُرُكُمَا بِلاَ إِلَهَ إِلاَّ اللّٰهُ فَإِنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِيْنَ وَمَا فِيهِنَّ لَوْ وُضِعَتْ فِي كَفَّةِ الْمِيزَانِ وَوُضِعَتْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللّٰهُ فِي الْكَفَّةِ الأُخْرَى كَانَتْ أَرْجَحَ مِنْهُمَا وَلَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِيْنَ وَمَا فِيهِنَّ كَانَتَا حَلْقَةً فَوُضِعَتْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللّٰهُ عَلَيْهَا لَقَصَمَتْهَا وَآمُرُكُمَا بِسُبْحَانَ اللّٰهِ وَبِحَمْدِهِ فَإِنَّهَا صَلاَةُ كُلِّ شَيْءٍ وَبِهَا يُرْزَقُ كُلُّ شَيْءٍ**))[7] وقال المسيح عليه السلام طوبى لمن علّمه الله كتابه ثم لم يمت جباراً.

وقال صلى الله عليه وسلم: ((**أَهْلُ النَّارِ كُلُّ جَعْظَرِيٍّ جَوَّاظٍ**[8] **مُسْتَكْبِرٍ جَمَّاعٍ مَنَّاعٍ، وَأَهْلُ الْجَنَّةِ الضُّعَفَاءُ الْمُقِلُّوْنَ**))[9] وقال صلى الله عليه وسلم: ((**إِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَيْنَا وَأَقْرَبَكُمْ مِنَّا فِي الآخِرَةِ**

---

(١) ...صحيح مسلم، كتاب الجنة...الخ، باب النار يدخلها الجبارون...الخ، الحديث: ٢٨٤٦، ص: ١٥٢٤ بتغير قليل.

(٢) أي تجاوز الحدود في جبروته. (اتحاف)

(٣) أي بأن القبر يضمه يوما ويحتوي على أركانه ويبلى لحمه ودمه. [علمية]

(٤) **العتو**: التجبر والتكبر. (اتحاف)

(٥) ...سنن الترمذي، كتاب صفة القيامة، الحديث: ٢٤٥٦، ٤/٢٠٣ بتغير قليل.

(٦) ...شعب الايمان، باب في حسن الخلق، الحديث: ٨٢٠٩، ٦/٢٩٣ بتغير قليل.

(٧) ...المسند للامام احمد بن حنبل، مسند عبدالله بن عمرو بن العاص، الحديث: ٧١٢٣، ٢/٢٩٥.

(٨) **جعظري**: وهو الْفَظُّ الغَلِيظ المُنْتَفِخُ بما ليس عِندَه. **والجواظ**: وهو كثير اللحم المختال في مشيته. (اتحاف)

(٩) ...المسند للامام احمد بن حنبل، مسند عبدالله بن عمرو بن العاص، الحديث: ٧٠٣٠، ٢/٦٧٢.

www.dawateislami.net

أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقاً، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيْنَا وَأَبْعَدَكُمْ مِنَّا الثَّرْثَارُون الْمُتَشَدِّقُوْنَ[1] **الْمُتَفَيْهِقُوْنَ**)) قالوا: يا رسول الله قد علمنا الثرثارون والمتشدقون فما المتفيهقون؟ قال: ((**الْمُتَكَبِّرُوْنَ**))[2].

وقال صلى الله عليه وسلم: ((**يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيْ مِثْلِ صُوَرِ الذَّرِّ تَطَؤُهُم النَّاسُ ذَرًّا فِيْ مِثْلِ صُوَرِ الرِّجَالِ يَعْلُوْهُمْ كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الصَّغَارِ ثُمَّ يُسَاقُوْنَ إِلى سِجْنٍ فِيْ جَهَنَّمَ يُقَالُ لَهُ بُوْلَسْ يَعْلُوْهُمْ نَارُ الأَنْيَارِ يُسْقَوْنَ مِنْ طِيْنِ الْخَبَالِ عُصَارَةُ أَهْلِ النَّارِ**[3])) [4] وقال أبو هريرة: قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((**يُحْشَرُ الْجَبَّارُوْنَ وَالْمُتَكَبِّرُوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيْ صُوَرِ الذَّرِّ**[5] **تَطَؤُهُمُ النَّاسُ لِهَوَانِهِمْ عَلَى اللهِ تَعَالى**))[6] وعن محمد بن واسع قال: دخلت على بلال بن أبي بردة فقلت له: يا بلال إن أباك حدثني عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((**إِنَّ فِي جَهَنَّمَ وَادِيًا، يُقَالُ لَهُ: هَبْهَبُ، حَقٌّ عَلَى اللهِ أَنْ يُسْكِنَهُ كُلَّ جَبَّارٍ**))[7] فإياك يا بلال أن تكون ممن يسكنه. وقال صلى الله عليه وسلم: ((**إِنَّ فِي النَّارِ قَصْراً يُجْعَلُ فِيْهِ الْمُتَكَبِّرُوْنَ وَيُطْبَقُ عَلَيْهِمْ**)) [8] وقال صلى الله عليه وسلم: ((**اللَّهُمَّ إِنِّيْ أَعُوْذُ بِكَ مِنْ نَفْخَةِ الْكِبْرِيَاءِ**)) [9] وقال: ((**مَنْ فَارَقَ رُوْحُهُ جَسَدَهُ وَهُوَ بَرِيْءٌ مِنْ ثَلَاثٍ دَخَلَ الْجَنَّةَ، الْكِبْرُ، وَالدَّيْنُ، وَالْغُلُوْلُ**))[10].

الآثار: قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: لا يحقرن أحد أحداً من المسلمين فإن صغير المسلمين عند الله كبير. وقال وهب: لما خلق الله جنة عدن نظر إليها فقال: أنت حرام على كل متكبر. وكان الأحنف بن قيس يجلس مع مصعب بن الزبير على سريره فجاء يوماً ومصعب ماد رجليه فلم يقبضهما وقعد الأحنف

---

(١) **الثرثارون**: أي الذين يكثرون الكلام تكلفاً وتشدقاً والثرثرة كثرة الكلام وترديده. **المتشدقون**: الذين يتكلمون بأشداقهم ويتمقعرون في مخاطبتهم. (فيض القدير)

(٢) ...سنن الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ماجاء في معالي الاخلاق، الحديث: ٢٠٢٥، ٣/ ٤١٠ بتقدم وتاخر.

(٣) أي مما يسيل من أجسادهم بعد ذوبانها من القيح والصديد. (اتحاف)

(٤) ...سنن الترمذي، كتاب صفة القيامة، الحديث: ٢٥٠٠، ٤/ ٢٢١.

(٥) أي صغار النمل. (التيسير)

(٦) ...موسوعة الامام ابن ابي الدنيا، كتاب التواضع والخمول، الحديث: ٢٢٤، ٣/ ٥٧٨.

(٧) ...المسند لابي يعلى، حديث ابي موسى الاشعري، الحديث: ٧٢١٣، ٦/ ٢٠٧.

(٨) ...مساوئ الاخلاق للخرائطي، باب ماجاء في ذم العجب والكبر...الخ، الحديث: ٥٧٧، ص: ٢٣٤.

(٩) ...سنن ابي داود، كتاب الصلاة، باب مايستفتح به الصلاة...الخ، الحديث: ٧٦٤، ١/ ٢٩٧ بتغير.

(١٠) ...سنن الترمذي، كتاب السير، باب ماجاء في الغلول، الحديث: ١٥٧٨-١٥٧٩، ٣/ ٢٠٩.

www.dawateislami.net

فزحمه بعض الزحمة فرأى أثر ذلك في وجهه فقال: عجباً لابن آدم يتكبر وقد خرج من مجرى البول مرتين. وقال الحسن: العجب من ابن آدم يغسل الخُرْء(١) بيده كل يوم مرة أو مرتين ثم يعارض جبار السموات.

وقد قيل في: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الذريات:٢١] هو سبيل الغائط والبول وقد قال محمد بن الحسين بن علي: ما دخل قلب امرئ شيء من الكبر قط إلا نقص من عقله بقدر ما دخل من ذلك قل أو كثر. وسئل سليمان عن السيئة التي لا تنفع معها حسنة، فقال: الكبر. وقال النعمان بن بشير على المنبر: إن للشيطان مصالي وفخوخاً(٢) وإن من مصالي الشيطان وفخوخه البطر(٣) بأنعم الله والفخر بإعطاء الله والكبر على عباد الله واتباع الهوى في غير ذات الله. نسأل الله تعالى العفو والعافية في الدنيا والآخرة بمنّه وكرمه.

بيان ذل الاختيال وإظهار آثار الكبر في المشي وجر الثياب:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((**لا يَنْظُرُ اللهُ إِلَى رَجُلٍ يَجُرُّ إِزَارَهُ بَطَرًا**))(٤) وقال صلى الله عليه وسلم: ((**بَيْنَمَا رَجُلٌ يَتَبَخْتَرُ فِي بُرْدَتِهِ إِذْ أَعْجَبَتْهُ نَفْسُهُ فَخَسَفَ اللهُ بِهِ الأَرْضَ فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ(٥) فِيْهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**))(٦) وقال صلى الله عليه وسلم: ((**مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خُيَلاءَ لا يَنْظُرُ اللهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**))(٧) وقال زيد بن أسلم: دخلت على ابن عمر فمر به عبد الله ابن واقد وعليه ثوب جديد فسمعته يقول: أي بني ارفع إزارك فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((**لا يَنْظُرُ اللهُ إِلَى مَنْ جَرَّ إِزَارَهُ خُيَلاءَ**))(٨) وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بصق يوماً على كفه ووضع أصبعه عليه وقال: ((**يَقُوْلُ اللهُ تَعَالَى: ابْنَ آدَمَ أَتُعْجِزُنِيْ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ حَتّى إِذَا سَوَّيْتُكَ وَعَدَلْتُكَ مَشَيْتَ بَيْنَ بُرْدَيْنِ وَلِلأَرْضِ مِنْكَ وَئِيْدٌ(٩) جَمَعْتَ وَمَنَعْتَ حَتَّى إِذَا بَلَغَت التَّرَاقِيَ(١٠) قُلْتَ أَتَصَدَّقُ**

---

(١) أي العَذِرة. (لسان العرب)

(٢) المصالي: هي تشبه الشَّرك جمع مصلاة وأراد ما يستفز به الناس من زينة الدنيا وشهواتها. وفخوخاً: جمع فخ آلة يصاد بها. (التيسير)

(٣) أي الطغيان عند النعمة. (اتحاف)

(٤) ...صحيح مسلم، كتاب اللباس، باب تحريم جر الثوب خيلاء، الحديث: ٢٠٨٧، ص: ١١٥٢.

(٥) أي يتحرك وينزل مضطرباً. (اتحاف)

(٦) ...صحيح مسلم، كتاب اللباس، باب تحريم التبختر في المشي...الخ، الحديث: ٢٠٨٨، ص: ١١٥٢.

(٧) ...صحيح البخاري، كتاب فضائل اصحاب النبي، باب قول النبي: لو كنت متخذا...الخ، الحديث: ٣٦٦٥، ٢/٥١٨.

(٨) ...صحيح مسلم، كتاب اللباس، باب تحريم جر الثوب خيلاء...الخ، الحديث: ٢٠٨٥، ص: ١١٥٥.

(٩) أي صوت شدة الوطء على الأرض. (النهاية)

(١٠) جمع ترقوه وهي عظام العنق. [علمية]

www.dawateislami.net

وَأَنَّى أَوَانُ الصَّدَقَةِ؟))[1] وقال صلى الله عليه وسلم: **((إِذَا مَشَتْ أُمَّتِي الْمُطَيْطَاءَ**[2] **وَخَدَمَتْهُمْ فَارِسُ وَالرُّوْمُ سَلَّطَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ))**[3] قال ابن الأعرابي: هي مشية فيها اختيال وقال صلى الله علي وسلم: **((مَنْ تَعَظَّمَ فِي نَفْسِهِ وَاخْتَالَ فِي مَشْيَتِهِ لَقِيَ اللهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ))**[4].

الآثار: عن أبي بكر الهذلي قال: بينما نحن مع الحسن إذ مر علينا ابن الأهتم يريد المقصورة[5] وعليه جباب خز[6] قد نضد بعضها فوق بعض على ساقه وانفرج عنها قباءه وهو يمشي يتبختر إذ نظر إليه الحسن نظرة فقال: أف أف شامخ بأنفه[7]، ثاني عطفه، مصعّر خده[8]، ينظر في عطفيه، أي حُمَيْق![9] أنت تنظر في عطفيك في نعم غير مشكورة ولا مذكورة غير المأخوذ بأمر الله فيها ولا المؤدي حق الله منها! والله أن يمشي أحد طبيعته يتخلج تخلج المجنون في كل عضو من أعضائه لله نعمة، وللشيطان به لَفْتَة[10]، فسمع ابن الأهتم فرجع يعتذر إليه فقال: لا تعتذر إليّ وتُبْ إلى ربك أَ مَا سمعت قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُوْلًا﴾ [الإسراء:٣٧].

ومر بالحسن شاب عليه بزة[11] له حسنة فدعاه فقال له: ابن آدم معجب بشبابه محب لشمائله، كأن القبر قد وارى بدنك وكأنك قد لاقيت عملك، ويحك! داو قلبك فإن حاجة الله إلى العباد صلاح قلوبهم. وروي أن عمر بن عبد العزيز حج قبل أن يستخلف فنظر إليه طاوس وهو يختال في مشيته فغمز[12] جنبه بأصبعه ثم قال: ليست هذه مشية من في بطنه خرء، فقال عمر كالمعتذر: يا عم لقد ضرب كل عضو مني على هذه المشية حتى تعلمتها. ورأى محمد بن واسع ولده يختال فدعاه وقال: أتدري

---

(١) ...سنن ابن ماجه، كتاب الوصايا، باب النهي عن الامساك...الخ، الحديث: ٢٧٠٧، ٣/٣٠٧.

(٢) أي تبختروا في مشيتهم عجباً واستكباراً. (اتحاف)

(٣) ...سنن الترمذي، كتاب الفتن، الحديث: ٢٢٦٨، ٤/١١٥ بتغير.

(٤) ...المسند للامام احمد بن حنبل، مسند عبدالله بن عمر بن الخطاب، الحديث: ٢٠٠٢، ٢/٤٦٢.

(٥) وهو الموضع الذي جعل شبه القصر على يمين المحراب أحدثها بنو أمية. (اتحاف)

(٦) أي الحرير. (المنجد)

(٧) وهو كناية عن المتكبر يقال: شمخ بأنفه إذا تكبر. (اتحاف)

(٨) أي ماله عن الناس إعراضا وتكبرا. (اتحاف)

(٩) أي يا أحمق وهو مصغر أحمق. (اتحاف)

(١٠) هي المرة الواحدة من الالتفات. (النهاية)

(١١) **البزة**: بالكسر الهيأة. (اتحاف)

(١٢) أي كبس. (لسان العرب)

www.dawateislami.net

من أنت؟ أما أمك فأشتريتها بمائتي درهم وأما أبوك فلا أكثر الله في المسلمين مثله. ورأى ابن عمر رجلاً يجر إزاره فقال: إن للشيطان إخواناً، كررها مرتين أو ثلاثاً ويروى أن مطرف بن عبد الله بن الشخير رأى المهلب وهو يتبختر في جبة خز، فقال: يا عبدالله هذه مشية يبغضها الله ورسوله فقال له المهلب: أما تعرفني؟ فقال: بلى أعرفك أولك نطفة مَذِرَة[1] وآخرتك جيفة قَذِرَة[2] وأنت بين ذلك تحمل العذرة فمضى المهلب وترك مشيته تلك. وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ﴾ [القيامة :٣٣] أي يتبختر.

وإذ قد ذكرنا ذم الكبر والاختيال فلنذكر فضيلة التواضع والله تعالى أعلم.

بيان فضيلة التواضع:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((**مَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلاَّ عِزًّا وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلاَّ رَفَعَهُ اللَّهُ**))[3] وقال صلى الله عليه وسلم: ((**مَا مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ وَمَعَهُ مَلَكَانِ وَعَلَيْهِ حِكْمَةٌ يُمْسِكَانِهِ بِهَا فَإِنْ هُوَ رَفَعَ نَفْسَهُ جَبَذَاهَا ثُمَّ قَالاَ: اللَّهُمَّ ضَعْهُ وَإِنْ وَضَعَ نَفْسَهُ قَالاَ: اللَّهُمَّ ارْفَعْهُ**))[4] وقال صلى الله عليه وسلم: ((**طُوبَى لِمَنْ تَوَاضَعَ فِى غَيْرِ مَسْكَنَةٍ وَأَنْفَقَ مَالاً جَمَعَهُ فِى غَيْرِ مَعْصِيَةٍ، وَرَحِمَ أَهْلَ الذُّلِّ وَالْمَسْكَنَةِ ، وَخَالَطَ أَهْلَ الْفِقْهِ وَالْحِكْمَةِ**))[5] وعن أبي سلمة المديني عن أبيه عن جده قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عندنا بقباء[6] وكان صائماً فأتيناه عند إفطاره بقدح من لبن وجعلنا فيه شيئًا من عسل فلما رفعه وذاقه وجد حلاوة العسل فقال: ((**مَا هَذَا؟**)) قلنا: يا رسول الله جعلنا فيه شيئًا من عسل فوضعه وقال: ((**أَمَا إِنِّي لاَ أُحَرِّمُهُ وَمَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ اللهُ وَمَنْ تَكَبَّرَ وَضَعَهُ اللهُ وَمَنِ اقْتَصَدَ أَغْنَاهُ اللهُ وَمَنْ بَذَّرَ أَفْقَرَهُ اللهُ وَمَنْ أَكْثَرَ ذِكْرَ اللهِ أَحَبَّهُ اللهُ**))[7].

وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم كان في نفر من أصحابه في بيته يأكلون فقام سائل على الباب وبه زمانة[8] يتكره منها فأذن له، فلما دخل أجلسه رسول الله صلى الله عليه وسلم على فخذه ثم

---

(١) أي متغيرة. (اتحاف)

(٢) **الجيفة**: جثة الميت، (القاموس المحيط) **والقذرة**: النتنة. (اتحاف)

(٣) ...صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب العفو والتواضع، الحديث: ٢٥٨٨، ص: ١٣٩٧.

(٤) ...المعجم الكبير، الحديث: ١٢٩٣٩، ١٢/٢١٨ مفهوماً.

(٥) ...شعب الايمان، باب في الزكاة...الخ، الحديث: ٣٣٨٨، ٣/٢٢٥.

(٦) وهو على ميلين من المدينة من جهة الجنوب. (اتحاف)

(٧) ...موسوعة الامام ابن ابي الدنيا، كتاب التواضع والخمول، الحديث: ٧٧، ٣/٥٥٢.

(٨) **زمانة**: مرض يدوم زماناً طويلاً. (اتحاف)

www.dawateislami.net

قال له: ((**اطْعَمْ**)) فكأن رجلاً من قريش اشمأز[1] منه وتكره فما مات ذلك الرجل حتى كانت به زمانة مثلها. وقال صلى الله عليه وسلم : ((**خَيَّرَنِيْ رَبِّيْ بَيْنَ أَمْرَيْنِ أَنْ أَكُوْنَ عَبْدًا رَسُوْلاً أَوْ مَلَكًا نَبِيًّا فَلَمْ أَدْرِ أَيَّهُمَا أَخْتَارُ وَكَانَ صَفِيٌّ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ جِبْرِيْلَ فَرَفَعْتُ رَأْسِيْ إِلَيْهِ فَقَالَ: تَوَاضَعْ لِرَبِّكَ فَقُلْتُ: عَبْدًا رَسُوْلاً**))[2]. وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام إنما أقبل صلاة من تواضع لعظمتي ولم يتعاظم على خلقي، وألزم قلبه خوفي، وقطع نهاره بذكري، وكف نفسه عن الشهوات من أجلي.

وقال صلى الله عليه وسلم: ((**الكَرَمُ التَّقْوَى وَالشَّرْفُ التَّوَاضُعُ وَالْيَقِيْنُ الْغِنَى**))[3] وقال المسيح عليه السلام: طوبى للمتواضعين في الدنيا هم أصحاب المنابر يوم القيامة، طوبى للمصلحين بين الناس في الدنيا هم الذين يرثون الفردوس يوم القيامة، طوبى للمطهرة قلوبهم في الدنيا هم الذين ينظرون إلى الله تعالى يوم القيامة.

وقال بعضهم بلغني أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((**إِذَا هَدَى اللهُ عَبْداً لِلإِسْلاَمِ وَحَسَّنَ صُوْرَتَهُ وَجَعَلَهُ فِيْ مَوْضِعٍ غَيْرِ شَائِنٍ**[4] **لَهُ وَرَزَقَهُ مَعَ ذَلِكَ تَوَاضُعًا فَذَلِكَ مِنْ صَفْوَةِ اللهِ**))[5] وقال صلى الله عليه وسلم: ((**أَرْبَعٌ لاَ يُعْطِيْهُمُ اللهُ إِلاَّ مَنْ أَحَبَّ: الصَّمْتُ وَهُوَ أَوَّلُ الْعِبَادَةِ، وَالتَّوَكُّلُ عَلَى اللهِ، وَالتَّوَاضُعُ، وَالزُّهْدُ فِي الدُّنْيَا**))[6] وقال ابن عباس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((**إِذَا تَوَاضَعَ الْعَبْدُ رَفَعَهُ اللهُ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ**))[7] وقال صلى الله عليه وسلم: ((**التَّوَاضُعُ لاَ يَزِيْدُ الْعَبْدَ إِلاَّ رِفْعَةً فَتَوَاضَعُوْا يَرْحَمُكُمُ اللهُ**))[8] ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يطعم فجاء رجل أسود به جدري قد تقشر فجعل لا يجلس إلى أحد إلا قام من جنبه، فأجلسه النبي صلى الله عليه وسلم إلى جنبه وقال صلى الله عليه وسلم: ((**إِنَّهُ لَيُعْجِبُنِيْ أَنْ يُحْمِلَ الرَّجُلُ الشَّيْءَ فِيْ يَدِهِ يَكُوْنُ مِهْنَةً**[9] **لأَهْلِهِ يَدْفَعُ بِهِ الْكِبْرَ عَنْ نَفْسِهِ**))[10].

---

(١) أي نفور النفس من الشيء تكرهه. (لسان العرب)

(٢) ...المعجم الكبير، الحديث: ١٣٣٠٩، ١٢/ ٣٤٨.

(٣) ...موسوعة الامام ابن ابى الدنيا، كتاب اليقين، الحديث: ٢٢، ١/ ٣٠.

(٤) **شائن**: من الشَّيْن وهو العيب أي لا يكون في نسبه دخلة. (اتحاف)

(٥) ...موسوعة الامام ابن ابى الدنيا، كتاب التواضع والخمول، الحديث: ١٢١، ٣/ ٥٢٠.

(٦) ...موسوعة الامام ابن ابى الدنيا، كتاب التواضع والخمول، الحديث: ١٢٧، ٣/ ٥٢١.

(٧) ...كنز العمال، كتاب الاخلاق، الباب الاول، فى الاخلاق والافعال المحمودة، الحديث: ٥٧١٧، ٣/ ٣٤٩.

(٨) ...كنز العمال، كتاب الاخلاق، الباب الاول فى الاخلاق والافعال المحمودة، الحديث: ٥٧١٦، ٣/ ٣٤٩.

(٩) أي خدمة. (مرقاة)

(١٠) ...موسوعة الامام ابن ابى الدنيا، كتاب التواضع والخمول، الحديث: ٩٦، ٣/ ٥٥٦.

www.dawateislami.net

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : ((**مَالِيْ لاَ أَرَى عَلَيْكُمْ حَلاَوَةَ الْعِبَادَةِ**)) قالوا وما حلاوة العبادة؟ قال: ((**التَوَاضُعُ**))[1] وقال صلى الله عليه وسلم : ((**إِذَا رَأَيْتُمُ الْمُتَوَاضِعِيْنَ مِنْ أُمَّتِيْ فَتَوَاضَعُوْا لَهُمْ وَإِذَا رَأَيْتُمُ الْمُتَكَبِّرِيْنَ فَتَكَبَّرُوْا عَلَيْهِمْ فَإِنَّ ذَلِكَ مَذَلَّةٌ لَهُمْ وَصَغَارٌ**))[2].

الآثار: قال عمر رضي الله عنه: إن العبد إذا تواضع لله رفع الله حكمته وقال: انتعش[3] رفعك الله وإذا تكبر وعدا[4] طوره رهصه الله في الأرض[5] وقال: اخسأ خسأك الله فهو في نفسه كبير وفي أعين الناس حقير حتى إنه لأحقر عندهم من الخنزير. وقال جرير بن عبد الله: انتهيت مرة إلى شجرة تحتها رجل نائم قد استظل بنطع[6] له وقد جاوزت الشمس النطع فسويته عليه ثم إن الرجل استيقظ فإذا هو سلمان الفارسي، فذكرت له ما صنعت فقال لي: يا جرير! تواضع لله في الدنيا فإنه من تواضع لله في الدنيا رفعه الله يوم القيامة، يا جرير! أتدري ما ظلمة النار يوم القيامة؟ قلت: لا، قال: إنه ظلم الناس بعضهم في الدنيا. وقالت عائشة رضي الله عنها: إنكم لتغفلون عن أفضل العبادات التواضع، وقال يوسف بن أسباط: يجزي قليل الورع من كثير العمل ويجزي قليل التواضع من كثير الاجتهاد، وقال الفضيل: وقد سئل عن التواضع ما هو؟ فقال: أن تخضع للحق وتنقاد له ولو سمعته من صبيّ قبلته ولو سمعته من أجهل الناس قبلته.

وقال ابن المبارك: رأس التواضع أن تضع نفسك عند من دونك في نعمة الدنيا حتى تعلمه أنه ليس لك بدنياك عليه فضل، وأن ترفع نفسك عمن هو فوقك في الدنيا حتى تعلمه أنه ليس له بدنياه عليك فضل. وقال قتادة من أعطي مالاً أو جمالاً أو ثياباً أو علماً ثم لم يتواضع فيه كان عليه وبالاً يوم القيامة. وقيل: أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام: إذا أنعمت عليك بنعمة فاستقبلها بالاستكانة أتممها عليك. وقال كعب: ما أنعم الله على عبد من نعمة في الدنيا فشكرها لله وتواضع بها لله إلا أعطاه الله نفعها في الدنيا ورفع بها درجة في الآخرة، وما أنعم الله على عبد من نعمة في الدنيا فلم يشكرها ولم يتواضع بها لله إلا منعه الله نفعها في الدنيا وفتح له طبقاً من النار يعذبه إن شاء الله أو يتجاوز عنه. وقيل لعبد الملك بن مروان: أيّ الرجال أفضل؟ قال: من تواضع عن قدرة وزهد عن رغبة وترك النصرة عن

---

(١) ...الزواجر عن اقتراف الكبائر، الكبيرة الرابعة: الكبر والعجب والخيلاء، ١/١٦٣.

(٢) ...الزواجر عن اقتراف الكبائر، الكبيرة الرابعة: الكبر والعجب والخيلاء، ١/١٦٣.

(٣) أي ارتفع. (اتحاف)

(٤) أي تجاوز. (اتحاف)

(٥) أي دفعه إليها. (اتحاف)

(٦) وهو المتخذ من الأديم معروف، وفيه أربع لغات فتح النون وكسرها ومع كل واحد فتح الطاء وسكونها والجمع أنطاع و نطوع. (اتحاف)

www.dawateislami.net

قوة. ودخل ابن السماك على هارون فقال: يا أمير المؤمنين إن تواضعك في شرفك أشرف لك من شرفك، فقال: ما أحسن ما قلت، فقال: يا أمير المؤمنين إن امرأً آتاه الله جمالاً في خلقته وموضعاً في حسبه وبسط له في ذات يده فعفّ في جماله وواسى من ماله وتواضع في حسبه كتب في ديوان الله من خالص أولياء الله، فدعا هارون بدواة وقرطاس وكتبه بيده. وكان سليمان بن داود عليهما السلام إذا أصبح تصفح وجوه الأغنياء والأشراف حتى يجيء إلى المساكين فيقعد معهم ويقول: مسكين مع مساكين. وقال بعضهم: كما تكره أن يراك الأغنياء في الثياب الدون[1] فكذلك فاكره أن يراك الفقراء في الثياب المرتفعة. روي أنه خرج يونس وأيوب والحسن يتذاكرون التواضع فقال لهم الحسن: أتدرون ما التواضع؟ التواضع أن تخرج من منزلك ولا تلقى مسلماً إلا رأيت له عليك فضلاً. وقال مجاهد: إن الله تعالى لما أغرق قوم نوح عليه السلام شمخت الجبال وتطاولت[2] وتواضع الجودي[3] فرفعه الله فوق الجبال وجعل قرار السفينة عليه. وقال أبو سليمان: إن الله عز وجل اطلع على قلوب الآدميين فلم يجد قلباً أشد تواضعاً من قلب موسى عليه السلام فخصه من بينهم بالكلام.

وقال يونس بن عبيد وقد انصرف من عرفات: لم أشك في الرحمة لولا أني كنت معهم إني أخشى أنهم حرموا بسببي. ويقال: أرفع ما يكون المؤمن عند الله أوضع ما يكون عند نفسه، وأوضع ما يكون عند الله أرفع ما يكون عند نفسه. وقال زياد النمري: الزاهد بغير تواضع كالشجرة التي لا تثمر. وقال مالك بن دينار: لو أن منادياً ينادي بباب المسجد ليخرج شركم رحلاً والله ما كان أحد يسبقني إلى الباب إلا رجلاً بفضل قوة أو سعي. قال: فلما بلغ ابن المبارك قوله قال: بهذا صار مالك مالكاً وقال الفضيل: من أحب الرياسة لم يفلح أبداً.

وقال موسى بن القاسم: كانت عندنا زلزلة وريح حمراء فذهبت إلى محمد بن مقاتل فقلت: يا أبا عبد الله أنت إمامنا فادع الله عز وجل لنا، فبكى ثم قال: ليتني لم أكن سبب هلاككم، قال: فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم فقال: إن الله عز وجل رفع عنكم بدعاء محمد بن مقاتل. وجاء رجل إلى الشبلي رحمه الله فقال له: ما أنت؟ وكان هذا دأبه وعادته فقال: أنا النقطة التي تحت الباء، فقال له الشبلي: أباد الله شاهدك[4] أو تجعل لنفسك موضعاً وقال الشبلي في بعض كلامه: ذلي عطل ذل

---

(١) أي الحقيرة. (اتحاف)

(٢) أي ارتفعت. (اتحاف)

(٣) **الجودي**: جبل بالجزيرة استوت عليه سفينة نوح على نبينا وعليه الصلاة والسلام. (القاموس المحيط)

(٤) أي أهلك الله شاهدك. (اتحاف)

www.dawateislami.net

اليهود[1]. ويقال: من يرى لنفسه قيمة فليس له من التواضع نصيب. وعن أبي الفتح بن شخرف قال: رأيت علي بن أبي طالب رضي الله عنه في المنام فقلت له: يا أبا الحسن عظني فقال لي: ما أحسن التواضع بالأغنياء في مجالس الفقراء رغبة منهم في ثواب الله وأحسن من تيه[2] الفقراء على الأغنياء ثقة منهم بالله عز وجل. وقال أبو سليمان: لا يتواضع العبد حتى يعرف نفسه.

وقال أبو يزيد: ما دام العبد يظن أن في الخلق من هو شر منه فهو متكبر فقيل له: فمتى يكون متواضعاً؟ قال: إذا لم ير لنفسه مقاماً ولا حالاً وتواضع كل إنسان على قدر معرفته بربه عز وجل ومعرفته بنفسه. وقال أبو سليمان: لو اجتمع الخلق على أن يضعوني كاتضاعي عند نفسي ما قدروا عليه. وقال عروة بن الورد: التواضع أحد مصائد[3] الشرف وكل نعمة محسود عليها صاحبها إلا التواضع. وقال يحيى بن خالد البرمكي: الشريف إذا تنسك[4] تواضع، والسفيه إذا تنسك تعاظم. وقال يحيى بن معاذ: التكبر على ذي التكبر عليك بماله تواضع.

ويقال: التواضع في الخلق كلهم حسن وفي الأغنياء أحسن، والتكبر في الخلق كلهم قبيح وفي الفقراء أقبح. ويقال: لا عز إلا لمن تذلل لله عز وجل ولا رفعة إلا لمن تواضع لله عز وجل ولا أمن إلا لمن خاف الله عز وجل ولا ربح إلا لمن ابتاع نفسه من الله عز وجل. وقال أبو علي الجوزجاني: النفس معجونة[5] بالكبر والحرص والحسد فمن أراد الله تعالى هلاكه منع منه التواضع والنصيحة والقناعة، وإذا أراد الله تعالى به خيراً لطف به في ذلك فإذا هاجت في نفسه نار الكبر أدركها التواضع من نصرة الله تعالى، وإذا هاجت نار الحسد في نفسه أدركتها النصيحة مع توفيق الله عز وجل، وإذا هاجت في نفسه نار الحرص أدركتها القناعة مع عون الله عز وجل.

وعن الجنيد رحمه الله أنه كان يقول يوم الجمعة في مجلسه لولا أنه روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((**يَكُوْنُ فِيْ آخِرِ الزَّمَانِ زَعِيْمُ الْقَوْمِ**[6].....

---

(١) أي ذلي في نفسي أعظم من ذل اليهود في أنفسهم. (اتحاف)

(٢) أي الكبر. (القاموس المحيط)

(٣) أي الآلات التي يصطاد بها الشرف. (اتحاف)

(٤) أي تعبّد. (اتحاف)

(٥) أي مجبولة. (اتحاف)

(٦) أي رئيسهم. (اتحاف)

www.dawateislami.net

أَرْذَلَهُمْ))[1] ما تكلمت عليكم. وقال الجنيد أيضاً: التواضع عند أهل التوحيد تكبر. ولعل مراده أن التواضع يثبت نفسه ثم يضعها والموحد لا يثبت نفسه ولا يراها شيئًا حتى يضعها أو يرفعها.

وعن عمرو بن شيبة قال: كنت بمكة بين الصفا والمروة فرأيت رجلاً راكباً بغلة وبين يديه غلمان وإذا هم يعنفون[2] الناس، قال: ثم عدت بعد حين فدخلت بغداد فكنت على الجسر، فإذا أنا برجل حاف حاسر طويل الشعر قال: فجعلت أنظر إليه وأتأمله فقال لي: مالك تنظر إليّ فقلت له: شبهتك برجل رأيته بمكة ووصفت له الصفة فقال: أنا ذلك الرجل، فقلت: ما فعل الله بك؟ فقال إني ترفعت في موضع يتواضع فيه الناس فوضعني الله حيث يترفع الناس. وقال المغيرة: كنا نهاب إبراهيم النخعي هيبة الأمير وكان يقول: إن زماناً صرت فيه فقيه الكوفة لزمان سوء. وكان عطاء السلمي إذا سمع صوت الرعد قام وقعد وأخذه بطنه كأنه امرأة ماخض[3]، وقال هذا من أجلي يصيبكم لو مات عطاء لاستراح الناس. وكان بشر الحافي يقول: سلموا على أبناء الدنيا بترك السلام عليهم.

ودعا رجل لعبد الله بن المبارك فقال: أعطاك الله ما ترجوه فقال: إن الرجاء يكون بعد المعرفة فأين المعرفة؟ وتفاخرت قريش[4] عند سلمان الفارسي رضي الله عنه يوماً فقال سلمان: لكنني خلقت من نطفة قذرة ثم أعود جيفة منتنة ثم آتي الميزان فإن ثقل فأنا كريم وإن خف فأنا لئيم. وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: وجدنا الكرم في التقوى، والغنى في اليقين، والشرف في التواضع. نسأل الله الكريم حسن التوفيق.

بيان حقيقة الكبر وآفته:

اعلم أن الكبر ينقسم إلى باطن وظاهر. فالباطن: هو خلق في النفس. والظاهر: هو أعمال تصدر عن الجوارح. واسم الكبر بالخلق الباطن أحق وأما الأعمال فإنها ثمرات لذلك الخلق وخلق الكبر موجب للأعمال ولذلك إذا ظهر على الجوارح يقال تكبر، وإذا لم يظهر يقال في نفسه كبر، فالأصل هو الخلق الذي في النفس وهو الاسترواح والركون إلى رؤية النفس فوق المتكبر عليه فإن الكبر يستدعي متكبراً عليه ومتكبراً به وبه ينفصل الكبر عن العجب كما سيأتي، فإن العجب لا يستدعي غير المعجب بل لو لم يخلق الإنسان إلا وحده تصور أن يكون معجباً ولا يتصور أن يكون متكبراً إلا أن يكون مع غيره وهو يرى نفسه فوق ذلك الغير في صفات الكمال فعند ذلك يكون متكبراً ولا يكفي أن يستعظم نفسه ليكون متكبراً فإنه قد يستعظم نفسه ولكنه يرى غيره أعظم من نفسه أو مثل نفسه فلا يتكبر عليه

---

(١) ... سنن الترمذي، كتاب الفتن، باب ماجاء في علامة حلول المسخ... الخ، الحديث: ٢٢١٨، ٤/٩٠.

(٢) أي يُوَبِّخُون. (قاموس)

(٣) **الماحض**: الحامل التي قد دنا ولادها وقرب نتاجها. (الزاهر)

(٤) أي جماعة منهم. (اتحاف)

www.dawateislami.net

ولا يكفي أن يستحقر غيره فإنه مع ذلك لو رأى نفسه أحقر لم يتكبر، ولو رأى غيره مثل نفسه لم يتكبر، بل ينبغي أن يرى لنفسه مرتبة ولغيره مرتبة ثم يرى مرتبة نفسه فوق مرتبة غيره فعند هذه الاعتقادات الثلاثة يحصل فيه خلق الكبر، لا أن هذه الرؤية تنفي الكبر بل هذه الرؤية وهذه العقيدة تنفخ فيه فيحصل في قلبه اعتداد وهزة[١] وفرح وركون إلى ما اعتقده وعز في نفسه بسبب ذلك فتلك العزة والهزة والركون إلى العقيدة هو خلق الكبر ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((**أَعُوْذُ بِكَ مِنْ نَفْخَةِ الْكِبْرِيَاءِ**))[٢] وكذلك قال عمر: أخشى أن تنتفخ حتى تبلغ الثريا للذي استأذنه أن يعظ بعد صلاة الصبح. فكأن الإنسان مهما رأى نفسه بهذه العين وهو الاستعظام كبر وانتفخ وتعزز.

فالكبر: عبارة عن الحالة الحاصلة في النفس من هذه الاعتقادات وتسمى أيضاً عزة وتعظماً، ولذلك قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿**إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ**﴾ [غافر:٥٦] قال: عظيمة لم يبلغوها. ففسر الكبر بتلك العظمة. ثم هذه العزة تقتضي أعمالاً في الظاهر والباطن هي ثمرات ويسمى ذلك تكبراً فإنه مهما عظم عنده قدره بالإضافة إلى غيره حقر من دونه وازدراه[٣] وأقصاه عن نفسه وأبعده وترفع عن مجالسته ومؤاكلته، ورأى أن حقه أن يقوم ماثلاً[٤] بين يديه إن اشتد كبره، فإن كان أشد من ذلك استنكف[٥] عن استخدامه ولم يجعله أهلاً للقيام بين يديه ولا بخدمة عَتَبَتِه[٦]، فإن كان دون ذلك فأنف من مساواته وتقدم عليه في مضايق الطرق وارتفع عليه في المحافل وانتظر أن يبدأه بالسلام واستبعد تقصيره في قضاء حوائجه وتعجب منه ،وإن حاج أو ناظر أنف أن يرد عليه وإن وعظ استنكف من القبول، وإن وعظ عنف في النصح، وإن رد عليه شيء من قوله غضب، وإن علم لم يرفق بالمتعلمين واستذلهم وانتهرهم وامتن عليهم واستخدمهم، وينظر إلى العامة كأنه ينظر إلى الحمير استجهالاً لهم واستحقاراً والأعمال الصادرة عن خلق الكبر كثيرة وهي أكثر من أن تحصى فلا حاجة إلى تعدادها فإنها مشهورة.

فهذا هو الكبر وآفته عظيمة وغائلته هائلة، وفيه يهلك الخواص من الخلق وقلما ينفك عنه العباد والزهاد والعلماء فضلاً عن عوام الخلق، وكيف لا تعظم آفته وقد قال صلى الله عليه وسلم: ((**لاَ يَدْخُلُ**

---

(١) الهَزة بالفتح: حركة وبالكسر: النشاط والارتياح، وهنا بالكسر أي: هِزَّة. (مختار الصحاح)

(٢) ... سنن ابي داود، كتاب الصلاة، باب مايستفتح به الصلاة...الخ، الحديث: ٧٦٤، ١/ ٢٩٧ بتغير.

(٣) أي احتقره. (أساس البلاغة)

(٤) أي انتصب كهيئة الخدم. (اتحاف وغيره)

(٥) أي امتنع. (المصباح المنير)

(٦) **العَتَبَة**: أُسْكُفَّةُ البابِ. (الصحاح في اللغة)

www.dawateislami.net

الْجَنَّةَ مَنْ فِيْ قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ))[1] وإنما صار حجاباً دون الجنة لأنه يحول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين كلها وتلك الأخلاق هي أبواب الجنة، والكبر وعزة النفس يغلق تلك الأبواب كلها لأنه لا يقدر على أن يحب المؤمنين ما يحب لنفسه وفيه شيء من العز، ولا يقدر على التواضع وهو رأس أخلاق المتقين وفيه العز، ولا يقدر على ترك الحقد وفيه العز، ولا يقدر أن يدوم على الصدق وفيه العز، ولا يقدر على ترك الغضب وفيه العز، ولا يقدر على كظم الغيظ وفيه العز، ولا يقدر على ترك الحسد وفيه العز، ولا يقدر على النصح اللطيف وفيه العز، ولا يقدر على قبول النصح وفيه العز، ولا يسلم من الازدراء بالناس ومن اغتيابهم وفيه العز. ولا معنى للتطويل فما من خلق ذميم إلا وصاحب العز والكبر مضطر إليه ليحفظ عزه، وما من خلق محمود إلا وهو عاجز عنه خوفاً من أن يفوته عزه فمن هذا لم يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة منه.

والأخلاق الذميمة متلازمة والبعض منها داع إلى البعض لا محالة، وشر أنواع الكبر ما يمنع من استفادة العلم وقبول الحق والانقياد له وفيه وردت الآيات التي فيها ذم الكبر والمتكبرين قال الله تعالى: ﴿وَ الْمَلٰٓئِكَةُ بَاسِطُوْۤا اَیْدِیْهِمْ﴾ [الأنعام:٩٣] إلى قوله: ﴿وَكُنْتُمْ عَنْ اٰیٰتِهٖ تَسْتَكْبِرُوْنَ﴾ [الأنعام:٩٣] ثم قال: ﴿ادْخُلُوْۤا اَبْوَابَ جَهَنَّمَ خٰلِدِیْنَ فِیْهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِیْنَ﴾ [الزمر:٧٢] ثم أخبر أن أشد أهل النار عذاباً أشدهم عتياً على الله تعالى فقال: ﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِیْعَةٍ اَیُّهُمْ اَشَدُّ عَلَى الرَّحْمٰنِ عِتِیًّا﴾ [مريم:٦٩] وقال تعالى: ﴿فَالَّذِیْنَ لَا یُؤْمِنُوْنَ بِالْاٰخِرَةِ قُلُوْبُهُمْ مُّنْكِرَةٌ وَّهُمْ مُّسْتَكْبِرُوْنَ﴾ [النحل:٢٢] وقال عزَّ وجلَّ: ﴿یَقُوْلُ الَّذِیْنَ اسْتُضْعِفُوْا لِلَّذِیْنَ اسْتَكْبَرُوْا لَوْلَاۤ اَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِیْنَ﴾ [سبأ:٣١] وقال تعالى: ﴿اِنَّ الَّذِیْنَ یَسْتَكْبِرُوْنَ عَنْ عِبَادَتِیْ سَیَدْخُلُوْنَ جَهَنَّمَ دٰخِرِیْنَ﴾ [المؤمن:٦٠] وقال تعالى: ﴿سَاَصْرِفُ عَنْ اٰیٰتِیَ الَّذِیْنَ یَتَكَبَّرُوْنَ فِی الْاَرْضِ بِغَیْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف:١٤٦] قيل في التفسير: سأرفع فهم القرآن عن قلوبهم، وفي بعض التفاسير: سأحجب قلوبهم عن الملكوت، وقال ابن جريج: سأصرفهم عن أن يتفكروا فيها ويعتبروا بها ولذلك قال المسيح عليه السلام: «إن الزرع ينبت في السهل ولا ينبت على الصفا[2]» كذلك الحكمة تعمل في قلب المتواضع ولا تعمل في قلب المتكبر ألا ترون أن من شمخ برأسه إلى السقف شجه، ومن طأطأ أظله وأكنه، فهذا مثل ضربه للمتكبرين وأنهم كيف يحرمون الحكمة، ولذلك ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم جحود الحق في حد الكبر والكشف عن حقيقته وقال: ((**مَنْ سَفِهَ الْحَقَّ وَغَمِصَ النَّاسَ**[3])).

---

(١) ... صحيح مسلم، كتاب الايمان، باب تحريم الكبر وبيانه، الحديث: ٩١، ص: ٦١.

(٢) أي الحجر الأملس. (اتحاف)

(٣) ... المسند للامام احمد بن حنبل، مسند الشاميين، حديث ابي ريحانة رضي الله عنه، الحديث: ١٧٢٠٦، ٦/٩٧.

www.dawateislami.net

بيان المتكبر عليه ودرجاته وأقسامه وثمرات الكبر فيه:

اعلم أن المتكبر عليه هو الله تعالى أو رسله أو سائر خلقه، وقد خلق الإنسان ظلوماً جهولاً فتارة يتكبر على الخلق وتارة يتكبر على الخالق فإذن التكبر باعتبار المتكبر عليه ثلاثة أقسام:

الأول: التكبر على الله وذلك هو أفحش أنواع الكبر ولا مثار له إلا الجهل المحض والطغيان مثل ما كان من نمروذ فإنه كان يحدث نفسه بأن يقاتل رب السماء، وكما يحكى عن جماعة من الجهلة، بل ما يحكى عن كل من ادعى الربوبية مثل فرعون وغيره فإنه لتكبره قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات:٢٤] إذ استنكف أن يكون عبداً لله ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [المؤمن:٦٠] وقال تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء :١٧٢] الآية وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ [الفرقان:٦٠].

القسم الثاني: التكبر على الرسل من حيث تعزز النفس وترفعها على الانقياد لبشر مثل سائر الناس وذلك تارة يصرف عن الفكر والاستبصار فيبقى في ظلمة الجهل بكبره فيمتنع عن الانقياد وهو ظان أنه محق فيه، وتارة يمتنع مع المعرفة ولكن لا تطاوعه نفسه للانقياد للحق والتواضع للرسل كما حكى الله قولهم: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ [المؤمنون:٤٧] وقولهم: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ [ابراهيم:١٠] ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ [المؤمنون:٤٧] ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا﴾ [الفرقان:٢١] ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الأنعام:٨] وقال فرعون فيما أخبر الله عنه ﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ [الزخرف:٥٣] وقال الله تعالى: ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [القصص:٣٩] فتكبر هو على الله وعلى رسله جميعا قال وهب: قال له موسى عليه السلام: آمن ولك ملكك، قال: حتى أشاور هامان فشاور هامان فقال هامان: بينما أنت رب يعبد إذ صرت عبد تعبد فاستنكف عن عبودية الله وعن اتباع موسى عليه السلام.

وقالت قريش فيما أخبر الله تعالى عنهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف:٣١] قال قتادة: عظيم القريتين هو الوليد بن المغيرة وأبو مسعود الثقفي، طلبوا من هو أعظم رياسة من النبي صلى الله عليه وسلم إذ قالوا غلام يتيم كيف بعثه الله إلينا؟ فقال تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف:٣٢] وقال الله تعالى: ﴿لِيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [الأنعام:٥٣] أي استحقاراً لهم واستبعاداً لتقدمهم وقالت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم: كيف نجلس إليك وعندك هؤلاء وأشاروا إلى فقراء المسلمين فازدروهم بأعينهم لفقرهم وتكبروا عن مجالستهم فأنزل الله

www.dawateislami.net

تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدٰوةِ وَ الْعَشِيِّ﴾ [الأنعام:٥٢] إلى قوله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ﴾ [الأنعام:٥٢] وقال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدٰوةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيْدُوْنَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيْدُ زِيْنَةَ الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف:٢٨] ثم أخبر الله تعالى عن تعجبهم حين دخلوا جهنم إذا لم يروا الذين ازدروهم فقالوا: ﴿مَا لَنَا لَا نَرٰى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ﴾ [ص:٦٢] قيل: يعنون عماراً وبلالاً وصهيباً والمقداد رضي الله عنهم. ثم كان منهم من منعه الكبر عن الفكر والمعرفة فجهل كونه صلى الله عليه وسلم محقاً، ومنهم من عرف ومنعه الكبر عن الاعتراف قال الله تعالى مخبراً عنهم: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ مَّا عَرَفُوْا كَفَرُوْا بِهٖ﴾ [البقرة:٨٩] وقال: ﴿وَجَحَدُوْا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَآ أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَّعُلُوًّا﴾ [النمل:١٤] وهذا الكبر قريب من التكبر على الله عز وجل وإن كان دونه ولكنه تكبر على قبول أمر الله والتواضع لرسوله.

القسم الثالث: التكبر على العباد. وذلك بأن يستعظم نفسه ويستحقر غيره فتأبى نفسه عن الانقياد لهم وتدعوه إلى الترفع عليهم فيزدريهم ويستصغرهم ويأنف من مساواتهم وهذا وإن كان دون الأول والثاني فهو أيضاً عظيم من وجهين:

أحدهما: أن الكبر والعز والعظمة والعلاء لا يليق إلا بالملك القادر، فأما العبد المملوك الضعيف العاجز الذي لا يقدر على شيء فمن أين يليق بحاله الكبر؟ فمهما تكبر العبد فقد نازع الله تعالى في صفة لا تليق إلا بجلاله، ومثاله أن يأخذ الغلام قلنسوة الملك فيضعها على رأسه ويجلس على سريره فما أعظم استحقاقه للمقت! وما أعظم تهدفه للخزي والنكال! وما أشد استجراءه[١] على مولاه وما أقبح ما تعاطاه! وإلى هذا المعنى الإشارة بقوله تعالى «**العظمة إزاري والكبرياء ردائي فمن نازعني فيهما قصمته**»[٢] أي أنه خاص صفتي ولا يليق إلا بي والمنازع فيه منازع في صفة من صفاتي وإذاً كان الكبر على عباده لا يليق إلا به فمن تكبر على عباده فقد جنى عليه إذ الذي يسترذل خواص غلمان الملك ويستخدمهم ويترفع عليهم ويستأثر بما حق الملك أن يستأثر به منهم فهو منازع له في بعض أمره وإن لم يبلغ درجته درجة من أراد الجلوس على سريره والاستبداد بملكه[٣]، فالخلق كلهم عباد الله وله العظمة والكبرياء عليهم فمن تكبر على عبد من عباد الله فقد نازع الله في حقه. نعم الفرق بين هذه المنازعة وبين منازعة نمروذ وفرعون، ما هو الفرق بين منازعة الملك في استصغار بعض عبيده واستخدامهم وبين منازعته في أصل الملك.

---

(١) أي جرأته. (اتحاف)

(٢) ...المستدرک للحاکم، کتاب الایمان، اهل الجنة المغلوبون...الخ، الحدیث: ٢١٠، ١/٢٣٥.

(٣) أي الاستقلال به. (اتحاف)

www.dawateislami.net

الوجه الثاني: الذي تعظم به رذيلة الكبر أنه يدعو إلى مخالفة الله تعالى في أوامره لأن المتكبر إذا سمع الحق من عبد من عباد الله استنكف عن قبوله وتشمر لجحده ولذلك ترى المناظرين في مسائل الدين يزعمون أنهم يتباحثون عن أسرار الدين ثم إنهم يتجاحدون تجاحد المتكبرين ومهما اتضح الحق على لسان واحد منهم أنف الآخر من قبوله وتَشَمَّر[1] لجحده واحتال لدفعه بما يقدر عليه من التلبيس، وذلك من أخلاق الكافرين والمنافقين إذ وصفهم الله تعالى فقال: ﴿وَ قَالَ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا لَا تَسْمَعُوْا لِهٰذَا الْقُرْاٰنِ وَ الْغَوْا فِيْهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُوْنَ﴾ [فصلت:٢٦] فكل من يناظر للغلبة والإفحام[2] لا ليغتنم الحق إذا ظفر به فقد شاركهم في هذا الخُلق.

وكذلك يحمل ذلك على الأنفة من قبول الوعظ كما قال تعالى: ﴿وَاِذَا قِيْلَ لَهُ اتَّقِ اللّٰهَ اَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْاِثْمِ﴾ [البقرة:٢٠٦] وروي عن عمر رضي الله عنه أنه قرأها فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون قام رجل يأمر بالمعروف فقتل فقام آخر فقال: تقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس: فقتل المتكبر الذي خالفه والذي أمره كبراً. وقال ابن مسعود كفى بالرجل إثماً إذا قيل له اتق الله قال: عليك نفسك. وقال صلى الله عليه وسلم لرجل: ((**كُلْ بِيَمِيْنِكَ**)) قال لا أستطيع، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((**لَا اسْتَطَعْتَ**)) [3] فما منعه إلا كبره قال فما رفعها بعد ذلك أي اعتلت يده.

فإذاً تكبره على الخلق عظيم لأنه سيدعوه إلى التكبر على أمر الله وإنما ضرب إبليس مثلاً لهذا وما حكاه من أحواله إلا ليعتبر به فإنه قال: ﴿اَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ [ص:٧٦] وهذا الكبر بالنسب لأنه قال: ﴿قَالَ اَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِيْ مِنْ نَّارٍ وَّ خَلَقْتَهٗ مِنْ طِيْنٍ﴾ [ص:٧٦] فحمله ذلك على أن يمتنع من السجود الذي أمره الله تعالى به وكان مبدأه الكبر على آدم والحسد له فجره ذلك إلى التكبر على أمر الله تعالى فكان ذلك سبب هلاكه أبد. الآباد فهذه آفة من آفات الكبر على العباد عظيمة ولذلك شرح رسول الله صلى الله عليه وسلم الكبر بهاتين الآفتين إذ سأله ثابت بن قيس بن شماس فقال: يا رسول الله! إني امرأ قد حبب إليّ من الجمال ما ترى أفمن الكبر هو؟ فقال صلى الله عليه وسلم: ((**لَا وَلَكِنَّ الْكِبْرَ مَنْ بَطَرَ الْحَقَّ وَغَمِصَ النَّاسَ**)) [4] وفي حديث آخر: ((**مَنْ سَفِهَ الْحَقَّ**[5])) [6] وقوله: «وغمص الناس» أي

---

(١) أي تَهَيَّأَ. (تاج العروس)

(٢) أي إسكات الخصم بالحجة. (المصباح المنير)

(٣) ...صحيح مسلم، كتاب الاشربة، باب آداب الطعام...الخ، الحديث: ٢٠٢١، ص:١١١٨.

(٤) ...سنن الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ماجاء في الكبر، الحديث: ٢٠٠٦، ٣/٤٠٢.

(٥) أي جَهِلَه. (المصباح المنير)

(٦) ...المسند للامام احمد بن حنبل، مسند الشاميين، حديث ابي ريحانة رضي الله عنه، الحديث: ١٧٢٠٦، ٦/٩٧.

www.dawateislami.net

ازدراهم واستحقرهم وهم عباد الله أمثاله أو خير منه. وهذه الآفة الأولى، و«سفه الحق» هو رده وهي الآفة الثانية. فكل من رأى أنه خير من أخيه واحتقر أخاه وازدراه ونظر إليه بعين الاستصغار أو رد الحق وهو يعرفه فقد تكبر فيما بينه وبين الخلق ومن أنف من أن يخضع لله تعالى ويتواضع لله بطاعته واتباع رسله فقد تكبر فيما بينه وبين الله تعالى ورسله.

بيان ما به التكبر:

اعلم أنه لا يتكبر إلا من استعظم نفسه ولا يستعظمها إلا وهو يعتقد لها صفة من صفات الكمال ومجماع ذلك يرجع إلى كمال ديني أو دنيوي، فالديني: هو العلم والعمل، والدنيوي: هو النسب والجمال والقوة والمال وكثرة الأنصار، فهذه سبعة أسباب:

الأول: العلم وما أسرع الكبر إلى العلماء! ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: ((**آفَةُ الْعِلْمِ الخُيَلاَءُ**))[1] فلا يلبث العالم أن يتعزز بعزة العلم ويستشعر في نفسه جمال العلم وكماله ويستعظم نفسه ويستحقر الناس وينظر إليهم نظرة إلى البهائم ويستجهلهم ويتوقع أن يبدءوه بالسلام، فإن بدأه واحد منهم بالسلام أو رد عليه ببشر أو قام له أو أجاب له دعوة رأى ذلك صنيعة عنده ويداً عليه يلزمه شكرها، واعتقد أنه أكرمهم وفعل بهم ما لا يستحقون من مثله وأنه ينبغي أن يرقوا له[2] ويخدموه شكراً له على صنيعه بل الغالب أنهم يبرونه فلا يبرهم ويزورونه فلا يزورهم ويعودونه فلا يعودهم ويستخدم من خالطه منهم ويستسخره[3] في حوائجه، فإن قصر فيه استنكره كأنهم عبيده أو أجراءه وكأن تعليمه العلم صنيعة منه إليهم ومعروف لديهم واستحقاق حق عليهم، هذا فيما يتعلق بالدنيا، أما في أمر الآخرة فتكبره عليهم بأن يرى نفسه عند الله تعالى أعلى وأفضل منهم فيخاف عليهم أكثر مما يخاف على نفسه ويرجو لنفسه أكثر مما يرجو لهم وهذا بأن يسمى جاهلاً أولى من أن يسمى عالماً بل العلم الحقيقي هو الذي يعرف الإنسان به نفسه وربه وخطر الخاتمة وحجة الله على العلماء وعظم خطر العلم فيه، كما سيأتي في طريق معالجة الكبر بالعلم، وهذا العلم يزيد خوفاً وتواضعاً وتخشعاً ويقتضي أن يرى كل الناس خيراً منه لعظم حجة الله عليه بالعلم وتقصيره في القيام بشكر نعمة العلم ولهذا قال أبو الدرداء: من ازداد علماً ازداد وجعاً. وهو كما قال: فإن قلت: فما بال بعض الناس يزداد بالعلم كبراً وأمناً فاعلم أن لذلك سببين:

أحدهما: أن يكون اشتغاله بما يسمى علماً وليس علماً حقيقيًّا، وإنما العلم الحقيقي ما يعرف به

---

(١) ...المعجم الكبير، الحديث: ٢٦٨٨، ٣/٦٨.

(٢) أي يكونوا كالرقيق له. (اتحاف)

(٣) أي يجعله سخرة في قضاءها. (اتحاف)

www.dawateislami.net

العبد ربه ونفسه وخطر أمره في لقاء الله والحجاب منه، وهذا يورث الخشية والتواضع دون الكبر والأمن قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاؤُا﴾ [فاطر:٢٨] فأما ما وراء ذلك كعلم الطب والحساب واللغة والشعر والنحو وفصل الخصومات وطرق المجادلات فإذا تجرد الإنسان لها حتى امتلأ منها امتلأ بها كبراً ونفاقاً وهذه بأن تسمى صناعات أولى من أن تسمى علوماً بل العلم هو معرفة العبودية والربوبية وطريق العبادة وهذه تورث التواضع غالباً.

السبب الثاني: أن يخوض العبد في العلم وهو خبيث الدخلة رديء النفس سيء الأخلاق، فإنه لم يشتغل أولاً بتهذيب نفسه وتزكية قلبه بأنواع المجاهدات ولم يرض نفسه في عبادة ربه فبقي خبيث الجوهر، فإذا خاض في العلم أي علم كان صادف العلم من قلبه منزلاً خبيثاً فلم يطب ثمره ولم يظهر في الخير أثره. وقد ضرب وهب لهذا مثلاً فقال: العلم كالغيث ينزل من السماء حلواً صافياً فتشربه الأشجار بعروقها فتحوله على قدر طعومها فيزداد المر مرارة والحلو حلاوة، فكذلك العلم تحفظه الرجال فتحوله على قدر هممها وأهوائها فيزيد المتكبر كبراً والمتواضع تواضعاً وهذا لأن من كانت همته الكبر وهو جاهل فإذا حفظ العلم وجد ما يتكبر به فازداد كبراً وإذا كان الرجل خائفاً مع جهله فازداد علماً علم أن الحجة قد تأكدت عليه فيزداد خوفاً وإشفاقاً وذلاً وتواضعاً.

فالعلم من أعظم ما يتكبر به؛ ولذلك قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعرآء:٢١٥] وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩] ووصف أولياءه فقال: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة:٥٤] وكذلك قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه العباس رضي الله عنه: ((**يَكُوْنُ قَوْمٌ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لاَ يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ يَقُولُونَ قَدْ قَرَأْنَا الْقُرْآنَ فَمَنْ أَقْرَأُ مِنَّا وَمَنْ أَعْلَمُ مِنَّا**)) ثم التفت إلى أصحابه وقال: ((**أُولَئِكَ مِنْكُمْ أَيُّهَا الأُمَّةُ أُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ**))[1] ولذلك قال عمر رضي الله عنه: لا تكونوا جبابرة العلماء فلا يفي علمكم بجهلكم، ولذلك استأذن تميم الداري عمر رضي الله عنه في القصص فأبى أن يأذن له وقال: إنه الذبح. واستأذنه رجل كان إمام قوم أنه إذا سلم من صلاته ذكرهم فقال: إني أخاف أن تنتفخ حتى تبلغ الثريا.

وصلى حذيفة بقوم فلما سلم من صلاته قال لتلتمسن إماماً غيري أو لتصلن وحداناً فإني رأيت في نفسي أنه ليس في القوم أفضل مني. فإذا كان مثل حذيفة لا يسلم فكيف يسلم الضعفاء من متأخري هذه الأمة فما أعز على بسيط الأرض عالماً يستحق أن يقال له عالم ثم إنه لا يحركه عز العلم وخيلاءه.

---

(١) ...الزهد لابن مبارك، باب ذمّ الرياء والعجب وغير ذلك، الحديث: ٤٥٠، ص: ١٥٢.

www.dawateislami.net

فإن وجد ذلك فهو صديق زمانه فلا ينبغي أن يفارق بل يكون النظر إليه عبادة فضلاً عن الاستفادة من أنفاسه وأحواله لو عرفنا ذلك ولو في أقصى الصين لسعينا إليه رجاء أن تشملنا بركته وتسري إلينا سيرته وسجيته، وهيهات فأنى! يسمح آخر الزمان بمثلهم؟ فهم أرباب الإقبال وأصحاب الدول قد انقرضوا[1] في القرن الأول ومن يليهم، بل يعز في زماننا عالم يختلج في نفسه الأسف والحزن على فوات هذه الخصلة فذلك أيضاً إما معدوم وإما عزيز ولولا بشارة رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: ((**سَيَأْتِيْ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ مَنْ تَمَسَّكَ فِيْهِ بِعُشْرِ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ نَجَا**))[2] لكان جديراً بنا أن نقتحم، والعياذ بالله تعالى ورطة اليأس والقنوط مع ما نحن عليه من سوء أعمالنا، ومن لنا أيضاً بالتمسك بعشر ما كانوا عليه، وليتنا تمسكنا بعشر عشره. فنسأل الله تعالى أن يعاملنا بما هو أهله ويستر علينا قبائح أعمالنا كما يقتضيه كرمه وفضله.

الثاني: العمل والعبادة وليس يخلو عن رذيلة العز والكبر واستمالة قلوب الناس الزهاد والعباد ويترشح الكبر منهم في الدين والدنيا.

أما في الدنيا: فهو أنهم يرون غيرهم بزيارتهم أولى منهم بزيارة غيرهم، ويتوقعون قيام الناس بقضاء حوائجهم وتوقيرهم والتوسع لهم في المجالس وذكرهم بالورع والتقوى وتقديمهم على سائر الناس في الحظوظ إلى جميع ما ذكرناه في حق العلماء وكأنهم يرون عبادتهم منة على الخلق.

وأما في الدين: فهو أن يرى الناس هالكين ويرى نفسه ناجياً وهو الهالك تحقيقاً مهما رأى ذلك قال صلى الله عليه وسلم: ((**إِذَا سَمِعْتُمُ الرَّجُلَ يَقُوْلُ هَلَكَ النَّاسُ فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ**))[3] وإنما قال ذلك لأن هذا القول منه يدل على أنه مزدر بخلق الله، مغتر بالله، آمن من مكره غير خائف من سطوته[4]، وكيف لا يخاف ويكفيه شراً احتقاره لغيره قال صلى الله عليه وسلم: ((**كَفَى بِالْمَرْءِ شَرًّا أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ**))[5] وكم من الفرق بينه وبين من يحبه لله ويعظمه لعبادته ويستعظمه ويرجو له ما لا يرجوه لنفسه، فالخلق يدركون النجاة بتعظيمهم إياه لله فهم يتقربون إلى الله تعالى بالدنو منه وهو يتمقت إلى الله بالتنزه والتباعد منهم كأنه مترفع عن مجالستهم، فما أجدرهم إذ أحبوه لصلاحه أن ينقلهم الله إلى درجته في العمل وما أجدره إذا ازدراهم بعينه أن ينقله الله إلى حد الإهمال.

---

(١) أي ذهبوا ولم يَبقَ منهم أحد. (المعجم الوسيط)

(٢) ... سنن الترمذي، كتاب الفتن، الحديث: ٢٢٧٤، ٤/١٨.

(٣) ... صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي من قول هلك الناس، الحديث: ٢٦٢٣، ص: ١٤١٢.

(٤) السطوة: شدة البطش. (جمع الجوامع)

(٥) ... صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم... الخ، الحديث: ٢٥٦٤، ص: ١٣٨٧.

www.dawateislami.net

كما روي أن رجلاً في بني إسرائيل كان يقال له: خليع بني إسرائيل -لكثرة فساده- مر برجل آخر يقال له: عابد بني إسرائيل وكان على رأس العابد غمامة تظله فلما مر الخليع به فقال الخليع في نفسه: أنا خليع بني إسرائيل وهذا عابد بني إسرائيل فلو جلست إليه لعل الله يرحمني فجلس إليه فقال العابد: أنا عابد بني إسرائيل وهذا خليع بني إسرائيل فكيف يجلس إليّ! فأنف منه وقال له: قم عني فأوحى الله إلى نبي ذلك الزمان مرهما فليستأنفا العمل فقد غفرت للخليع وأحبطت عمل العابد. وفي رواية أخرى: فتحولت الغمامة إلى رأس الخليع. وهذا يعرفك أن الله تعالى إنما يريد من العبيد قلوبهم فالجاهل العاصي إذا تواضع هيبة لله وذل خوفاً منه فقد أطاع الله بقلبه فهو أطوع لله من العالم المتكبر والعابد المعجب.

وكذلك روي أن رجلاً في بني إسرائيل أتى عابداً من بني إسرائيل فوطئ على رقبته وهو ساجد فقال: ارفع فوالله لا يغفر الله لك، فأوحى الله إليه أيها المتألي[1] بل أنت لا يغفر الله لك. وكذلك قال الحسن: وحتى أن صاحب الصوف أشد كبراً من صاحب المطرز الخز. أي أن صاحب الخز يذل لصاحب الصوف ويرى الفضل وصاحب الصوف يرى الفضل لنفسه وهذه الآفة أيضاً قلما ينفك عنها كثير من العباد وهو أنه لو استخف به مستخف أو آذاه مؤذ استبعد أن يغفر الله له ولا يشك في أنه صار ممقوتاً عند الله ولو آذى مسلماً آخر لم يستنكر ذلك الاستنكار، وذلك لعظم قدر نفسه عنده وهو جهل وجمع بين الكبر والعجب واغترار بالله، وقد ينتهي الحمق[2] والغباوة ببعضهم إلى أن يتحدى ويقول: سترون ما يجري عليه وإذا أصيب بنكبة[3] زعم أن ذلك من كراماته وأن الله ما أراد به إلا شفاء غليله والانتقام له منه مع أنه يرى طبقات من الكفار يسبون الله ورسوله وعرف جماعة آذوا الأنبياء صلوات الله عليهم فمنهم من قتلهم ومنهم من ضربهم ثم إن الله أمهل أكثرهم ولم يعاقبهم في الدنيا بل ربما أسلم بعضهم فلم يصبه مكروه في الدنيا ولا في الآخرة ثم الجاهل المغرور يظن أنه أكرم على الله من أنبيائه وأنه قد انتقم له بما لا ينتقم لأنبيائه به ولعله في مقت الله بإعجابه وكبره وهو غافل عن هلاك نفسه فهذه عقيدة المغترين.

وأما الأكياس[4] من العباد: فيقولون ما كان يقوله عطاء السلمي حين كان تهب ريح أو تقع صاعقة: ما يصيب الناس ما يصيبهم إلا بسببي ولو مات عطاء لتخلصوا. وما قاله الآخر بعد انصرافه من عرفات: كنت أرجو الرحمة لجميعهم لولا كوني فيهم. فانظر إلى الفرق بين الرجلين هذا يتقي الله ظاهراً وباطناً وهو وجل على نفسه مزدر لعمله وسعيه وذاك ربما يضمر من الرياء والكبر والحسد والغل

---

(١) أي الحالف. (اتحاف)

(٢) أي فساد جوهر العقل. (اتحاف)

(٣) أي مصيبة عرضت له. (اتحاف)

(٤) أي العقلاء. (اتحاف)

www.dawateislami.net

ما هو ضحكة للشيطان به ثم إنه يمتن على الله بعمله، ومن اعتقد جزماً أنه فوق أحد من عباد الله فقد أحبط بجهله جميع عمله فإن الجهل أفحش المعاصي وأعظم شيء يبعد العبد عن الله، وحكمه لنفسه بأنه خير من غيره جهل محض وأمن من مكر الله ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون، ولذلك روي أن رجلاً ذكر بخير للنبي صلى الله عليه وسلم فأقبل ذات يوم فقالوا: يا رسول الله هذا الذي ذكرناه لك فقال: ((**إِنِّي أَرَى فِيْ وَجْهِهِ سَفْعَةً**[1] **مِّنَ الشَّيْطَانِ**))[2] فسلم ووقف على النبي صلى الله عليه وسلم فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: ((**أَسْأَلُكَ بِاللهِ حَدَّثَتك نَفْسُكَ أَنْ لَيْسَ فِي الْقَومِ أَفْضَلُ مِنْكَ؟**)) قال اللّهم نعم. فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنور النبوة ما استكن في قلبه سفعة في وجهه وهذه آفة لا ينفك عنها أحد من العباد إلا من عصمه الله لكن العلماء والعباد في آفة الكبر على ثلاث درجات.

الدرجة الأولى: أن يكون الكبر مستقراً في قلبه يرى نفسه خيراً من غيره إلا أنه يجتهد ويتواضع ويفعل فعل من يرى غيره خيراً من نفسه وهذا قد رسخ في قلبه شجرة الكبر ولكنه قطع أغصانها بالكلية.

الثانية: أن يظهر ذلك على أفعاله بالترفع في المجالس والتقدم على الأقران وإظهار الإنكار على من يقصر في حقه وأدنى ذلك في العالم أن يصعر خده للناس كأنه معرض عنهم. وفي العابد أن يعبس وجهه ويقطب جبينه كأنه متنزه عن الناس مستقذر لهم أو غضبان عليهم وليس يعلم المسكين أن الورع ليس في الجبهة حتى تقطب ولا في الوجه حتى يعبس ولا في الخد حتى يصعر ولا في الرقبة حتى تطأطأ ولا في الذيل حتى يضم إنما الورع في القلوب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((**التَّقْوَى هَاهُنَا**))[3] وأشار إلى صدره، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أكرم الخلق وأتقاهم وكان أوسعهم خلقاً وأكثرهم بشراً وتبسماً وانبساطاً؛ ولذلك قال الحارث بن جزء الزبيدي صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم: يعجبني من القراء كل طليق مضحاك، فأما الذي تلقاه ببشر ويلقاك بعبوس يمن عليك بعلمه فلا أكثر الله في المسلمين مثله ولو كان الله سبحانه وتعالى يرضى ذلك لما قال لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿**وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ**﴾ [الشعرآء:٢١٥].

وهؤلاء الذين يظهر أثر الكبر على شمائلهم فأحوالهم أخف حالاً ممن هو في الرتبة الثالثة وهو الذي يظهر الكبر على لسانه حتى يدعوه إلى الدعوى والمفاخرة والمباهاة وتزكية النفس وحكايات الأحوال والمقامات والتشمر لغلبة الغير في العلم والعمل.

---

(١) أي بالفتح والضم، أي أثرَ سوادٍ أُشربَ بِحُمرة. (اتحاف)

(٢) ... سنن الدارقطني، كتاب العيدين، باب التشديد في ترك الصلاة...الخ، الحديث: ١٧٣٨، ٢/٦٥.

(٣) ... صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم...الخ، الحديث: ٢٥٦٤، ص: ١٣٨٧.

www.dawateislami.net

أما العابد: فإنه يقول في معرض التفاخر لغيره من العباد: من هو؟ وما عمله؟ ومن أين زهده؟ فيطول اللسان فيهم بالتنقص ثم يثني على نفسه ويقول: إني لم أفطر منذ كذا وكذا ولا أنام الليل وأختم القرآن في كل يوم وفلان ينام سحراً ولا يكثر القراءة وما يجري مجراه وقد يزكي نفسه ضمناً فيقول: قصدني فلان بسوء فهلك ولده وأخذ ماله أو مرض أو ما يجري مجراه يدعي الكرامة لنفسه. وأما مباهاته فهو أنه لو وقع مع قوم يصلون بالليل قام وصلى أكثر مما كان يصلي وإن كانوا يصبرون على الجوع فيكلف نفسه الصبر ليغلبهم ويظهر لهم قوته وعجزهم، وكذلك يشتد في العبادة خوفاً من أن يقال غيره: أعبد منه أو أقوى منه في دين الله.

وأما العالم: فإنه يتفاخر ويقول: أنا متفنن في العلوم[1] ومطلع على الحقائق ورأيت من الشيوخ فلاناً وفلاناً ومن أنت؟ وما فضلك ومن لقيت؟ وما الذي سمعت من الحديث؟ كل ذلك ليصغره ويعظم نفسه. وأما مباهاته فهو أنه يجتهد في المناظرة أن يغلب ولا يغلب ويسهر طول الليل والنهار في تحصيل علوم يتجمل بها في المحافل كالمناظرة والجدل وتحسين العبارة وتسجيع الألفاظ وحفظ العلوم الغريبة ليغرب بها على الأقران ويتعظم عليهم ويحفظ الأحاديث ألفاظها وأسانيدها حتى يرد على من أخطأ فيها فيظهر فضله ونقصان أقرانه ويفرح مهما أخطأ واحد منهم ليرد عليه ويسوء إذا أصاب وأحسن خيفة من أن يرى أنه أعظم منه.

فهذا كله أخلاق الكبر وآثاره التي يثمرها التعزز بالعلم والعمل، وأين من يخلو عن جميع ذلك أو عن بعضه؟ فليت شعري من الذي عرف هذه الأخلاق من نفسه وسمع قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ((**لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ كِبْرٍ**))[2] كيف يستعظم نفسه ويتكبر على غيره ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إنه من أهل النار؟ وإنما العظيم من خلا عن هذا ومن خلا عنه لم يكن فيه تعظم وتكبر. والعالم هو الذي فهم أن الله تعالى قال له إن لك عندنا قدراً ما لم تر لنفسك قدراً فإن رأيت لها قدراً فلا قدر لك عندنا. ومن لم يعلم هذا من الدين فاسم العالم عليه كذب ومن علمه لزمه أن لا يتكبر ولا يرى لنفسه قدراً فهذا هو التكبر بالعلم والعمل.

الثالث: التكبر بالحسب والنسب فالذي له نسب شريف يستحقر من ليس له ذلك النسب وإن كان أرفع منه عملاً وعلماً وقد يتكبر بعضهم فيرى أن الناس له أموال وعبيد ويأنف من مخالطتهم ومجالستهم وثمرته على اللسان التفاخر به فيقول لغيره: يا نبطي يا هندي ويا أرمني من أنت؟ ومن أبوك؟ فأنا فلان ابن فلان وأين لمثلك أن يكلمني أو ينظر إلي ومع مثلي تتكلم وما يجري مجراه، وذلك

---

(١) أي صاحب فنون. (اتحاف)

(٢) ... صحيح مسلم، كتاب الايمان، باب تحريم الكبر وبيانه، الحديث: ٩١، ص: ٦١.

www.dawateislami.net

عرق دفين في النفس لا ينفك عنه نسيب وإن كان صالحاً وعاقلاً إلا أنه قد لا يترشح منه ذلك عند اعتدال الأحوال فإن غلبه غضب أطفأ ذلك نور بصيرته وترشح منه.

كما روي عن أبي ذر أنه قال: قاولت[1] رجلاً عند النبي صلى الله عليه وسلم فقلت له: يا ابن السوداء فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((**يَا أَبَا ذَرٍّ طَفُّ الصَّاعِ طَفُّ الصَّاعِ لَيْسَ لابْنِ الْبَيْضَاءِ عَلَى ابْنِ السَّوْدَاءِ فَضْلٌ**))[2] فقال أبو ذر رحمه الله: فاضطجعت وقلت للرجل: قم فطأ على خدي. فانظر كيف نبهه رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رأى لنفسه فضلاً بكونه ابن بيضاء وأن ذلك خطأ وجهل؟ وانظر كيف تاب وقلع من نفسه شجرة الكبر بأخمص قدم من تكبر عليه إذ عرف أن العز لا يقمعه إلا الذل. ومن ذلك ما روي أن رجلين تفاخرا عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال أحدهما للآخر: أنا فلان بن فلان فمن أنت لا أم لك؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((**افْتَخَرَ رَجُلانِ عِنْدَ مُوْسَى عَلَيْهِ السَّلامُ فَقَالَ أَحَدُهُمَا أَنَا فُلانُ بْنُ فُلانٍ حَتَّى عَدَّ تِسْعَةَ فَأَوْحَى اللهُ تَعَالَى إِلَى مُوْسَى عَلَيْهِ السَّلامُ قُلْ لِلَّذِي افْتَخَرَ بَلِ التِّسْعَةُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ وَأَنْتَ عَاشِرُهُمْ**))[3] وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((**لَيَدَعَنَّ قَوْمٌ الْفَخْرَ بِآبَائِهِمْ وَقَدْ صَارُوْا فَحْمًا فِي جَهَنَّمَ أَوْ لَيَكُوْنُنَّ أَهْوَنَ عَلَى اللهِ مِنَ الْجِعْلانِ الَّتِي تَدُوْفُ[4] بِآنَافِهَا الْقَذَرَ**))[5].

الرابع: التفاخر بالجمال، وذلك أكثر ما يجري بين النساء ويدعو ذلك إلى التنقص والثلب[6] والغيبة وذكر عيوب الناس ومن ذلك ما روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: دخلت امرأة على النبي صلى الله عليه وسلم فقلت بيدي هكذا أي أنها قصيرة، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((**قَدِ اغْتَبْتِهَا**))[7] وهذا منشأه خفاء الكبر لأنها لو كانت أيضاً قصيرة لما ذكرتها بالقصر، فكأنها أعجبت بقامتها واستقصرت المرأة في جنب نفسها فقالت ما قالت.

الخامس: الكبر بالمال، وذلك يجري بين الملوك في خزائنهم وبين التجار في بضائعهم وبين الدهاقين في أراضيهم وبين المتجملين في لباسهم وخيولهم ومراكبهم فيستحقر الغني الفقيرَ ويتكبر عليه

---

(١) أي خاصَمْتُ. (اتحاف)

(٢) ...تاريخ مدينة دمشق، الرقم: ٩٧٤، بلال بن رباح، الحديث: ٢٢٦٩، ١٠/٤٦٤.

(٣) ...المسند للامام احمد بن حنبل، مسند الانصار، حديث معاذ بن جبل، الحديث ٢٢١٥٠، ٨/٢٥٤ بتغير.

(٤) في كثير من كتب الأحاديث وَرَدَ «تَدْفَعُ» مكان «تَدُوْفُ». [علمية]

(٥) ...سنن ابي داود، كتاب الادب، باب في التفاخر بالاحساب، الحديث: ٥١١٦، ٤/٤٢٧.

(٦) أي المَسَبَّة والتعييب. (اتحاف)

(٧) ...موسوعة الامام ابن ابي الدنيا، كتاب الصمت وآداب اللسان، الحديث: ٢٠٧، ٧/١٤٣.

www.dawateislami.net

ويقول له: أنت مكد[1] ومسكين وأنا لو أردت لاشتريت مثلك واستخدمت من هو فوقك ومن أنت؟ وما معك؟ وأثاث بيتي يساوي أكثر من جميع مالك وأنا أنفق في اليوم ما لا تأكله في سنة، وكل ذلك لاستعظامه للغنى واستحقاره للفقر وكل ذلك جهل منه بفضيلة الفقر وآفة الغنى وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف:٣٤] حتى أجابه فقال: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا﴾ [الكهف:٣٩-٤١] وكان ذلك منه تكبراً بالمال والولد ثم بين الله عاقبة أمره بقوله: ﴿يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٢].

ومن ذلك تكبر قارون إذ قال تعالى إخباراً عن تكبره: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [القصص:٧٩].

السادس: الكبر بالقوة وشدة البطش والتكبر به على أهل الضعف.

السابع: التكبر بالأتباع والأنصار والتلامذة والغلمان وبالعشيرة والأقارب والبنين ويجري ذلك بين الملوك في المكاثرة بالجنود وبين العلماء في المكاثرة بالمستفيدين.

وبالجملة فكل ما هو نعمة وأمكن أن يعتقد كمالاً وإن لم يكن في نفسه كمالاً أمكن أن يتكبر به حتى إن المخنث ليتكبر على أقرانه بزيادة معرفته وقدرته في صنعة المخنثين لأنه يرى ذلك كمالاً فيفتخر به وإن لم يكن فعله إلا نكالاً، وكذلك الفاسق قد يفتخر بكثرة الشرب وكثرة الفجور بالنسوان والغلمان ويتكبر به لظنه أن ذلك كمالاً وإن كان مخطئًا فيه.

فهذه مجامع ما يتكبر به العباد بعضهم على بعض فيتكبر من يدلي بشيء منه على من لا يدلي به أو على من يدلي بما هو دونه في اعتقاده وربما كان مثله أو فوقه عند الله تعالى كالعالم الذي يتكبر بعلمه على من هو أعلم منه لظنه أنه هو الأعلم ولحسن اعتقاده في نفسه. نسأل الله العون بلطفه ورحمته إنه على كل شيء قدير.

بيان البواعث على التكبر وأسبابه المهيجة له:

اعلم أن الكبر خلق باطن وأما ما يظهر من الأخلاق والأفعال فهي ثمرة ونتيجة وينبغي أن تسمى تكبراً، ويخص اسم الكبر بالمعنى الباطن الذي هو استعظام النفس ورؤية قدرها فوق قدر الغير وهذا الباطن له موجب واحد وهو العجب الذي يتعلق بالمتكبر -كما سيأتي معناه- فإنه إذا أعجب بنفسه وبعلمه وبعمله أو بشيء من أسبابه، استعظم نفسه وتكبر.

وأما الكبر الظاهر فأسبابه ثلاثة: سبب في المتكبر، وسبب في المتكبر عليه، وسبب فيما يتعلق بغيرهما،

---

(١) أي فقير. (اتحاف)

www.dawateislami.net

أما السبب الذي في المتكبر فهو العجب، والذي يتعلق بالمتكبر عليه هو الحقد والحسد، والذي يتعلق بغيرهما هو الرياء. فتصير الأسباب بهذا الاعتبار أربعة: العجب والحقد والحسد والرياء.

أما العجب: فقد ذكرنا أنه يورث الكبر الباطن والكبر الباطن يثمر التكبر الظاهر في الأعمال والأقوال والأحوال.

وأما الحقد: فإنه يحمل على التكبر من غير عجب كالذي يتكبر على من يرى أنه مثله أو فوقه ولكن قد غضب عليه بسبب سبق منه فأورثه الغضب حقداً ورسخ في قلبه بغضه فهو لذلك لا تطاوعه نفسه أن يتواضع له وإن كان عنده مستحقًّا للتواضع فكم من رذل لا تطاوعه نفسه على التواضع لواحد من الأكابر لحقده عليه أو بغضه له ويحمله ذلك على رد الحق إذا جاء من جهته، وعلى الأنفة[1] من قبول نصحه وعلى أن يجتهد في التقدم عليه وإن علم أنه لا يستحق ذلك وعلى أن لا يستحله وإن ظلمه فلا يعتذر إليه وإن جنى عليه ولا يسأله عما هو جاهل به.

وأما الحسد: فإنه أيضاً يوجب البغض للمحسود وإن لم يكن من جهته إيذاء وسبب يقتضي الغضب والحقد ويدعو الحسد أيضاً إلى جحد الحق حتى يمنع من قبول النصيحة وتعلم العلم، فكم من جاهل يشتاق إلى العلم وقد بقي في رذيلة الجهل لاستنكافه أن يستفيد من واحد من أهل بلده أو أقاربه حسداً وبغياً عليه فهو يعرض عنه ويتكبر عليه مع معرفته بأنه يستحق التواضع بفضل علمه ولكن الحسد يبعثه على أن يعامله بأخلاق المتكبرين وإن كان في باطنه ليس يرى نفسه فوقه.

وأما الرياء: فهو أيضاً يدعو إلى أخلاق المتكبرين حتى إن الرجل ليناظر من يعلم أنه أفضل منه وليس بينه وبينه معرفة ولا محاسدة ولا حقد ولكن يمتنع من قبول الحق منه ولا يتواضع له في الاستفادة خيفة من أن يقول الناس: إنه أفضل منه، فيكون باعثه على التكبر عليه الرياء المجرد ولو خلا معه بنفسه لكان لا يتكبر عليه. وأما الذي يتكبر بالعجب أو الحسد أو الحقد فإنه يتكبر أيضاً عند الخلوة به مهما لم يكن معهما ثالث. وكذلك قد ينتمي إلى نسب شريف كاذباً وهو يعلم أنه كاذب ثم يتكبر به على من ليس ينتسب إلى ذلك النسب ويترفع عليه في المجالس ويتقدم عليه في الطريق ولا يرضى بمساواته في الكرامة والتوقير وهو عالم باطناً بأنه لا يستحق ذلك ولا كبر في باطنه لمعرفته بأنه كاذب في دعوى النسب، ولكن يحمله الرياء على أفعال المتكبرين. وكأن اسم المتكبر إنما يطلق في الأكثر على من يفعل هذه الأفعال عن كبر في الباطن صادر عن العجب والنظر إلى الغير بعين الاحتقار وهو إن سمي متكبراً فلأجل التشبه بأفعال الكبر نسأل الله حسن التوفيق والله تعالى أعلم.

---

(١) الغَيرة. (تاج العروس)

www.dawateislami.net

بيان أخلاق المتواضعين ومجامع ما يظهر فيه أثر التواضع والتكبر:

اعلم أن التكبر يظهر في شمائل الرجل كصعر في وجهه ونظره شزراً وإطراقه رأسه وجلوسه متربعاً أو متكئاً وفي أقواله حتى في صوته ونغمته وصيغته في الإيراد، ويظهر في مشيته وتبختره وقيامه وجلوسه وحركاته وسكناته وفي تعاطيه لأفعاله وفي سائر تقلباته في أحواله وأقواله وأعماله. فمن المتكبرين من يجمع ذلك كله ومنهم من يتكبر في بعض ويتواضع في بعض.

فمنها: التكبر بأن يحب قيام الناس له أو بين يديه، وقد قال علي كرم الله وجهه: من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إلى رجل قاعد وبين يديه قوم قيام.وقال أنس: لم يكن شخصٌ أَحَبَّ إليهم مِن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم، وكانوا إذا رَأَوه لَم يقوموا له لِمَا يَعلمون مِن كَراهتِه لذلك[1].

ومنها: أن لا يمشي إلا ومعه غيره يمشي خلفه قال أبو الدرداء: لا يزال العبد يزداد من الله بعداً ما مشى خلفه. وكان عبد الرحمن بن عوف لا يعرف من عبيده إذ كان لا يتميز عنهم في صورة ظاهرة، ومشى قوم خلف الحسن البصري فمنعهم وقال: ما يبقى هذا من قلب العبد، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض الأوقات يمشي مع بعض الأصحاب فيأمرهم بالتقدم ويمشي في غمارهم، إما لتعليم غيره أو لينفي عن نفسه وساوس الشيطان بالكبر والعجب كما أخرج الثوب الجديد في الصلاة وأبدله بالخليع لأحد هذين المعنيين.

ومنها: أن لا يزور غيره وإن كان يحصل من زيارته خير لغيره في الدين وهو ضد التواضع روي أن سفيان الثوري قدم الرملة فبعث إليه إبراهيم بن أدهم: أن تعال فحدثنا، فجاء سفيان فقيل له: يا أبا إسحاق تبعث إليه بمثل هذا فقال: أردت أن أنظر كيف تواضعه.

ومنها: أن يستنكف من جلوس غيره بالقرب منه إلا أن يجلس بين يديه والتواضع خلافه. قال ابن وهب: جلست إلى عبد العزيز بن أبي رواد فمس فخذي فخذه فنحيت نفسي عنه فأخذ ثيابي فجرني إلى نفسه وقال لي: لم تفعلون بي ما تفعلون بالجبابرة؟ وإني لا أعرف رجلاً منكم شرًّا مني. وقال أنس: كانت الوليدة من ولائد المدينة تأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا ينزع يده منها حتى تذهب به حيث شاءت.

ومنها: أن يتوقى من مجالسة المرضى والمعلولين ويتحاشى عنهم وهو الكبر. دخل رجل وعليه جدري قد تقشر على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده ناس من أصحابه يأكلون فما جلس إلى أحد إلا قام من جنبه فأجلسه النبي صلى الله عليه وسلم إلى جنبه. وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما لا يحبس عن طعامه مجذوماً ولا أبرص ولا مبتلي إلا أقعدهم على مائدته.

---

(١) وَأَمَّا لَوْ أَحَبَّ ذَلِكَ تَعْظِيمًا لِشَرَفِ الْعِلْمِ وَإِظْهَارًا لِمَرْتَبَةِ رَوْنَقِهِ فَلَيْسَ بِمَذْمُومٍ عَلَى إطْلَاقِهِ. (بريقة محمودية)

www.dawateislami.net

ومنها: أن لا يتعاطى بيده شغلاً في بيته، والتواضع خلافه. روي أن عمر بن عبدالعزيز أتاه ليلة ضيف وكان يكتب فكاد السراج يطفأ فقال الضيف: أقوم إلى المصباح فأصلحه؟ فقال: ليس من كرم الرجل أن يستخدم ضيفه قال: أفأنبه الغلام؟ فقال: هي أول نومة نامها، فقام وأَخَذَ البطة وملأ المصباح زيتاً، فقال الضيف: قمت أنت بنفسك يا أمير المؤمنين! فقال: ذهبتُ وأنا عُمَرُ ورجعتُ وأنا عُمَرُ ما نقص مني شيء، وخير الناس مَن كان عند الله مُتواضِعاً.

ومنها: أن لا يأخذ متاعه ويحمله إلى بيته وهو خلاف عادة المتواضعين كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل وقال علي كرم الله وجهه: لا ينقص الرجل الكامل من كماله ما حمل من شيء إلى عياله. وكان أبو عبيدة ابن الجراح وهو أمير: يحمل سطلاً[1] له من خشب إلى الحمام. وقال ثابت بن أبي مالك: رأيت أبا هريرة أقبل من السوق يحمل حزمة حطب وهو يومئذ خليفة لمروان فقال: أوسع الطريق للأمير يا ابن أبي مالك. وعن الأصبغ بن نباتة قال: كأني أنظر إلى عمر رضي الله عنه معلقاً لحماً في يده اليسرى وفي يده اليمنى الدرة يدور في الأسواق حتى دخل رحله[2]. وقال بعضهم: رأيت علياً رضي الله عنه قد اشترى لحماً بدرهم فحمله في ملحفته فقلت له: أحمل عنك يا أمير المؤمنين؟ فقال: لا، أبو العيال أحق أن يحمل.

ومنها: اللباس إذ يظهر به التكبر والتواضع وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((**اَلْبَذَاذَةُ مِنَ الإِيْمَانِ**))[3] فقال هارون: سألت معنا عن البذاذة فقال هو الدون من اللباس.

وقال زيد بن وهب: رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج إلى السوق ويده الدرة وعليه إزار فيه أربع عشرة رقعة بعضها من أدم، وعوتب علي كرم الله وجهه في إزار مرقوع فقال: يقتدي به المؤمن ويخشع له القلب. وقال عيسى عليه السلام: جودة الثياب خيلاء في القلب. وقال طاوس إني لأغسل ثوبي هذين فأنكر قلبي ما داما نقيين.

ويروى أن عمر بن عبد العزيز رحمه الله كان قبل أن يستخلف تشترى له الحلة بألف دينار فيقول: ما أَجودَها لولا خشونةٌ فيها! فلمّا استخلف كان يشترى له الثوبَ بخمسة دراهم، فيقول: ما أجودَه لولا لينه! فقيل له: أين لباسُك ومركبك وعطرك يا أمير المؤمنين؟ فقال: إن لي نفساً ذوّاقة توّاقة[4] وإنها لم تَذُق مِن الدنيا طبقةً إلا تَاقَتْ إلى الطبقة التي فوقَها، حتى إذا ذَاقتِ الخلافةَ وهي أرفعُ الطباقِ تَاقتْ إلى ما عند الله عزّوجلّ[5].

---

(١) الدلو أو شبهها يتطهر به في الحمام. (مختار الصحاح، أساس البلاغة)

(٢) أي منزله. (اتحاف)

(٣) ...سنن ابی داود، کتاب الترجل، الحدیث: ٤١٦١، ٤/١٠٣.

(٤) أي كثيرة الذوق والتَّوَقان. (اتحاف)

(٥) قال سعيد: الجنّة أَفضلُ مِن الخلافة. (اتحاف)

www.dawateislami.net

وقال سعيد بن سويد: صلى بنا عمر بن عبد العزيز الجمعة ثم جلس وعليه قميص مرقوع الجيب من بين يديه ومن خلفه فقال له رجل: يا أمير المؤمنين إن الله قد أعطاك فلو لبست..؟ فنكس رأسه ملياً[1] ثم رفع رأسه فقال: إن أفضل القصد عند الجدة[2] وإن أفضل العفو عند القدرة.

وقال صلى الله عليه وسلم: ((**مَنْ تَرَكَ زِيْنَةً لِلّٰهِ وَوَضَعَ ثِيَاباً حَسَنَةً تَوَاضُعاً لِلّٰهِ وَابْتِغَاءً لِمَرْضَاتِهِ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يَدَّخِرَ لَهُ عَبْقَرِيَّ الْجَنَّةِ**))[3].

فإن قلت: فقد قال عيسى عليه السلام: جودة الثياب خيلاء القلب. وقد سئل نبينا صلى الله عليه وسلم عن الجمال في الثياب هل هو من الكبر؟ فقال:

((**لاَ وَلَكِنَّ مَنْ سَفِهَ الْحَقَّ وَغَمِصَ النَّاسَ**))[4] فكيف طريق الجمع بينهما؟ فاعلم! أن الثوب الجديد ليس من ضرورته أن يكون من التكبر في حق كل أحد في كل حال وهو الذي أشار إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الذي عرفه رسول الله صلى الله عليه وسلم من حال ثابت بن قيس إذ قال إني امرء حبب إلي من الجمال ما ترى؟ فعرف أن ميله إلى النظافة وجودة الثياب لا ليتكبر على غيره فإنه ليس من ضرورته أن يكون من الكبر، وقد يكون ذلك من الكبر كما أن الرضا بالثوب الدون قد يكون من التواضع وعلامة المتكبر أن يطلب التجمل إذا رآه الناس ولا يبالي إذا انفرد بنفسه كيف كان وعلامة طالب الجمال أن يحب الجمال في كل شيء ولو في خلوته وحتى في سنور داره فذلك ليس من التكبر.

فإذا انقسمت الأحوال نزل قول عيسى عليه السلام على بعض الأحوال على أن قوله: «خيلاء القلب» يعني قد تورث خيلاء في القلب وقول نبينا صلى الله عليه وسلم: «إنه ليس من الكبر» يعني أن الكبر لا يوجبه ويجوز أن لا يوجبه الكبر ثم يكون هو مورثا للكبر.

وبالجملة فالأحوال تختلف في مثل هذا، والمحبوب الوسط من اللباس الذي لا يوجب شهرة بالجودة ولا بالرداءة وقد قال صلى الله عليه وسلم: ((**كُلُوا وَاشْرَبُوا وَالْبَسُوا وَتَصَدَّقُوا فِي غَيْرِ سَرَفٍ وَلاَ مَخِيلَةٍ**))[5] ((**إِنَّ اللّٰهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ**))[6] وقال بكر بن عبد الله المزني: البسوا

---

(١) أي زمانا (وساعةً). (اتحاف)

(٢) أي عند الغنى. (اتحاف)

(٣) ... كنزالعمال، كتاب الاخلاق، الباب الاوّل في الاخلاق والافعال المحمودة، الحديث: ٥٧٤٢، ٣/ ٥١.

(٤) ... المسند للامام احمد بن حنبل، مسند الشاميين، حديث عقبة بن عامر الجهني، الحديث: ١٧٣٧٤، ٢/ ٣٣.

(٥) ... سنن ابن ماجة، كتاب اللباس، باب لبس ما شئت ... الخ، الحديث: ٣٦٠٥، ٤/ ١٦٢.

... صحيح البخاري، كتاب اللباس، باب قول الله: قل من حرم زينة الله ... الخ، ٤، ٤٥.

(٦) ... سنن الترمذي، كتاب الادب، باب ماجاء ان الله يحب ... الخ، الحديث: ٢٨٢٨، ٤/ ٣٧٤.

www.dawateislami.net

ثياب الملوك وأميتوا قلوبكم بالخشية. وإنما خاطب بهذا قوماً يطلبون التكبر بثياب أهل الصلاح وقد قال عيسى عليه السلام: ما لكم تأتوني وعليكم ثياب الرهبان وقلوبكم قلوب الذئاب الضواري البسوا ثياب الملوك وأميتوا قلوبكم بالخشية.

ومنها: أن يتواضع بالاحتمال إذا سب وأوذي وأخذ حقه فذلك هو الأصل وقد أوردنا ما نقل عن السلف من احتمال الأذى في كتاب الغضب والحسد.

وبالجملة فمجامع حسن الأخلاق والتواضع سيرة النبي صلى الله عليه وسلم فيه فينبغي أن يقتدى به ومنه ينبغي أن يتعلم. وقد قال أبو سلمة قلت لأبي سعيد الخدري: ما ترى فيما أحدث الناس من الملبس والمشرب والمركب والمطعم؟ فقال: يا ابن أخي كل لله واشرب لله والبس لله وكل شيء من ذلك دخله زهو[1] أو مباهاة أو رياء أو سمعة فهو معصية وسرف وعالج في بيتك من الخدمة ما كان يعالج رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيته كان يعلف الناضح ويعقل البعير ويقم البيت ويحلب الشاة ويخصف النعل ويرقع الثوب ويأكل مع خادمه ويطحن عنه إذا أعيا، ويشتري الشيء من السوق ولا يمنعه من الحياء أن يلعقه بيده أو يجعله في طرف ثوبه، وينقلب إلى أهله يصافح الغني والفقير والكبير والصغير ويسلم مبتدئاً على كل من استقبله من صغير أو كبير أسود أو أحمر حر أو عبد من أهل الصلاة ليست له حلة لمدخله وحلة لمخرجه لا يستحي من أن يجيب إذا دعي وإن كان أشعث أغبر، ولا يحقر ما دعي إليه وإن لم يجد إلا حشف الدقل[2] لا يرفع غداء لعشاء ولا عشاء لغداء، هين المؤنة، لين الخلق، كريم الطبيعة، جميل المعاشرة، طليق الوجه بسام من غير ضحك[3] ،محزون من غير عبوس شديد في غير عنف متواضع في غير مذلة جواد من غير سرف، رحيم لكل ذي قربى ومسلم، رقيق القلب دائم الإطراق لم يبشم قط من شبع ولا يمد يده من طمع، قال أبو سلمة: فدخلت على عائشة رضي الله عنها فحدثتها بما قال أبو سعيد في زهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: ما أخطأ منه حرفاً ولقد قصر إذ ما أخبرك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يمتلئ قط شبعاً ولم يبث إلى أحد شكوى وإن كانت الفاقة لأحب إليه من اليسار والغنى، وإن كان ليظل جائعاً يلتوي ليلته حتى يصبح فما يمنعه ذلك عن صيام يومه ولو شاء أن يسأل ربه فيؤتى بكنوز الأرض وثمارها ورغد عيشها من مشارق الأرض ومغاربها لفعل، وربما بكيت رحمة له مما أوتي من الجوع فأمسح بطنه بيدي وأقول: نفسي لك الفداء لو تبلغت من الدنيا بقدر ما يقوتك ويمنعك من الجوع؟ فيقول يا عائشة! إخواني من أولي العزم من

---

(١) أي عجب. (اتحاف)

(٢) أي رديء التمر. (اتحاف)

(٣) أي كثير التبسم من غير مجاوزة فيه. (اتحاف)

www.dawateislami.net

الرسل قد صبروا على ما هو أشد من هذا فمضوا على حالهم وقدموا على ربهم فأكرم مآبهم وأجزل ثوابهم فأجدني أستحيي إن ترفهت[1] في معيشتي أن يقصر بي دونهم فاصبر أياماً يسيرة أحب إلي من أن ينقص حظي غداً في الآخرة وما من شيء أحب إلي من اللحوق بإخواني وأخلائي، قالت عائشة رضي الله عنها: فوالله ما استكمل بعد ذلك جمعة حتى قبضه الله عز وجل. فما نقل من أحواله صلى الله عليه وسلم يجمع جملة أخلاق المتواضعين فمن طلب التواضع فليقتد به ومن رأى نفسه فوق محله صلى الله عليه وسلم ولم يرض لنفسه بما رضي هو به فما أشد جهله! فلقد كان أعظم خلق الله منصباً في الدنيا والدين فلا عز ولا رفعة إلا في الاقتداء به ولذلك قال عمر رضي الله عنه: إنا قوم أعزنا الله بالإسلام فلا نطلب العز في غيره، لما عوتب في بذاذة هيئته عند دخوله الشام. وقال أبو الدرداء: اعلم أن لله عباداً يقال لهم الأبدال خلف من الأنبياء هم أوتاد الأرض فلما انقضت النبوة أبدل الله مكانهم قوماً من أمة محمد صلى الله عليه وسلم لم يفضلوا الناس بكثرة صوم ولا صلاة ولا حسن حلية ولكن بصدق الورع وحسن النية وسلامة الصدر لجميع المسلمين والنصيحة لهم ابتغاء مرضاة الله بصبر من غير تجبن وتواضع في غير مذلة وهم قوم اصطفاهم الله واستخلصهم لنفسه وهم أربعون صديقاً أو ثلاثون رجلاً قلوبهم على مثل يقين إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام لا يموت الرجل منهم حتى يكون الله قد أنشأ من يخلفه، واعلم يا أخي أنهم لا يلعنون شيئاً ولا يؤذونه ولا يحقرونه ولا يتطاولون عليه ولا يحسدون أحداً ولا يحرصون على الدنيا، هم أطيب الناس خيراً وألينهم عريكة[2] وأسخاهم نفساً علامتهم السخاء وسجيتهم البشاشة وصفتهم السلامة ليسوا اليوم في خشية وغداً في غفلة ولكن مداومين على حالهم الظاهر وهم فيما بينهم وبين ربهم لا تدركهم الرياح العواصف ولا الخيل المجراة، قلوبهم تصعد ارتياحاً إلى الله واشتياقاً إليه وقدماً في استباق الخيرات ﴿أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة:٢٢].

قال الراوي: فقلت: يا أبا الدرداء ما سمعت بصفة أشد عليّ من تلك الصفة وكيف لي أن أبلغها؟ فقال: ما بينك وبين أن تكون في أوسعها إلا أن تكون تبغض الدنيا فإنك إذا أبغضت الدنيا أقبلت على حب الآخرة وبقدر حبك للآخرة تزهد في الدنيا وبقدر ذلك تبصر ما ينفعك وإذا علم الله من عبد حسن الطلب أفرغ عليه السداد واكتنفه بالعصمة، واعلم يا ابن أخي أن ذلك في كتاب الله تعالى المنزل: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّالَّذِينَ هُمْ مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل:١٢٨]. قال يحيى بن كثير: فنظرنا في ذلك فما تلذذ

---

(١) أي تَوسَّعت. (اتحاف)

(٢) أي طبيعة. (اتحاف)

www.dawateislami.net

المتلذذون بمثل حب الله وطلب مرضاته. اللّهم اجعلنا من محبي المحبين لك يا رب العالمين فإنه لا يصلح لحبك إلا من ارتضيته صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

بيان الطريق في معالجة الكبر واكتساب التواضع له:

اعلم أن الكبر من المهلكات ولا يخلو أحد من الخلق عن شيء منه، وإزالته فرض عين ولا يزول بمجرد التمني بل بالمعالجة واستعمال الأدوية القامعة له وفي معالجته مقامان:

أحدهما: استئصال أصله من سنخه وقلع شجرته من مغرسها في القلب.

الثاني: دفع العارض منه بالأسباب الخاصة التي بها يتكبر الإنسان على غيره.

المقام الأول: في استئصال أصله وعلاجه علمي وعملي ولا يتم الشفاء إلا بمجموعهما.

أما العلمي: فهو أن يعرف نفسه ويعرف ربّه تعالى ويكفيه ذلك في إزالة الكبر، فإنه مهما عرف نفسه حق المعرفة علم أنه أذل من كل ذليل وأقل من كل قليل وأنه لا يليق به إلا التواضع والذلة والمهانة وإذا عرف ربَّه علم أنه لا تليق العظمة والكبرياء إلا بالله.

أما معرفته ربه وعظمته ومجده فالقول فيه يطول وهو منتهى علم المكاشفة، وأما معرفته نفسه فهو أيضاً يطول ولكنّا نذكر من ذلك ما ينفع في إثارة التواضع والمذلة ويكفيه أن يعرف معنى آية واحدة في كتاب الله فإن في القرآن علم الأولين والآخرين لمن فتحت بصيرته وقد قال تعالى: ﴿قُتِلَ الْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ [عبس:١٧-٢٢] فقد أشارت الآية إلى أول خلق الإنسان وإلى آخر أمره وإلى وسطه فلينظر الإنسان ذلك ليفهم معنى هذه الآية أما أول الإنسان فهو أنه لم يكن شيئًا مذكوراً وقد كان في حيز العدم دهوراً بل لم يكن لعدمه أول وأيّ شيء أخس وأقل من المحو والعدم؟ وقد كان كذلك في القدم ثم خلقه الله من أرذل الأشياء ثم من أقذرها إذ قد خلقه من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة ثم جعله عظماً ثم كسا العظم لحمًا فقد كان هذا بداية وجوده حيث كان شيئًا مذكورًا فما صار شيئًا مذكورًا إلا وهو على أخس الأوصاف والنعوت؛ إذ لم يخلق في ابتدائه كاملاً بل خلقه جمادًا ميتًا لا يسمع ولا يبصر ولا يحس ولا يتحرك ولا ينطق ولا يبطش ولا يدرك ولا يعلم فبدأ بموته قبل حياته وبضعفه قبل قوته وبجهله قبل علمه وبعماه قبل بصره وبصممه قبل سمعه وبكمه قبل نطقه وبضلالته قبل هداه وبفقره قبل غناه وبعجزه قبل قدرته فهذا معنى قوله: ﴿مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾ [عبس:١٨-١٩] ومعنى قوله: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾ [الدهر:١،٢] كذلك خلقه أولاً ثم امتن عليه فقال: ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾ [عبس:٢٠] وهذا إشارة إلى ما تيسر له في مدة

www.dawateislami.net

حياته إلى الموت وكذلك قال: ﴿مِنْ نُّطْفَةٍ اَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيْهِ فَجَعَلْنٰهُ سَمِيْعًا بَصِيْرًا اِنَّا هَدَيْنٰهُ السَّبِيْلَ اِمَّا شَاكِرًا وَّ اِمَّا كَفُوْرًا﴾ [الدهر:٣،٢] ومعناه أنه أحياه بعد أن كان جمادًا ميتًا ترابًا أولاً ونطفة ثانياً وأسمعه بعد ما كان أصم، وبصره بعد ما كان فاقداً للبصر، وقواه بعد الضعف، وعلمه بعد الجهل، وخلق له الأعضاء بما فيها من العجائب والآيات بعد الفقد لها وأغناه بعد الفقر، وأشبعه بعد الجوع، وكساه بعد العري. وهداه بعد الضلال. فانظر كيف دبره وصوره، وإلى السبيل كيف يسره، وإلى طغيان الإنسان ما أكفره، وإلى جهل الإنسان كيف أظهره فقال: ﴿اَوَلَمْ يَرَ الْاِنْسٰنُ اَنَّا خَلَقْنٰهُ مِنْ نُّطْفَةٍ فَاِذَا هُوَ خَصِيْمٌ مُّبِيْنٌ﴾ [يس:٧٧] ﴿وَ مِنْ اٰيٰتِهٖٓ اَنْ خَلَقَكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ اِذَآ اَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُوْنَ﴾ [الروم:٢٠] فانظر إلى نعمة الله كيف نقله من تلك الذلة والقلة والخسة والقذارة إلى هذه الرفعة والكرامة فصار موجودًا بعد العدم وحيا بعد الموت، وناطقًا بعد البكم، وبصيرًا بعد العمى، وقوياً بعد الضعف، وعالماً بعد الجهل، ومهدياً بعد الضلال، وقادراً بعد العجز، وغنياً بعد الفقر، فكان في ذاته لا شيء، وأيّ شيء أخس من لا شيء؟ وأيّ قلة أقل من العدم المحض؟ ثم صار بالله شيئًا وإنما خلقه من التراب الذليل الذي يوطأ بالأقدام والنطفة القذرة بعد العدم المحض أيضًا ليعرفه خسة ذاته فيعرف به نفسه وإنما أكمل النعمة عليه ليعرف بها ربه ويعلم بها عظمته وجلاله، وأنه لا يليق الكبرياء إلا به جل وعلا ولذلك امتن عليه فقال: ﴿اَلَمْ نَجْعَلْ لَّهٗ عَيْنَيْنِ وَ لِسَانًا وَّ شَفَتَيْنِ وَ هَدَيْنٰهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد:٨-١٠] وعرف خسته أولاً فقال: ﴿اَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّنْ مَّنِيٍّ يُّمْنٰى ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً﴾ [القيامة:٣٨،٣٧] ثم ذكر منته عليه فقال: ﴿فَخَلَقَ فَسَوّٰى فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَ الْاُنْثٰى﴾ [القيامة:٣٩،٣٨] ليدوم وجوده بالتناسل كما حصل وجوده أولاً بالاختراع.

فمن كان هذا بدءه وهذه أحواله فمن أين له البطر والكبرياء والفخر والخيلاء؟ وهو على التحقيق أخس الأخساء وأضعف الضعفاء! ولكن هذه عادة الخسيس إذا رفع من خسته شمخ بأنفه وتعظم، وذلك لدلالة خسة أوله ولا حول ولا قوة إلا بالله. نعم لو أكمله وفوض إليه أمره وأدام له الوجود باختياره لجاز أن يطغى وينسى المبدأ والمنتهى، ولكنه سلط عليه في دوام وجوده الأمراض الهائلة والأسقام العظيمة والآفات المختلفة والطباع المتضادة من المرة والبلغم والريح والدم يهدم البعض من أجزائه البعض شاء أم أبى، رضي أم سخط، فيجوع كرهاً ويعطش كرهاً ويمرض كرهاً ويموت كرهاً لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا خيراً ولا شراً، يريد أن يعلم الشيء فيجهله ويريد أن يذكر الشيء فينساه ويريد أن ينسى الشيء ويغفل عنه فلا يغفل عنه ويريد أن يصرف قلبه إلى ما يهمه فيجول في أودية الوساوس والأفكار بالاضطرار فلا يملك قلبه ولا نفسه نفسه، ويشتهي الشيء وربما يكون

www.dawateislami.net

هلاكه فيه ويكره الشيء وربما تكون حياته فيه يستلذ الأطعمة وتهلكه وترديه ويستبشع الأدوية وهي تنفعه وتحييه، ولا يأمن في لحظة من ليله أو نهاره أن يسلب سمعه وبصره وتفلج أعضاءه ويختلس عقله ويختطف روحه ويسلب جميع ما يهواه في دنياه، فهو مضطر ذليل إن ترك بقي وإن اختطف فني، عبد مملوك لا يقدر على شيء من نفسه ولا شيء من غيره، فأيّ شيء أذل منه لو عرف نفسه؟ وأنى يليق الكبر به لولا جهله؟ فهذا أوسط أحواله فليتأمله.

وأما آخره وموارده فهو الموت المشار إليه بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنْشَرَهُ﴾ [عبس:٢١،٢٢] ومعناه أنه يسلب روحه وسمعه وبصره وعلمه وقدرته وحسه وإدراكه وحركته فيعود جماداً كما كان أول مرة لا يبقى إلا شكل أعضائه وصورته لا حس فيه ولا حركة ثم يوضع في التراب فيصير جيفة منتنة قذرة كما كان في الأول نطفة مذرة، ثم تبلى أعضاءه وتتفتت أجزاءه وتنخر عظامه ويصير رميماً رفاتاً، ويأكل الدود أجزاءه فيبتدئ بحدقتيه فيقلعهما وبخديه فيقطعهما، وبسائر أجزائه فيصير روثاً في أجواف الديدان ويكون جيفة يهرب منه الحيوان ويستقذره كل إنسان ويهرب منه لشدة الأنتان، وأحسن أحواله أن يعود إلى ما كان فيصير تراباً يعمل منه الكيزان ويعمر منه البنيان، فيصير مفقوداً بعد ما أن موجوداً وصار كأن لم يغن بالأمس حصيداً كما كان في أول أمره أمداً مديداً، وليته بقي كذلك فما أحسنه لو ترك تراباً، لا بل يحييه بعد طول البلى ليقاسي شديد البلاء، فيخرج من قبره بعد جمع أجزائه المتفرقة ويخرج إلى أهوال القيامة فينظر إلى قيامة قائمة وسماء مشققة ممزقة وأرض مبدلة وجبال مسيرة ونجوم منكدرة وشمس منكسفة وأحوال مظلمة وملائكة غلاظ شداد وجهنم تزفر وجنة ينظر إليها المجرم فيتحسر ويرى صحائف منشورة فيقال له: اقرأ كتابك فيقول: وما هو؟ فيقال: كان قد وكّل بك في حياتك التي كنت تفرح بها وتتكبر بنعيمها وتفتخر بأسبابها ملكان رقيبان يكتبان عليك ما كنت تنطق به أو تعمله من قليل وكثير ونقير وقطمير وأكل وشرب وقيام وقعود، قد نسيت ذلك وأحصاه الله عليك فهلمّ إلى الحساب واستعد للجواب أو تساق إلى دار العذاب، فينقطع قلبه فزعاً من هول هذا الخطاب قبل أن تنتشر الصحيفة ويشاهد ما فيها من مخازيه فإذا شاهده قال: ﴿يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ [الكهف:٤٩] فهذا آخر أمره وهو معنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنْشَرَهُ﴾ [عبس : ٢٢] فما لمن هذا حاله والتكبر والتعظم؟ بل ماله وللفرح في لحظة واحدة فضلاً عن البطر والأشر؟ فقد ظهر له أول حاله ووسطه ولو ظهر آخره والعياذ بالله تعالى ربما اختار أن يكون كلباً أو خنزيراً ليصير مع البهائم تراباً ولا يكون إنساناً يسمع خطاباً أو يلقى عذاباً وإن كان عند الله مستحقاً للنار فالخنزير أشرف منه وأطيب وأرفع؛ إذ أوله التراب وآخره التراب وهو بمعزل عن

www.dawateislami.net

الحساب والعذاب، والكلب والخنزير لا يهرب منه الخلق ولو رأى أهل الدنيا العبد المذنب في النار لصعقوا من وحشة خلقته وقبح صورته، ولو وجدوا ريحه لماتوا من نتنه ولو وقعت قطرة من شرابه الذي يسقى منه في بحار الدنيا لصارت أنتن من الجيفة فمن هذا حاله في العاقبة إلا أن يعفو الله عنه وهو على شك من العفو كيف يفرح ويبطر؟ وكيف يتكبر ويتجبر؟ وكيف يرى نفسه شيئاً حتى يعتقد له فضلا؟ وأيّ عبد لم يذنب ذنباً استحق به العقوبة؟ إلا أن يعفو الله الكريم بفضله ويجبر الكسر بمنه والرجاء منه ذلك لكرمه وحسن الظن به ولا قوة إلا بالله. أرأيت من جنى على بعض الملوك فاستحق بجنايته ضرب ألف سوط فحبس إلى السجن وهو ينتظر أن يخرج إلى العرض وتقام عليه العقوبة على ملأ من الخلق وليس يدري أيعفى عنه أم لا؟ كيف يكون ذله في السجن؟ أفترى أنه يتكبر على من في السجن؟ وما من عبد مذنب إلا والدنيا سجنه وقد استحق العقوبة من الله تعالى ولا يدري كيف يكون آخر أمره فيكفيه ذلك حزناً وخوفاً وإشفاقاً ومهانة وذلاً فهذا هو العلاج العلمي القامع لأصل الكبر.

وأما العلاج العملي: فهو التواضع لله بالفعل ولسائر الخلق بالمواظبة على أخلاق المتواضعين كما وصفناه وحكيناه من أحوال الصالحين ومن أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إنه كان يأكل على الأرض ويقول: ((**أَنَا عَبْدٌ آكُلُ كَمَا يَأْكُلُ الْعَبْدُ**))[1] وقيل لسلمان: لم لا تلبس ثوباً جديداً؟ فقال: إنما أنا عبد فإذا أعتقت يوماً لبست جديداً. أشار به إلى العتق في الآخرة ولا يتم التواضع بعد المعرفة إلا بالعمل ولذلك أمر العرب الذين تكبروا على الله ورسوله بالإيمان وبالصلاة جميعاً وقيل: الصلاة عماد الدين وفي الصلاة أسرار لأجلها كانت عماداً ومن جملتها ما فيها من التواضع بالمثول قائماً وبالركوع والسجود وقد كانت العرب قديماً يأنفون من الإنحناء فكان يسقط من يد الواحد سوطه فلا ينحني لأخذه وينقطع شراك نعله فلا ينكس رأسه لإصلاحه حتى قال حكيم بن حزام: بايعت النبي صلى الله عليه وسلم على أن لا أخر إلا قائماً فبايعه النبي صلى الله عليه وسلم عليه ثم فقه وكمل إيمانه بعد ذلك فلما كان السجود عندهم هو منتهى الذلة والضعة أمروا به لتنكسر بذلك خيلاءهم ويزول كبرهم ويستقر التواضع في قلوبهم، وبه أمر سائر الخلق فإن الركوع والسجود والمثول قائماً هو العمل الذي يقتضيه التواضع فكذلك من عرف نفسه فلينظر كل ما يتقاضاه الكبر من الأفعال فليواظب على نقيضه حتى يصير التواضع له خلقاً فإن القلوب لا تتخلق بالأخلاق المحمودة إلا بالعلم والعمل جميعاً وذلك لخفاء العلاقة بين القلوب والجوارح وسر الارتباط الذي بين عالم الملك وعالم الملكوت والقلب من عالم الملكوت.

---

(١) ... الزهد لابن مبارك، باب فضل ذكر الله، الحديث: ٩٩٥، ص: ٥٣.

www.dawateislami.net

المقام الثاني: فيما يعرض من التكبر بالأسباب السبعة المذكورة، وقد ذكرنا في كتاب ذم الجاه أن الكمال الحقيقي هو العلم والعمل فأما ما عداه مما يفنى بالموت فكمال وهمي فمن هذا يعسر على العالم أن لا يتكبر، ولكنا نذكر طريق العلاج من العلم والعمل في جميع الأسباب السبعة.

الأول : النسب. فمن يعتريه الكبر من جهة النسب فليداو قلبه بمعرفة أمرين:

أحدهما : أن هذا جهل من حيث إنه تعزز بكمال غيره ولذلك قيل:

لئن فخرت بآباء ذوي شرف لقد صدقت ولكن بئس ما ولدوا

فالمتكبر بالنسب إن كان خسيساً في صفات ذاته فمن أين يجبر خسته بكمال غيره؟ بل لو كان الذي ينسب إليه حياً لكان له أن يقول الفضل لي ومن أنت؟ وإنما أنت دودة خلقت من بولي أفترى أن الدودة التي خلقت من بول إنسان أشرف من الدودة التي من بول فرس؟ هيهات بل هما متساويان والشرف للإنسان لا للدودة.

الثاني: أن يعرف نسبه الحقيقي فيعرف أباه وجده فإن أباه القريب نطفة قذرة وجده البعيد تراب ذليل وقد عرفه الله تعالى نسبه فقال: ﴿الَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ﴾ [السجدة: ٧،٨] فمن أصله التراب المهين الذي يداس بالأقدام ثم خمر طينه حتى صار حمأ مسنوناً كيف يتكبر وأخس الأشياء ما إليه انتسابه إذ يقال: يا أذل من التراب ويا أنتن من الحمأة ويا أقذر من المضغة.

فإن كان كونه من أبيه أقرب من كونه من التراب فنقول: افتخر بالقريب دون البعيد، فالنطفة والمضغة أقرب إليه من الأب فليحقر نفسه بذلك ثم إن كان ذلك يوجب رفعة لقربه فالأب الأعلى من التراب فمن أين رفعته؟ وإذا لم يكن له رفعة فمن أين جاءت الرفعة لولده؟ فإذن أصله من التراب وفصله من النطفة فلا أصل له ولا فصل وهذه غاية خسة النسب فالأصل يوطأ بالأقدام والفصل تغسل منه الأبدان، فهذا هو النسب الحقيقي للإنسان، ومن عرفه لم يتكبر بالنسب ويكون مثله بعد هذه المعرفة وانكشاف الغطاء له عن حقيقة أصله كرجل لم يزل عند نفسه من بني هاشم وقد أخبره بذلك والداه فلم يزل فيه نخوة الشرف[1] فبينما هو كذلك إذ أخبره عدول لا يشك في قولهم أنه ابن هندي حجام يتعاطى القاذورات وكشفوا له وجه التلبيس عليه فلم يبق له شك في صدقهم أفترى أن ذلك يبقي شيئاً من كبره؟ لا بل يصير عند نفسه أحقر الناس وأذلهم فهو من استشعار الخزي لخسته في شغل عن أن يتكبر على غيره فهذا حال البصير إذا تفكر في أصله وعلم أنه من النطفة والمضغة والتراب؛ إذ لو كان

---

(١) أي عظمته. (اتحاف)

www.dawateislami.net

أبوه ممن يتعاطى نقل التراب أو يتعاطى الدم بالحجامة أو غيرها لكان يعلم به خسة نفسه لمماسة أعضاء أبيه للتراب والدم فكيف إذا عرف أنه في نفسه من التراب والدم والأشياء القذرة التي يتنزه عنها هو في نفسه؟

السبب الثاني: التكبر بالجمال ودواءه أن ينظر إلى باطنه نظر العقلاء ولا ينظر إلى باطنه نظر البهائم، ومهما نظر إلى باطنه رأى من القبائح ما يكدر عليه تعززه بالجمال فإنه وكل به الأقذار في جميع أجزائه الرجيع[1] في أمعائه، والبول في مثانته، والمخاط في أنفه، والبزاق في فيه، والوسخ في أذنيه، والدم في عروقه، والصديد تحت بشرته، والصنان تحت إبطه، يغسل الغائط بيده كل يوم دفعة أو دفعتين، ويتردد كل يوم إلى الخلاء مرة أو مرتين ليخرج من باطنه ما لو رآه بعينه لاستقذره فضلاً عن أن يمسه أو يشمه، كل ذلك ليعرف قذارته وذله هذا في حال توسطه وفي أول أمره خلق من الأقذار الشنيعة الصور من النطفة ودم الحيض وأخرج من مجرى الأقذار؛ إذ خرج من الصلب ثم من الذكر مجرى البول ثم من الرحم مفيض دم الحيض ثم خرج من مجرى القذر، قال أنس رحمه الله: كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يخطبنا فيقذر إلينا أنفسنا ويقول: خرج أحدكم من مجرى البول مرتين. وكذلك قال طاوس لعمر بن عبد العزيز: ما هذه مشية من في بطنه خرء إذ رآه يتبختر. وكان ذلك قبل خلافته وهذا أوله ووسطه. ولو ترك نفسه في حياته يوماً لم يتعهدها بالتنظيف والغسل لثارت منه الأنتان والأقذار وصار أنتن وأقذر من الدواب المهملة التي لا تتعهد نفسها قط.

فإذا نظر أنه خلق من أقذار وأسكن في أقذار وسيموت فيصير جيفة أقذر من سائر الأقذار لم يفتخر بجماله الذي هو كخضراء الدمن[2] وكلون الأزهار في البوادي، فبينما هو كذلك إذ صار هشيمًا تذروه الرياح، كيف ولو كان جماله باقياً وعن هذه القبائح خالياً لكان يجب أن لا يتكبر به على القبيح؛ إذ لم يكن قبح القبيح إليه فينفيه، ولا كان جمال الجميل إليه حتى يحمد عليه كيف ولا بقاء له بل هو في كل حين يتصور أن يزول بمرض أو جدري أو قرحة أو سبب من الأسباب فكم من وجوه جميلة قد سمجت[3] بهذه الأسباب؟ فمعرفة هذه الأمور تنزع من القلب داء الكبر بالجمال لمن أكثر تأملها.

السبب الثالث: التكبر بالقوة والأيدي، ويمنعه من ذلك أن يعلم ما سلط عليه من العلل والأمراض، وأنه لو توجع عرق واحد في يده لصار أعجز من كل عاجز وأذل من كل ذليل وأنه لو سلبه الذباب شيئًا لم يستنقذه منه وأن بقة لو دخلت في أنفه أو نملة دخلت في أذنه لقتلته، وأن شوكة لو دخلت في رجله لأعجزته وأن حمى يوم تحلل من قوته ما لا ينجبر في مدة، فمن لا يطيق شوكة ولا

---

(١) أي العذرة. (اتحاف)

(٢) أي الشجرة الخضراء في منبت سوء فإن ما ينبت في الدمن وإن كان ناضرا لا يكون ثامرا وهو سريع الفساد. (اتحاف)

(٣) أي قبحت بعد أن كان جميلة. (اتحاف)

www.dawateislami.net

يقاوم بقة ولا يقدر على أن يدفع عن نفسه ذبابة فلا ينبغي أن يفتخر بقوته! ثم إن قوى الإنسان فلا يكون أقوى من حمار أو بقرة أو فيل أو جمل وأي افتخار في صفة يسبقك فيها البهائم؟

السبب الرابع والخامس: الغنى وكثرة المال، وفي معناه كثرة الأتباع والأنصار والتكبر بولاية السلاطين والتمكن من جهتهم وكل ذلك تكبر بمعنى خارج عن ذات الإنسان كالجمال والقوة والعلم وهذا أقبح أنواع الكبر، فإن المتكبر بماله كأنه متكبر بفرسه وداره ولو مات فرسه وانهدمت داره لعاد ذليلاً، والمتكبر بتمكين السلطان وولايته لا بصفة في نفسه بنى أمره على قلب هو أشد غلياناً من القدر فإن تغير عليه كان أذل الخلق وكل متكبر بأمر خارج عن ذاته فهو ظاهر الجهل كيف والمتكبر بالغنى لو تأمل لرأى في اليهود من يزيد عليه في الغنى والثروة والتجمل فأف لشرف يسبقك به اليهودي وأف لشرف يأخذه السارق في لحظة واحدة فيعود صاحبه ذليلاً مفلساً. فهذه أسباب ليست في ذاته وما هو في ذاته ليس إليه دوام وجوده وهو في الآخرة وبال ونكال فالتفاخر به غاية الجهل وكل ما ليس إليك فليس لك وشيء من هذه الأمور ليس إليك بل إلى واهبه إن أبقاه لك وإن استرجعه زال عنك، وما أنت إلا عبد مملوك لا تقدر على شيء ومن عرف ذلك لا بد وأن يزول كبره، ومثاله أن يفتخر الغافل بقوته وجماله وماله وحريته واستقلاله وسعة منازله وكثرة خيوله وغلمانه إذ شهد عليه شاهدان عدلان عند حاكم منصف بأنه رقيق لفلان وأن أبويه كانا مملوكين له فعلم ذلك وحكم به الحاكم فجاء مالكه فأخذه وأخذ جميع ما في يده وهو مع ذلك يخشى أن يعاقبه وينكل به لتفريطه في أمواله وتقصيره في طلب مالكه ليعرف أن له مالكاً ثم نظر العبد فرأى نفسه محبوساً في منزل قد أحدقت به الحيات والعقارب والهوام وهو في كل حال على وجل من كل واحدة منها وقد بقي لا يملك نفسه ولا ماله ولا يعرف طريقاً في الخلاص ألبتة أفترى من هذا حاله هل يفخر بقدرته وثروته وقوته وكماله؟ أم تذل نفسه ويخضع؟ وهذا حال كل عاقل بصير فإنه يرى نفسه كذلك فلا يملك رقبته وبدنه وأعضاءه وماله وهو مع ذلك بين آفات وشهوات وأمراض وأسقام هي كالعقارب والحيَّات يخاف منها الهلاك فمن هذا حاله لا يتكبر بقوته وقدرته إذ يعلم أنه لا قدرة له ولا قوة.

فهذا طريق علاج التكبر بالأسباب الخارجة وهو أهون من علاج التكبر بالعلم والعمل فإنهما كمالان في النفس جديران بأن يفرح بهما ولكن التكبر بهما أيضاً نوع من الجهل خفي كما سنذكره.

السبب السادس: الكبر بالعلم وهو أعظم الآفات وأغلب الأدواء وأبعدها عن قبول العلاج إلا بشدة شديدة وجهد جهيد وذلك لأن قدر العلم عظيم عند الله، عظيم عند الناس وهو أعظم من قدر المال والجمال وغيرهما، بل لا قدر لهما أصلاً إلا إذا كان معهما علم وعمل.

www.dawateislami.net

ولذلك قال كعب الأحبار: إن للعلم طغياناً كطغيان المال. وكذلك قال عمر رضي الله تعالى عنه: العالِم إذا زل زل بزلته عالَم. فيعجز العالم عن أن لا يستعظم نفسه بالإضافة إلى الجاهل لكثرة ما نطق الشرع بفضائل العلم ولن يقدر العالم على دفع الكبر إلا بمعرفة أمرين.

أحدهما: أن يعلم أن حجة الله على أهل العلم آكد وأنه يحتمل من الجاهل ما لا يحتمل عشره من العالم، فإن من عصى الله تعالى عن معرفة وعلم فجنايته أفحش إذ لم يقض حق نعمة الله عليه في العلم ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: ((**يُؤْتَى بِالْعَالِمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ، فَيَدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِالرَّحَى فَيُطِيْفُ بِهِ أَهْلُ النَّارِ فَيَقُوْلُوْنَ مَالَكَ ؟ فَيَقُوْلُ كُنْتُ آمِرٌ بِالْخَيْرِ وَلاَ آتِيْهِ وَأَنْهَى عَنِ الشَّرِّ وَآتِيْهِ**))[1] وقد مثل الله سبحانه وتعالى من يعلم ولا يعمل بالحمار والكلب فقال عز وجل: ﴿**مَثَلُ الَّذِيْنَ حُمِّلُوا التَّوْرٰىةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوْهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ اَسْفَارًا**﴾ [الجمعة:٥] أراد به علماء اليهود وقال في بَلعم بن باعوراء: ﴿**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَاَ الَّذِيْٓ اٰتَيْنٰهُ اٰيٰتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا**﴾ [الاعراف:١٧٥] حتى بلغ: ﴿**فَمَثَلُهٗ كَمَثَلِ الْكَلْبِ اِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ اَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ**﴾ [الاعراف:١٧٦] قال ابن عباس رضي الله عنهما: أوتي بَلعم كتاباً فأخلد إلى شهوات الأرض أي سكن حبه إليها فمثله بالكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث أي سواء آتيته الحكمة أو لم أوته لا يدع شهوته.

ويكفي العالم هذا الخطر فأيّ عالم لم يتبع شهوته؟ وأيّ عالم لم يأمر بالخير الذي لا يأتيه؟ فمهما خطر للعالم عظم قدره بالإضافة إلى الجاهل فليتفكر في الخطر العظيم الذي هو بصدده فإن خطره أعظم من خطر غيره كما أن قدره أعظم من قدر غيره، فهذا بذاك وهو كالملك المخاطر بروحه في ملكه لكثرة أعدائه فإنه إذا أخذ وقهر اشتهى أن يكون قد كان فقيراً فكم من عالم يشتهي في الآخرة سلامة الجهال؟ والعياذ بالله منه.

فهذا الخطر يمنع من التكبر، فإنه إن كان من أهل النار فالخنزير أفضل منه فكيف يتكبر من هذا حاله؟ فلا ينبغي أن يكون العالم عند نفسه أكبر من الصحابة رضوان الله عليهم وقد كان بعضهم يقول: يا ليتني لم تلدني أمي. ويأخذ الآخر تبنة من الأرض ويقول: يا ليتني كنت هذه التبنة. ويقول الآخر: ليتني كنت طيراً أوكل. ويقول الآخر: ليتني لم أك شيئاً مذكوراً. كل ذلك خوفاً من خطر العاقبة فكانوا يرون أنفسهم أسوأ حالاً من الطير ومن التراب ومهما أطال فكره في الخطر الذي هو بصدده زال بالكلية كبره ورأى نفسه كأنه شر الخلق. ومثاله: مثال عبد أمره سيده بأمور فشرع فيها فترك بعضها وأدخل النقصان في بعضها وشك في بعضها أنه هل أداها على ما يرتضيه سيده أم لا؟ فأخبره مخبر أن سيده

---

(١) ...صحيح مسلم، كتاب الزهد والرقاق، باب عقوبة من يأمر بالمعروف...الخ، الحديث: ٢٩٨٩، ص: ١٥٩٥.

www.dawateislami.net

أرسل إليه رسولاً يخرجه من كل ما هو فيه عرياناً ذليلاً ويلقيه على بابه في الحر والشمس زماناً طويلاً حتى إذا ضاق عليه الأمر. وبلغ به المجهود[1] أمر برفع حسابه وفتش عن جميع أعماله قليلها وكثيرها ثم أمر به إلى سجن ضيق وعذاب دائم لا يروح عنه ساعة وقد علم أن سيده قد فعل بطوائف من عبيده مثل ذلك وعفا عن بعضهم؟ وهو لا يدري من أيّ الفريقين يكون؟ فإذا تفكر في ذلك انكسرت نفسه وذل وبطل عزه وكبره وظهر حزنه وخوفه ولم يتكبر على أحد من الخلق بل تواضع رجاء أن يكون هو من شفعائه عند نزول العذاب. فكذلك العالم إذا تفكر فيما ضيعه من أوامر ربه بجنايات على جوارحه وبذنوب في باطنه من الرياء والحقد والحسد والعجب والنفاق وغيره وعلم بما هو بصدده من الخطر العظيم فارقه كبره لا محالة.

الأمر الثاني: أن العالم يعرف أن الكبر لا يليق إلا بالله عز وجل وحده وأنه إذا تكبر صار ممقوتاً عند الله بغيضًا وقد أحب الله منه أن يتواضع وقال له: إن لك عندي قدراً ما لم تر لنفسك قدراً فإن رأيت لنفسك قدراً فلا قدر لك عندي، فلا بد وأن يكلف نفسه ما يحبه مولاه منه. وهذا يزيل التكبر عن قلبه وإن كان يستيقن أنه لا ذنب له مثلاً أو تصور ذلك وبهذا زال التكبر عن الأنبياء عليهم السلام إذ علموا أن من نازع الله تعالى في رداء الكبرياء قصمه وقد أمرهم الله بأن يصغروا أنفسهم حتى يعظم عند الله محلهم فهذا أيضاً مما يبعثه على التواضع لا محالة.

فإن قلت: فكيف يتواضع للفاسق المتظاهر بالفسق وللمبتدع وكيف يرى نفسه دونهم وهو عالم عابد، وكيف يجهل فضل العلم والعبادة عند الله تعالى وكيف يغنيه أن يخطر بباله خطر العلم وهو يعلم أن خطر الفاسق والمبتدع أكثر؟

فاعلم أن ذلك إنما يمكن بالتفكر في خطر الخاتمة بل لو نظر إلى كافر لم يمكنه أن يتكبر عليه إذ يتصور أن يسلم الكافر فيختم له بالإيمان ويضل هذا العالم فيختم له بالكفر والكبير من هو كبير عند الله في الآخرة والكلب والخنزير أعلى رتبة ممن هو عند الله من أهل النار وهو لا يدري ذلك فكم من مسلم نظر إلى عمر رضي الله عنه قبل إسلامه فاستحقره وازدراه لكفره وقد رزقه الله الإسلام وفاق جميع المسلمين إلا أبا بكر وحده فالعواقب مطوية عن العباد ولا ينظر العاقل إلا إلى العاقبة وجميع الفضائل في الدنيا تراد للعاقبة.

فإذاً من حق العبد أن لا يتكبر على أحد بل إن نظر إلى جاهل قال هذا عصى الله بجهل وأنا عصيته بعلم فهو أعذر مني، وإن نظر إلى عالم قال: هذا قد علم ما لم أعلم فكيف أكون مثله؟ وإن نظر إلى كبير هو أكبر منه سناً قال: هذا قد أطاع الله قبلي فكيف أكون مثله؟ وإن نظر إلى صغير قال: إني عصيت الله قبله فكيف أكون مثله؟ وإن نظر إلى مبتدع أو كافر قال: ما يدريني لعله يختم له بالإسلام

---

(١) أي نهاية طاقته. (اتحاف)

www.dawateislami.net

ويختم لي بما هو عليه الآن، فليس دوام الهداية إلي كما لم يكن ابتداءها إليّ، فبملاحظة الخاتمة يقدر على أن ينفي الكبر عن نفسه وكل ذلك بأن يعلم أن الكمال في سعادة الآخرة والقرب من الله لا فيما يظهر في الدنيا مما لا بقاء له. ولعمري هذا الخطر مشترك بين المتكبر والمتكبر عليه ولكن حق على كل واحد أن يكون مصروف الهمة إلى نفسه مشغول القلب بخوفه لعاقبته، لا أن يشتغل بخوف غيره فإن الشفيق بسوء الظن مولع وشفقة كل إنسان على نفسه. فإذاً حبس جماعة في جناية ووعدوا بأن تضرب رقابهم لم يتفرغوا لتكبر بعضهم على بعض وإن عمهم الخطر إذ شغل كل واحد همّ نفسه عن الالتفات إلى همّ غيره حتى كأن كل واحد هو وحده في مصيبته وخطره.

فإن قلت: فكيف أبغض المبتدع في الله وأبغض الفاسق وقد أمرت ببغضهما ثم مع ذلك أتواضع لهما والجمع بينهما متناقض؟

فاعلم أن هذا أمر مشتبه يلتبس على أكثر الخلق إذ يمتزج غضبك لله في إنكار البدعة والفسق بكبر النفس والإدلال[1] بالعلم والورع فكم من عابد جاهل وعالم مغرور إذا رأى فاسقاً جلس بجنبه أزعجه[2] من عنده وتنزه عنه[3] بكبر باطن في نفسه وهو ظان أنه قد غضب لله كما وقع لعابد بني إسرائيل مع خليعهم وذلك لأن الكبر على المطيع ظاهر كونه شراً والحذر منه ممكن والكبر على الفاسق والمبتدع يشبه الغضب لله وهو خير فإن الغضبان أيضاً يتكبر على من غضب عليه والمتكبر يغضب، وأحدهما يثمر الآخر ويوجبه وهما ممتزجان ملتبسان لا يميز بينهما إلا الموفقون. والذي يخلصك من هذا أن يكون الحاضر على قلبك عند مشاهدة المبتدع أو الفاسق أو عند أمرهما بالمعروف ونهيهما عن المنكر ثلاثة أمور:

أحدها: التفاتك إلى ما سبق من ذنوبك وخطاياك ليصغر عند ذلك قدرك في عينك.

والثاني: أن تكون ملاحظتك لما أنت متميز به من العلم واعتقاد الحق والعمل الصالح من حيث إنها نعمة من الله تعالى عليك فله المنة فيه لا لك فترى ذلك منه حتى لا تعجب بنفسك وإذا لم تعجب لم تتكبر.

والثالث: ملاحظة إبهام عاقبتك وعاقبته أنه ربما يختم لك بالسوء ويختم له بالحسنى حتى يشغلك الخوف عن التكبر عليه.

فإن قلت: فكيف أغضب مع هذه الأحوال؟ فأقول: تغضب لمولاك وسيدك إذ أمرك أن تغضب له لا لنفسك وأنت في غضبك لا ترى نفسك ناجياً وصاحبك هالكاً بل يكون خوفك على نفسك بما

---

(١) أي الإعجاب. (اتحاف)

(٢) أي أقامه. (اتحاف)

(٣) أي تباعد. (اتحاف)

www.dawateislami.net

علم الله من خفايا ذنوبك أكثر من خوفك عليه مع الجهل بالخاتمة، وأعرفك ذلك بمثال لتعلم أنه ليس من ضرورة الغضب لله أن تتكبر على المغضوب عليه وترى قدرك فوق قدره فأقول:

إذا كان للملك غلام وولد هو قرة عينه وقد وكّل الغلام بالولد ليراقبه وأمره أن يضربه مهما أساء أدبه واشتغل بما لا يليق به ويغضب عليه فإن كان الغلام محباً مطيعاً لمولاه فلا يجد بداً أن يغضب مهما رأى ولده قد أساء الأدب وإنما يغضب عليه لمولاه ولأنه أمره به ولأنه يريد التقرب بامتثال أمره إليه ولأنه جرى من ولده ما يكره مولاه فيضرب ولده ويغضب عليه من غير تكبر عليه بل هو متواضع له يرى قدره عند مولاه فوق قدر نفسه لأن الولد أعز لا محالة من الغلام فإذن ليس من ضرورة الغضب التكبر وعدم التواضع، فكذلك يمكنك أن تنظر إلى المبتدع والفاسق وتظن أنه ربما كان قدرهما في الآخرة عند الله أعظم لما سبق لهما من الحسنى في الأزل ولما سبق لك من سوء القضاء في الأزل وأنت غافل عنه ومع ذلك فتغضب بحكم الأمر محبة لمولاك إذ جرى ما يكرهه مع التواضع لمن يجوز أن يكون عنده أقرب منك في الآخرة فهكذا يكون بعض العلماء الأكياس فينضم إليه الخوف والتواضع. وأما المغرور فإنه يتكبر ويرجو لنفسه أكثر مما يرجوه لغيره مع جهله بالعاقبة وذلك غاية الغرور. فهذا سبيل التواضع لمن عصى الله أو اعتقد البدعة مع الغضب عليه ومجانبته بحكم الأمر.

السبب السابع: التكبر بالورع والعبادة وذلك أيضاً فتنة عظيمة على العباد وسبيله أن يلزم قلبه التواضع لسائر العباد، وهو أن يعلم أن من يتقدم عليه بالعلم لا ينبغي أن يتكبر عليه كيفما كان لما عرفه من فضيلة العلم وقد قال تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِيْنَ يَعْلَمُوْنَ وَ الَّذِيْنَ لَا يَعْلَمُوْنَ﴾ [الزمر:٩] وقال صلى الله عليه وسلم: ((**فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَى رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِيْ**))[1] إلى غير ذلك مما ورد في فضل العلم، فإن قال العابد: ذلك لعالم عامل بعلمه وهذا عالم فاجر فيقال له: أما عرفت أن الحسنات يذهبن السيئات وكما أن العلم يمكن أن يكون حجة على العالم فكذلك يمكن أن يكون وسيلة له وكفارة لذنوبه وكل واحد منهما ممكن وقد وردت الأخبار بما يشهد لذلك وإذا كان هذا الأمر غائباً عنه لم يجز له أن يحتقر عالماً بل يجب عليه التواضع له.

فإن قلت: فإن صح هذا فينبغي أن يكون للعالم أن يرى نفسه فوق العابد لقوله صلى الله عليه وسلم: ((**فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَى رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِيْ**))[2].

---

(١) ... سنن الترمذي، كتاب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، الحديث: ٢٦٩٤، ٤/٣١٣.

(٢) ... سنن الترمذي، كتاب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، الحديث: ٢٦٩٤، ٤/٣١٣.

www.dawateislami.net

فاعلم أن ذلك كان ممكناً لو علم العالم عاقبة أمره، وخاتمة الأمر مشكوك فيها فيحتمل أن يموت بحيث يكون حاله عند الله أشد من حال الجاهل الفاسق لذنب واحد كان يحسبه هيناً وهو عند الله عظيم وقد مقته به، وإذا كان هذا ممكناً كان على نفسه خائفاً فإذا كان كل واحد من العابد والعالم خائفاً على نفسه وقد كلف أمر نفسه لا أمر غيره، فينبغي أن يكون الغالب عليه في حق نفسه الخوف وفي حق غيره الرجاء وذلك يمنعه من التكبر بكل حال. فهذا حال العابد مع العالم.

فأما مع غير العالم فهم منقسمون في حقه إلى مستورين وإلى مكشوفين فينبغي أن لا يتكبر على المستور فلعله أقل منه ذنوباً وأكثر منه عبادة وأشد منه حباً لله، وأما المكشوف حاله إن لم يظهر لك من الذنوب إلا ما تزيد عليه ذنوبك في طول عمرك فلا ينبغي أن تتكبر عليه ولا يمكن أن تقول هو أكثر مني ذنباً لأن عدد ذنوبك في طول عمرك وذنوب غيرك في طول العمر لا تقدر على إحصائها حتى تعلم الكثرة، نعم يمكن أن تعلم أن ذنوبه أشد كما لو رأيت منه القتل والشرب والرياء ومع ذلك، فلا ينبغي أن تتكبر عليه إذ ذنوب القلوب من الكبر والحسد والرياء والغل واعتقاد الباطل والوسوسة في صفات الله تعالى وتخيل الخطأ في ذلك كل ذلك شديد عند الله، فربما جرى عليك في باطنك من خفايا الذنوب ما صرت به عند الله ممقوتا، وقد جرى للفاسق الظاهر الفسق من طاعات القلوب من حب الله وإخلاص وخوف وتعظيم ما أنت خال عنه، وقد كفر الله بذلك عنه سيئاته، فينكشف الغطاء يوم القيامة فتراه فوق نفسك بدرجات، فهذا ممكن والإمكان البعيد فيما عليك ينبغي أن يكون قريباً عندك إن كنت مشفقاً على نفسك فلا تتفكر فيما هو ممكن لغيرك بل فيما هو مخوف في حقك فإنه لا تزر وازرة وزر أخرى، وعذاب غيرك لا يخفف شيئاً من عذابك، فإذا تفكرت في هذا الخطر كان عندك شغل شاغل عن التكبر وعن أن ترى نفسك فوق غيرك.

وقد قال وهب بن منبه: ما تم عقل عبد حتى يكون فيه عشر خصال، فعد تسعة حتى بلغ العاشر فقال: العاشرة وما العاشرة! بها ساد مجده وبها علا ذكره أن يرى الناس كلهم خيراً منه وإنما الناس عنده فرقتان: فرقة هي أفضل منه وأرفع وفرقة هي شر منه وأدنى فهو يتواضع للفرقتين جميعاً بقلبه إن رأى من هو خير منه سره ذلك وتمنى أن يلحق به، وإن رأى من هو شر منه قال: لعل هذا ينجو وأهلك أنا فلا تراه إلا خائفاً من العاقبة ويقول: لعل بر هذا باطن فذلك خير له، ولا أدري لعل فيه خلقاً كريماً بينه وبين الله فيرحمه الله ويتوب عليه ويختم له بأحسن الأعمال ويرى ظاهر فذلك شر لي. فلا يأمن فيما أظهره من الطاعة أن يكون دخلها الآفات فأحبطتها ثم قال: فحينئذ كمل عقله وساد أهل زمانه. فهذا كلامه.

www.dawateislami.net

وبالجملة فمن جوز أن يكون عند الله شقياً وقد سبق القضاء في الأزل بشقوته فماله سبيل إلى أن يتكبر بحال من الأحوال، نعم، إذا غلب عليه الخوف رأى كل أحد خيراً من نفسه وذلك هو الفضيلة كما روي أن عابداً آوى إلى جبل فقيل له في النوم: ائت فلاناً الإسكاف فسله أن يدعو لك فأتاه فسأله عن عمله فأخبره أنه يصوم النهار ويكتسب فيتصدق ببعضه ويطعم عياله بعضه فرجع وهو يقول: إن هذا لحسن ولكن ليس هذا كالتفرغ لطاعة الله فأتى في النوم ثانياً فقيل له: ائت فلاناً الإسكاف فقل له: ما هذا الصفار الذي بوجهك؟ فأتاه فسأله فقال له: ما رأيت أحداً من الناس إلا وقع لي أنه سينجو وأهلك أنا، فقال العابد: بهذه.

والذي يدل على فضيلة هذه الخصلة قوله تعالى: ﴿يُؤْتُونَ مَآ اٰتَوا۟ وَّ قُلُوْبُهُمْ وَجِلَةٌ اَنَّهُمْ اِلٰى رَبِّهِمْ رٰجِعُوْنَ﴾ [المؤمنون:٦٠] أي أنهم يؤتون الطاعات وهم على وجل عظيم من قبولها وقال تعالى: ﴿اِنَّ الَّذِيْنَ هُمْ مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُوْنَ﴾ [المؤمنون:٥٧] وقال تعالى: ﴿اِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيْٓ اَهْلِنَا مُشْفِقِيْنَ﴾ [الطور:٢٦] وقد وصف الله تعالى الملائكة عليهم السلام مع تقدسهم عن الذنوب ومواظبتهم على العبادات على الدءوب[1] بالإشفاق فقال تعالى مخبراً عنهم: ﴿يُسَبِّحُوْنَ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُوْنَ﴾ [الأنبياء:٢٠] ﴿وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهٖ مُشْفِقُوْنَ﴾ [الأنبياء: ٢٨] فمتى زال الإشفاق والحذر مما سبق به القضاء في الأزل وينكشف عند خاتمة الأجل غلب الأمن من مكر الله وذلك يوجب الكبر وهو سبب الهلاك. فالكبر دليل الأمن والأمن مهلك، والتواضع دليل الخوف وهو مسعد[2] فإذن ما يفسده العابد بإضمار الكبر واحتقار الخلق والنظر إليهم بعين الاستصغار أكثر مما يصلحه بظاهر الأعمال.

فهذه معارف بها يزال داء الكبر عن القلب لا غير، إلا أن النفس بعد هذه المعرفة قد تضمر التواضع وتدعي البراءة من الكبر وهي كاذبة، فإذا وقعت الواقعة عادت إلى طبعها ونسيت وعدها، فعن هذا لا ينبغي أن يكتفي في المداواة بمجرد المعرفة بل ينبغي أن تكمل بالعمل وتجرب بأفعال المتواضعين في مواقع هيجان الكبر في النفس.

وبيانه أن يمتحن النفس بخمس امتحانات هي أدلة على استخراج ما في الباطن وإن كانت الامتحانات كثيرة.

الامتحان الأول: أن يناظر في مسألة مع واحد من أقرانه فإن ظهر شيء من الحق على لسان صاحبه فثقل عليه قبوله والانقياد له والاعتراف به والشكر له على تنبيهه وتعريفه وإخراجه. فذلك يدل على أن فيه كبراً دفيناً فليتق الله فيه ويشتغل بعلاجه. أما من حيث العلم فبأن يذكر نفسه خسة نفسه

---

(١) أي على الاستمرار. (اتحاف)

(٢) أي يورث السعادة في الآخرة. (اتحاف)

www.dawateislami.net

وخطر عاقبته وأن الكبر لا يليق إلا بالله تعالى. وأما العمل فبأن يكلف نفسه ما ثقل عليه من الاعتراف بالحق وأن يطلق اللسان بالحمد والثناء ويقر على نفسه بالعجز ويشكره على الاستفادة ويقول: ما أحسن ما فطنت له وقد كنت غافلاً عنه فجزاك الله خيراً كما نبهتني له! فالحكمة ضالة المؤمن فإذا وجدها ينبغي أن يشكر من دَلَّه عليها، فإذا واظب على ذلك مرات متوالية صار ذلك له طبعاً وسقط ثقل الحق عن قلبه وطاب له قبوله ومهما ثقل عليه الثناء على أقرانه بما فيهم ففيه كبر، فإن كان ذلك لا يثقل عليه في الخلوة ويثقل عليه في الملأ فليس فيه كبر وإنما فيه رياء، فليعالج الرياء بما ذكرناه من قطع الطمع عن الناس ويذكر القلب بأن منفعته في كماله في ذاته وعند الله لا عند الخلق، إلى غير ذلك من أدوية الرياء. وإن ثقل عليه في الخلوة والملأ جميعا ففيه الكبر والرياء جميعاً ولا ينفعه الخلاص من أحدهما ما لم يتخلص من الثاني، فليعالج كلا الداءين فإنهما جميعاً مهلكان.

الامتحان الثاني: أن يجتمع مع الأقران والأمثال في المحافل ويقدمهم على نفسه ويمشي خلفهم ويجلس في الصدور تحتهم فإن ثقل عليه ذلك فهو متكبر فليواظب عليه تكلّفاً حتى يسقط عنه ثقله فبذلك يزايله الكبر وههنا للشيطان مكيدة وهو أن يجلس في صف النعال أو يجعل بينه وبين الأقران بعض الأرذال فيظن أن ذلك تواضع وهو عين الكبر، فإن ذلك يخف على نفوس المتكبرين إذ يوهمون أنهم تركوا مكانهم بالاستحقاق والتفضل فيكون قد تكبر وتكبر بإظهار التواضع أيضاً بل ينبغي أن يقدم أقرانه ويجلس بينهم بجنبهم ولا ينحط عنهم إلى صف النعال، فذلك هو الذي يخرج خبث الكبر من الباطن.

الامتحان الثالث: أن يجيب دعوة الفقير ويسر إلى السوق في حاجة الرفقاء والأقارب فإن ثقل ذلك عليه فهو كبر فإن هذه الأفعال من مكارم الأخلاق والثواب عليها جزيل، فنفور النفس عنها ليس إلا لخبث في الباطن فليشتغل بإزالته بالمواظبة عليه مع تذكر جميع ما ذكرناه من المعارف التي تزيل داء الكبر.

الامتحان الرابع: أن يحمل حاجة نفسه وحاجة أهله ورفقائه من السوق إلى البيت، فإن أبت نفسه ذلك فهو كبر أو رياء فإن كان يثقل ذلك عليه مع خلو الطريق فهو كبر، وإن كان لا يثقل عليه إلا مع مشاهدة الناس فهو رياء، وكل ذلك من أمراض القلب وعلله المهلكة له إن لم تتدارك وقد أهمل الناس طب القلوب واشتغلوا بطب الأجساد مع أن الأجساد قد كتب عليها الموت لا محالة والقلوب لا تدرك السعادة إلا بسلامتها إذ قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء : ٨٩] ويروى عن عبد الله بن سلام أنه حمل حزمة حطب فقيل له: يا أبا يوسف قد كان في غلمانك وبنيك ما يكفيك! قال: أجل

www.dawateislami.net

ولكن أردت أن أجرب نفسي هل تنكر ذلك؟ فلم يقنع منها بما أعطته من العزم على ترك الأنفة حتى جربها أهي صادقة أم كاذبة؟ وفي الخبر: ((**مَنْ حَمَلَ الْفَاكِهَةَ أَوِ الشَّيْءَ فَقَدْ بَرِئَ مِنَ الْكِبْرِ**))(١).

الامتحان الخامس: أن يلبس ثياباً بذلة فإن نفور النفس عن ذلك في الملأ رياء وفي الخلوة كبر وكان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه له مسح يلبسه بالليل وقد قال صلى الله عليه وسلم: ((**مَنِ اعْتَقَلَ الْبَعِيْرَ وَلَبِسَ الصُّوْفَ فَقَدْ بَرِئَ مِنَ الْكِبْرِ**))(٢) وقال صلى الله عليه وسلم: ((**إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ آكِلٌ بِالأَرْضِ وَأَلْبَسُ الصُّوْفَ وَأَعْقِلُ الْبَعِيْرَ وَأَلْعَقُ أَصَابِعِيْ وَأُجِيْبُ دَعْوَةَ الْمَمْلُوْكِ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِيْ فَلَيْسَ مِنِّيْ**))(٣) وروي أن أبا موسى الأشعري قيل له: إن أقواماً يتخلفون عن الجمعة بسبب ثيابهم فلبس عباءة فصلى فيها بالناس.

وهذه مواضع يجتمع فيها الرياء والكبر فما يختص بالملأ فهو الرياء وما يكون في الخلوة فهو الكبر فاعرف فإن من لا يعرف الشر لا يتقيه ومن لا يدرك المرض لا يداويه.

بيان غاية الرياضة في خلق التواضع:

اعلم أن هذا الخلق كسائر الأخلاق له طرفان وواسطة: فطرفه الذي يميل إلى الزيادة يسمى تكبراً، وطرفه الذي يميل إلى النقصان يسمى تخاسساً ومذلة، والوسط يسمى تواضعاً والمحمود أن يتواضع في غير مذلة ومن غير تخاسس، فإن كلا طرفي الأمور ذميم وأحب الأمور إلى الله تعالى أوساطها فمن يتقدم على أمثاله فهو متكبر ومن يتأخر عنهم فهو متواضع أي وضع شيئاً من قدره الذي يستحقه. والعالم إذا دخل عليه إسكاف فتنحى له عن مجلسه وأجلسه فيه ثم تقدم وسوى له نعله وعدا إلى باب الدار خلفه فقد تخاسس وتذلل وهذا أيضاً غير محمود بل المحمود عند الله العدل وهو أن يعطي كل ذي حق حقه فينبغي أن يتواضع بمثل هذا لأقرانه ومن يقرب من درجته فأما تواضعه للسوقي فبالقيام والبشر في الكلام والرفق في السؤال وإجابة دعوته والسعي في حاجته وأمثال ذلك وأن لا يرى نفسه خيراً منه بل يكون على نفسه أخوف منه على غيره فلا يحتقره ولا يستصغره وهو لا يعرف خاتمة أمره.

فإذن سبيله في اكتساب التواضع أن يتواضع للأقران ولمن دونهم حتى يخف عليه التواضع المحمود في محاسن العادات ليزول به الكبر عنه فإن خف عليه ذلك فقد حصل له خلق التواضع وإن كان يثقل عليه وهو يفعل ذلك فهو متكلف لا متواضع بل الخلق ما يصدر عنه الفعل بسهولة من غير ثقل ومن غير روية فإن خف ذلك وصار بحيث يثقل عليه رعاية قدره حتى أحب التملق والتخاسس فقد

---

(١) ... شعب الايمان، باب في حسن الخلق، الحديث: ٨٢٠١، ٦/٢٩٢ بتغير.

(٢) ... شعب الايمان، باب في الملابس... الخ، الحديث: ٦١٦١، ٥/١٥٣.

(٣) ... الزهد لابن المبارك، باب فضل ذكر الله، الحديث: ٩٩٥، ص: ٣٥٣.

www.dawateislami.net

خرج إلى طرف النقصان فليرفع نفسه إذ ليس للمؤمن أن يذل نفسه إلى أن يعود إلى الوسط الذي هو الصراط المستقيم وذلك غامض في هذا الخلق وفي سائر الأخلاق. والميل عن الوسط إلى طرف النقصان وهو التملق أهون من الميل إلى طرف الزيادة بالتكبر كما أن الميل إلى طرف التبذير في المال أحمد عند الناس من الميل إلى طرف البخل، فنهاية التبذير ونهاية البخل مذمومان وأحدهما أقبح من الآخر. والمحمود المطلق هو العدل ووضع الأمور مواضعها كما يجب وعلى ما يجب كما يعرف ذلك بالشرع والعادة ولنقتصر على هذا القدر من بيان أخلاق الكبر والتواضع.

الشطر الثاني من الكتاب في العجب:

وفيه بيان ذم العجب وآفاته وبيان حقيقة العجب والإدلال وحدهما، وبيان علاج العجب على الجملة، وبيان أقسام ما به العجب وتفصيل علاجه.

بيان ذم العجب وآفاته:

اعلم أن العجب مذموم في كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى: ﴿وَّيَوْمَ حُنَيْنٍ اِذْ اَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْـًٔا﴾ [التوبة:٢٥] ذكر ذلك في معرض الإنكار وقال عز وجل: ﴿وَ ظَنُّوْۤا اَنَّهُمْ مَّانِعَتُهُمْ حُصُوْنُهُمْ مِّنَ اللّٰهِ فَاَتٰىهُمُ اللّٰهُ مِنْ حَیْثُ لَمْ یَحْتَسِبُوْا﴾ [الحشر:٢] فرد على الكفار في إعجابهم بحصونهم وشوكتهم وقال تعالى: ﴿وَ هُمْ یَحْسَبُوْنَ اَنَّهُمْ یُحْسِنُوْنَ صُنْعًا﴾ [الكهف:١٠٤] وهذا أيضاً يرجع إلى العجب بالعمل وقد يعجب الإنسان بالعمل هو مخطئ فيه كما يعجب بعمل هو مصيب فيه.

وقال صلى الله عليه وسلم: ((**ثَلاثٌ مُهْلِكَاتٌ: شُحٌّ مُطَاعٌ، وَهَوًى مُتَّبَعٌ وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ**))[1] وقال لأبي ثعلبة حيث ذكر آخر هذه الأمة فقال: ((**إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعاً وَهَوًى مُتَّبَعاً وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِيْ رَأْيٍ بِرَأْيِهِ فَعَلَيْكَ بِنَفْسِكَ**))[2].

وقال ابن مسعود: الهلاك في اثنتين القنوط والعجب وإنما جمع بينهما لأن السعادة لا تنال إلا بالسعي والطلب والجد والتشمر، والقانط لا يسعى ولا يطلب، والمعجب يعتقد أنه قد سعد وقد ظفر بمراده فلا يسعى فالموجود لا يطلب والمحال لا يطلب والسعادة موجودة في اعتقاد المعجب حاصلة له ومستحيلة في اعتقاد القانط فمن ههنا جمع بينهما وقد قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوْۤا اَنْفُسَكُمْ﴾ [النجم:٣٢] قال ابن جريج معناه إذا عملت خيراً فلا تقل عملت. وقال زيد بن أسلم: لا تبروها أي لا تعتقدوا أنها بارة وهو معنى العجب.

---

(١) ... شعب الايمان، باب في الخوف من الله، الحديث: ٧٤٥، ١/٤٧١.

(٢) ... سنن ابی داود، اول كتاب الملاحم، باب الامر والنہی، الحديث: ٤٣٤١، ٤/١٦٤.

www.dawateislami.net

ووقى طلحة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد بنفسه فأكب عليه حتى أصيبت كفه، فكأنه أعجبه فعله العظيم إذ فداه بروحه حتى جرح فتفرس ذلك عمر فيه فقال: مازال يعرف في طلحة بأو منذ أصيبت أصبعه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم. والبأو هو العجب في اللغة إلا أنه لم ينقل فيه أنه أظهره واحتقر مسلماً، ولما كان وقت الشورى قال له ابن عباس: أين أنت من طلحة؟ قال: ذلك رجل فيه نخوة. فإذا كان لا يتخلص من العجب أمثالهم فكيف يتخلص الضعفاء إن لم يأخذوا حذرهم

وقال مطرف: لأن أبيت نائماً وأصبح نادماً أحب إليّ من أبيت قائماً وأصبح معجباً.

وقال صلى الله عليه وسلم: ((**لَوْ لَمْ تُذْنِبُوْا لَخَشَيْتُ عَلَيْكُمْ مَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ العُجْبُ العُجْبُ**))[1] فجعل العجب أكبر الذنوب وكان بشر بن منصور من الذين إذا رأوا ذكر الله تعالى والدار الآخرة لمواظبته على العبادة فأطال الصلاة يوماً ورجل خلفه ينظر ففطن له بشر، فلما انصرف عن الصلاة قال له: لا يعجبنك ما رأيت مني فإن إبليس لعنه الله قد عبد الله تعالى مع الملائكة مدة طويلة ثم صار إلى ما صار إليه.

وقيل لعائشة رضي الله عنها: متى يكون الرجل مسيئًا؟ قالت: إذا ظن أنه محسن وقد قال تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُوْا صَدَقٰتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْاَذٰى﴾ [البقره:٢٦٤] والمن نتيجة استعظام الصدقة واستعظام العمل هو العجب فظهر بهذا أن العجب مذموم جدا.

بيان آفة العجب:

اعلم أن آفات العجب كثيرة فإن العجب يدعو إلى الكبر لأنه أحد أسبابه، كما ذكرناه فيتولد من العجب الكبر، ومن الكبر الآفات الكثيرة التي لا تخفى هذا مع العباد، وأما مع الله تعالى فالعجب يدعو إلى نسيان الذنوب وإهمالها فبعض ذنوبه لا يذكرها ولا يتفقدها لظنه أنه مستغن عن تفقدها فينساها وما يتذكره منها فيستصغره ولا يستعظمه فلا يجتهد في تداركه وتلافيه بل يظن أنه يغفر له، وأما العبادات والأعمال فإنه يستعظمها ويتبجح[2] بها ويمن على الله بفعلها وينسى نعمة الله عليه بالتوفيق والتمكين منها، ثم إذا أعجب بها عمي عن آفاتها ومن لم يتفقد آفات الأعمال كان أكثر سعيه ضائعاً فإن الأعمال الظاهرة إذا لم تكن خالصة نقية عن الشوائب قلما تنفع وإنما يتفقد من يغلب عليه الإشفاق والخوف دون العجب، والمعجب يغتر بنفسه وبرأيه ويأمن مكر الله وعذابه ويظن أنه عند الله بمكان وأن له عند الله منة وحقاً بأعماله التي هي نعمة نعمه وعطية من عطاياه، ويخرجه العجب إلى أن يثني

---

(١) ... المجروحين لابن حبان، الرقم: ٤٢٣ سلام بن ابى الصهباء الفزارى، ١/ ٣٤١.

(٢) أي يتفاخر. (اتحاف)

www.dawateislami.net

على نفسه ويحمدها ويزكيها، وإن أعجب برأيه وعمله وعقله منع ذلك من الاستفادة ومن الاستشارة والسؤال فيستبد[1] بنفسه ورأيه ويستنكف من سؤال من هو أعلم منه.

وربما يعجب بالرأي الخطأ الذي خطر له فيفرح بكونه من خواطره ولا يفرح بخواطر غيره فيصر عليه ولا يسمع نصح ناصح ولا وعظ واعظ، بل ينظر إلى غيره بعين الاستجهال ويصر على خطئه فإن كان رأيه في أمر دنيوي فيحقق فيه وإن كان في أمر ديني لا سيما فيما يتعلق بأصول العقائد فيهلك به ولو اتهم نفسه ولم يثق برأيه واستضاء بنور القرآن واستعان بعلماء الدين وواظب على مدارسة العلم وتابع سؤال أهل البصيرة لكان ذلك يوصله إلى الحق، فهذا وأمثاله من آفات العجب فلذلك كان من المهلكات. ومن أعظم آفاته أن يفتر[2] في السعي لظنه أنه قد فاز وأنه قد استغنى وهو الهلاك الصريح الذي لا شبهة فيه. نسأل الله تعالى العظيم حسن التوفيق لطاعته.

بيان حقيقة العجب والإدلال وحدّهما:

اعلم أن العجب إنما يكون بوصف هو كمال لا محالة، وللعالم بكمال نفسه في علم وعمل ومال وغيره حالتان:

إحداهما: أن يكون خائفاً على زواله ومشفقاً على تكدره أو سلبه من أصله فهذا ليس بمعجب.

والأخرى: أن لا يكون خائفاً من زواله لكن يكون فرحاً به من حيث إنه نعمة من الله تعالى عليه لا من حيث إضافته إلى نفسه وهذا أيضاً ليس بمعجب.

وله حالة ثالثة: هي العجب وهي أن يكون غير خائف عليه بل يكون فرحاً به مطمئناً إليه ويكون فرحه به من حيث أنه كمال ونعمة وخير ورفعة لا من حيث أنه عطية من الله تعالى ونعمة منه فيكون فرحه به من حيث أنه صفته ومنسوب إليه بأنه له لا من حيث أنه منسوب إلى الله تعالى بأنه منه فمهما غلب على قلبه أنه نعمة من الله مهما شاء سلبها عنه زال العجب بذلك عن نفسه.

فإذن العجب هو استعظام النعمة والركون إليها مع نسيان إضافتها إلى المنعم. فإن انضاف إلى ذلك إن غلب على نفسه أن له عند الله حقًّا وأنه منه بمكان حتى يتوقع بعمله كرامة في الدنيا واستبعد أن يجري عليه مكروه استبعاداً يزيد على استبعاده ما يجري على الفساق سمي هذا إدلالاً بالعمل فكأنه يرى لنفسه على الله دالة وكذلك قد يعطي غيره شيئاً فيستعظمه ويمن عليه فيكون معجباً فإن استخدمه أو اقترح عليه الاقتراحات أو استبعد تخلفه عن قضاء حقوقه كان مدلاً عليه.

---

(١) أي يستقل. (اتحاف)

(٢) أي يكسل. (اتحاف)

www.dawateislami.net

وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ﴾ [المدثر: ٦] أي لا تدل بعملك. وفي الخبر: ((**إِنَّ صَلَاةَ الْمُدِلِّ لَا تُرْفَعُ فَوْقَ رَأْسِهِ وَلَأَنْ تَصْحَكَ وَأَنْتَ مُعْتَرِفٌ بِذَنْبِكَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَبْكِيَ وَأَنْتَ مُدِلٌّ بِعَمَلِكَ**))[1].

والإدلال وراء العجب فلا مدل إلا وهو معجب وربّ معجب لا يدل، إذ العجب يحصل بالاستعظام ونسيان النعمة دون توقع جزاء عليه، والإدلال لا يتم إلا مع توقع جزاء فإن توقع إجابة دعوته واستنكر ردها بباطنه وتعجب منه كان مدلا بعمله لأنه لا يتعجب من رد دعاء الفاسق ويتعجب من رد دعاء نفسه لذلك فهذا هو العجب والإدلال وهو من مقدمات الكبر وأسبابه. والله تعالى أعلم.

بيان علاج العجب على الجملة:

اعلم أن علاج كل علة هو مقابلة سببها بضده وعلة العجب الجهل المحض فعلاجه المعرفة المضادة لذلك الجهل فقط فلنفرض العجب بفعل داخل تحت اختيار العبد كالعبادة والصدقة والغزو وسياسة الخلق وإصلاحهم فإن العجب بهذا أغلب من العجب بالجمال والقوة والنسب وما لا يدخل تحت اختياره ولا يراه من نفسه فنقول:

الورع والتقوى والعبادة والعمل الذي به يعجب إنما يعجب به من حيث إنه فيه فهو محله ومجراه أو من حيث إنه منه وبسببه وبقدرته وقوته فإن كان يعجب به من حيث إنه فيه وهو محله ومجراه يجري فيه وعليه من جهة غيره فهذا جهل لأن المحل مسخر ومجرى لا مدخل له في الإيجاد والتحصيل، فكيف يعجب بما ليس إليه؟ وإن كان يعجب به من حيث إنه هو منه وإليه وباختياره حصل وبقدرته تم فينبغي أن يتأمل في قدرته وإرادته وأعضائه وسائر الأسباب التي بها يتم عمله أنها من أين كانت له؟ فإن كان جميع ذلك نعمة من الله عليه من غير حق سبق له ومن غير وسيلة يدلي بها فينبغي أن يكون إعجابه بجود الله وكرمه وفضله إذ أفاض عليه ما لا يستحق وآثره به على غيره من غير سابقة ووسيلة فمهما برز الملك لغلمانه ونظر إليهم وخلع من جملتهم على واحد منهم لا لصفة فيه ولا لوسيلة ولا لجماله ولا لخدمة فينبغي أن يتعجب المنعم عليه من فضل الملك وحكمه وإيثاره من غير استحقاق وإعجابه بنفسه من أين وما سببه ولا ينبغي أن يعجب هو بنفسه، نعم يجوز أن يعجب العبد فيقول الملك حكم عدل لا يظلم ولا يقدم ولا يؤخر إلا لسبب فلولا أنه تفطن فيَّ صفة من الصفات المحمودة الباطنة لما اقتضى الإيثار بالخلعة ولما آثرني بها فيقال: وتلك الصفة أيضاً هي من خلعة الملك وعطيته التي خصصك بها من غيرك من غير وسيلة أو هي عطية غيره فإن كانت من عطية الملك أيضاً لم يكن لك أن تعجب بها بل كان كما لو أعطاك فرساً فلم تعجب به فأعطاك غلاماً فصرت

---

(١) ... المصنف لابن ابي شيبة، كتاب الزهد، كلام ابن منبه، الحديث: ١، ٨/٢٥١.

www.dawateislami.net

تعجب به وتقول: إنما أعطاني غلاماً لأني صاحب فرس فأمّا غيري فلا فرس له فيقال: وهو الذي أعطاك الفرس فلا فرق بين أن يعطيك الفرس والغلام معاً أو يعطيك أحدهما بعد الآخر فإذا كان الكل منه فينبغي أن يعجبك جوده وفضله لا نفسك.

وأما إن كانت تلك الصفة من غيره فلا يبعد أن تعجب بتلك الصفة وهذا يتصور في حق الملوك ولا يتصور في حق الجبار القاهر ملك الملوك المنفرد باختراع الجميع المنفرد بإيجاد الموصوف والصفة فإنك إن أعجبت بعبادتك وقلت: وفقني للعبادة لحبي له فيقال: ومن خلق الحب في قلبك؟ فتقول: هو، فيقال: فالحب والعبادة كلاهما نعمتان من عنده ابتدأك بهما من غير استحقاق من جهتك إذ لا وسيلة لك ولا علاقة فيكون الإعجاب بجوده إذ أنعم بوجودك ووجود صفاتك وبوجود أعمالك وأسباب أعمالك. فإذاً لا معنى لعجب العابد بعبادته وعجب العالم بعلمه وعجب الجميل بجماله وعجب الغني بغناه لأن كل ذلك من فضل الله وإنما هو محل لفيضان فضل الله تعالى وجوده، والمحل أيضاً من فضله وجوده.

فإن قلت: لا يمكنني أن أجهل أعمالي وأني أنا عملتها فإني أنتظر عليها ثواباً ولولا أنها عملي لما انتظرت ثواباً فإن كانت الأعمال مخلوقة لله على سبيل الاختراع فمن أين لي الثواب وإن كانت الأعمال مني وبقدرته فكيف لا أعجب بها؟ فاعلم أن جوابك من وجهين:

أحدهما: هو صريح الحق والآخر: فيه مسامحة.

أما صريح الحق: فهو أنك وقدرتك وإرادتك وحركتك وجميع ذلك من خلق الله واختراعه فما عملت إذ عملت وما صليت إذ صليت وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى فهذا هو الحق الذي انكشف لأرباب القلوب بمشاهدة أوضح من أبصار العين بل خلقك وخلق أعضاءك وخلق فيها القوة والقدرة والصحة وخلق لك العقل والعلم وخلق لك الإرادة ولو أردت أن تنفي شيئاً من هذا عن نفسك لم تقدر عليه ثم خلق الحركات في أعضائك مستبداً باختراعها من غير مشاركة من جهتك معه في الاختراع إلا أنه خلقه على ترتيب فلم يخلق الحركة ما لم يخلق في العضو قوة وفي القلب إرادة ولم يخلق إرادة مالم يخلق علماً بالمراد ولم يخلق علماً ما لم يخلق القلب الذي هو محل العلم فتدريجه في الخلق شيئاً بعد شيء هو الذي خيل لك أنك أوجدت عملك وقد غلطت. وإيضاح ذلك وكيفية الثواب على عمل هو من خلق الله سيأتي تقريره في كتاب الشكر فإنه أليق به فارجع إليه.

ونحن الآن نزيل إشكالك بالجواب الثاني الذي فيه مسامحة ما، وهو أن تحسب أن العمل حصل بقدرتك فمن أين قدرتك؟ ولا يتصور العمل إلا بوجودك ووجود عملك وإرادتك قدرتك وسائر أسباب عملك وكل ذلك من الله تعالى لا منك، فإن كان العمل بالقدرة فالقدرة مفتاحه وهذا المفتاح

www.dawateislami.net

بيد الله ومهما لم يعطك المفتاح فلا يمكنك العمل، فالعبادات خزائن بها يتوصل إلى السعادات ومفاتيحها القدرة والإرادة والعلم وهي بيد الله لا محالة، أرأيت لو رأيت خزائن الدنيا مجموعة في قلعة حصينة ومفتاحها بيد خازن ولو جلست على بابها وحول حيطانها ألف سنة لم يمكنك أن تنظر إلى دينار مما فيها ولو أعطاك المفتاح لأخذته من قريب بأن تبسط يدك إليه فتأخذه فقط فإذا أعطاك الخازن المفاتيح وسلطك عليها ومكنك منها فمددت يدك وأخذتها كان إعجابك بإعطاء الخازن المفاتيح أو بما إليك من مد اليد وأخذها؟ فلا تشك في أنك ترى ذلك نعمة من الخازن لأن المؤونة في تحريك اليد بأخذ المال قريبة وإنما الشأن كله في تسليم المفاتيح، فكذلك مهما خلقت القدرة وسلطت الإرادة الجازمة وحركت الدواعي والبواعث وصرف عنك الموانع والصوارف[1] حتى لم يبق صارف إلا دفع ولا باعث إلا وكل بك فالعمل هين عليك وتحريك البواعث وصرف العوائق وتهيئة الأسباب كلها من الله ليس شيء منها إليك، فمن العجائب أن تعجب بنفسك ولا تعجب بمن إليه الأمر كله ولا تعجب بجوده وفضله وكرمه في إيثاره إياك على الفساق من عباده؛ إذ سلط دواعي الفساد على الفساق وصرفها عنك وسلط أحداث السوء ودعاة الشر عليهم وصرفهم عنك ومكنهم من أسباب الشهوات واللذات وزواها عنك وصرف عنهم بواعث الخير ودواعيه وسلطها عليك حتى تيسر لك الخير وتيسر لهم الشر! فعل ذلك كله بك من غير وسيلة سابقة منك ولا جريمة سابقة من الفاسق العاصي، بل آثرك وقدمك واصطفاك بفضله وأبعد العاصي وأشقاه بعدله فما أعجب إعجابك بنفسك إذا عرفت ذلك!

فإذن لا تنصرف قدرتك إلى المقدور إلا بتسليط الله عليك داعية لا تجد سبيلاً إلى مخالفتها فكأنه الذي اضطرك إلى الفعل إن كنت فاعلاً تحقيقاً فله الشكر والمنة لا لك وسيأتي في كتاب التوحيد والتوكل من بيان تسلسل الأسباب والمسببات ما تستبين به أنه لا فاعل إلا الله ولا خالق سواه. والعجب ممن يتعجب إذا رزقه الله عقلاً وأفقره ممن أفاض عليه المال من غير علم فيقول: كيف منعني قوت يومي وأنا العاقل الفاضل! وأفاض على هذا نعيم الدنيا وهو الغافل الجاهل! حتى يكاد يرى هذا ظلماً ولا يدري المغرور أنه لو جمع له بين العقل والمال جميعاً لكان ذلك بالظلم أشبه في ظاهر الحال إذ يقول الجاهل الفقير: يا رب لم جمعت له بين العقل والغنى وحرمتني منهما؟ فهلا جمعتهما لي أو هلا رزقتني أحدهما وإلى هذا أشار علي رضي الله عنه حيث قيل له: ما بال العقلاء فقراء؟ فقال: إن عقل الرجل محسوب عليه من رزقه.

---

(١) أي المشاغل. (اتحاف)

www.dawateislami.net

والعجب أن العاقل الفقير ربما يرى الجاهل الغني أحسن حالاً من نفسه ولو قيل له: هل تؤثر جهله وغناه عوضاً عن عقلك وفقرك؟ لامتنع عنه. فإذن ذلك يدل على أن نعمة الله عليه أكبر فلم يتعجب من ذلك؟ والمرأة الحسناء الفقيرة ترى الحلي والجواهر على الدميمة القبيحة فتتعجب وتقول: كيف يحرم مثل هذا الجمال من الزينة؟ ويخصص مثل ذلك القبح! ولا تدري المغرورة أن الجمال محسوب عليها من رزقها وأنها لو خيرت بين الجمال وبين القبح مع الغنى لآثرت الجمال فإذن نعمة الله عليها أكبر. وقول الحكيم الفقير العاقل بقلبه: يا رب لم حرمتني الدنيا وأعطيتها الجهال؟ كقول من أعطاه الملك فرساً فيقول أيها الملك لم لا تعطيني الغلام وأنا صاحب فرس؟ فيقول: كنت لا تتعجب من هذا لو لم أعطك الفرس فهب أني ما أعطيتك فرساً أصارت نعمتي عليك وسيلة لك وحجة تطلب بها نعمة أخرى؟ فهذه أوهام لا تخلو الجهال عنها ومنشأ جميع ذلك الجهل ويزال ذلك بالعلم المحقق بأن العبد وعمله وأوصافه كل ذلك من عند الله تعالى نعمة ابتدأه بها قبل الاستحقاق وهذا ينفي العجب والإدلال ويورث الخضوع والشكر والخوف من زوال النعمة، ومن عرف هذا لم يتصور أن يعجب بعلمه وعمله إذ يعلم أن ذلك من الله تعالى، ولذلك قال داود عليه السلام: يا رب ما تأتي ليلة إلا وإنسان من آل داود صائم. وفي رواية ما تمر ساعة من ليل أو نهار إلا وعابد من آل داود يعبدك إما يصلي وإما يصوم وإما يذكرك فأوحى الله تعالى إليه يا داود ومن أين لهم ذلك؟ إن ذلك لم يكن إلا بي ولولا عوني إياك ما قويت وسأكلك إلى نفسك،. قال ابن عباس: إنما أصاب داود ما أصاب من الذنب بعجبه بعمله إذ أضافه إلى آل داود مدلا به حتى وكل إلى نفسه فأذنب ذنباً أورثه الحزن والندم وقال داود: يا رب إن بني إسرائيل يسألونك بإبراهيم وإسحاق ويعقوب فقال: إني ابتليتهم فصبروا فقال: يا رب وأنا إن ابتليتني صبرت فأدل بالعمل قبل وقته فقال الله تعالى: فإني لم أخبرهم بأيّ شيء أبتليهم ولا في أيّ شهر ولا في أيّ يوم وأنا مخبرك في سنتك هذه وشهرك هذا أبتليك غداً بامرأة فاحذر نفسك فوقع فيما وقع فيه. وكذلك لما اتكل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين على قوتهم وكثرتهم ونسوا فضل الله تعالى عليهم وقالوا: لا نغلب اليوم من قلة وكلوا إلى أنفسهم فقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥] روى ابن عيينة: أن أيوب عليه السلام قال: إلهي إنك ابتليتني بهذا البلاء وما ورد عليَّ أمر إلا آثرت هواك على هواي، فنودي من غمامة بعشرة آلاف صوت يا أيوب أنى لك ذلك؟ أي من أين لك ذلك؟ قال فأخذ رماداً ووضعه على رأسه وقال: منك يا رب منك يا رب، فرجع من نسيانه إلى إضافة ذلك إلى الله تعالى ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١] وقال

www.dawateislami.net

النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه وهم خير الناس: ((**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يُنْجِيهِ عَمَلُهُ**)) قالوا: ولا أنت يا رسول الله قال: ((**وَلا أَنَا إِلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِرَحْمَتِهِ**))[1] ولقد كان أصحابه من بعده يتمنون أن يكونوا تراباً وتبناً وطيراً مع صفاء أعمالهم وقلوبهم فكيف يكون لذي بصيرة أن يعجب بعمله أو يدل به ولا يخاف على نفسه؟ فإذن هذا هو العلاج القامع لمادة العجب من القلب ومهما غلب ذلك على القلب شغله خوف سلب هذه النعمة عن الإعجاب بها، بل هو ينظر إلى الكفار والفساق وقد سلبوا نعمة الإيمان والطاعة بغير ذنب أذنبوه من قبل فيخاف من ذلك فيقول: إن من لا يبالي أن يحرم من غير جناية ويعطى من غير وسيلة لا يبالي أن يعود ويسترجع ما وهب فكم من مؤمن قد ارتد ومطيع قد فسق وختم له بسوء. وهذا لا يبقى معه عجب بحال، والله تعالى أعلم.

بيان أقسام ما به العجب وتفصيل علاجه:

اعلم أن العجب بالأسباب التي بها يتكبر كما ذكرناه وقد يعجب بما لا يتكبر به كعجبه بالرأي الخطأ الذي يزين له بجهله فما به العجب ثمانية أقسام:

الأول: أن يعجب ببدنه في جماله وهيئته وصحته وقوته وتناسب أشكاله وحسن صورته وحسن صوته وبالجملة تفصيل خلقته فيلتفت إلى جمال نفسه وينسى أنه نعمة من الله تعالى وهو بعرضة الزوال في كل حال، وعلاجه ما ذكرناه في الكبر بالجمال وهو التفكّر في أقذار باطنه وفي أول أمره وفي آخره وفي الوجوه الجميلة والأبدان الناعمة أنها كيف تمزقت في التراب وأنتنت في القبور حتى استقذرتها الطباع.

الثاني: البطش والقوة كما حكي عن قوم عاد حين قالوا فيما أخبر الله عنهم: ﴿**مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً**﴾ [حم السجدة :١٥] وكما اتكل عوج على قوته وأعجب بها فاقتلع جبلاً ليطبقه على عسكر موسى عليه السلام فثقب الله تعالى تلك القطعة من الجبل بنقر هدهد ضعيف المنقار حتى صارت في عنقه، وقد يتكل المؤمن أيضاً على قوته كما روي عن سليمان عليه السلام أنه قال: لأطوفن الليلة على مائة امرأة، ولم يقل إن شاء الله تعالى فحرم ما أراد من الولد وكذلك قول داود عليه السلام: إن ابتليتني صبرت وكان إعجاباً منه بالقوة فلمّا ابتلي بالمرأة لم يصبر.

ويورث العجب بالقوة الهجوم في الحروب وإلقاء النفس في التهلكة والمبادرة إلى الضرب والقتل لكل من قصده بالسوء وعلاجه ما ذكرناه وهو أن يعلم أن حمى يوم تضعف قوته وأنه إذا أعجب بها ربما سلبها الله تعالى بأدنى آفة يسلطها عليه.

---

(١) ... صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة... الخ، الحديث: ٢٥٣٣، ص١٣٧١.

www.dawateislami.net

الثالث: العجب بالعقل والكياسة والتفطن لدقائق الأمور من مصالح الدين والدنيا، وثمرته الاستبداد بالرأي وترك المشورة واستجهال الناس المخالفين له ولرأيه ويخرج إلى قلة الإصغاء إلى أهل العلم إعراضاً عنهم بالاستغناء بالرأي والعقل واستحقاراً لهم وإهانة.

وعلاجه أن يشكر الله تعالى على ما رزق من العقل ويتفكر أنه بأدنى مرض يصيب دماغه كيف يوسوس ويجن بحيث يضحك منه فلا يأمن أن يسلب عقله إن أعجب به ولم يقم بشكره، وليستقصر عقله وعلمه، وليعلم أنه ما أوتي من العلم إلا قليلاً وإن اتسع علمه، وإن ما جهله مما عرفه الناس أكثر مما عرفه، فكيف بما لم يعرفه الناس من علم الله تعالى! وأن يتهم عقله وينظر إلى الحمقى كيف يعجبون بعقولهم ويضحك الناس منهم فيحذر أن يكون منهم وهو لا يدري. فإن القاصر العقل قط لا يعلم قصور عقله فينبغي أن يعرف مقدار عقله من غيره لا من نفسه، ومن أعدائه لا من أصدقائه، فإن من يداهنه يثني عليه فيزيده عجباً وهو لا يظن بنفسه إلا الخير ولا يفطن لجهل نفسه فيزداد به عجباً.

الرابع: العجب بالنسب الشريف كعجب الهاشمية حتى يظن بعضهم أنه ينجو بشرف نسبه ونجاة آبائه وأنه مغفور له ويتخيل بعضهم أن جميع الخلق له موال وعبيد.

وعلاجه أن يعلم أنه مهما خالف آباءه في أفعالهم وأخلاقهم وظن أنه ملحق بهم فقد جهل وإن اقتدى بآبائه فما كان من أخلاقهم العجب بل الخوف والإزراء على النفس واستعظام الخلق ومذمة النفس ولقد شرفوا بالطاعة والعلم والخصال الحميدة لا بالنسب، فليتشرف بما شرفوا به وقد ساواهم في النسب وشاركهم في القبائل من لم يؤمن بالله واليوم الآخر وكانوا عند الله شراً من الكلاب وأخس من الخنازير ولذلك قال تعالى: ﴿يٰٓاَيُّهَا النَّاسُ اِنَّا خَلَقْنٰكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ وَّ اُنْثٰى﴾ [الحجرات:١٣] أي لا تفاوت في أنسابكم لاجتماعكم في أصل واحد ثم ذكر فائدة النسب فقال: ﴿وَ جَعَلْنٰكُمْ شُعُوْبًا وَّ قَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوْا﴾ [الحجرات:١٣] ثم بين أن الشرف بالتقوى لا بالنسب فقال: ﴿اِنَّ اَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّٰهِ اَتْقٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] ولما قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم من أكرم الناس؟ من أكيس الناس؟ لم يقل من ينتمي إلى نسبي ولكن قال: ((**أَكْرَمُهُمْ أَكْثَرُهُمْ لِلمَوْتِ ذِكْرًا وَأَشَدُّهُمْ لَهُ اسْتِعْدَادًا**))[1] وإنما نزلت هذه الآية حين أذن بلال يوم الفتح على الكعبة فقال الحرث بن هشام وسهيل بن عمرو وخالد بن أسيد هذا العبد الأسود يؤذن! فقال تعالى: ﴿اِنَّ اَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّٰهِ اَتْقٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

---

(١) ... سنن ابن ماجة، كتاب الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد له، الحديث: ٤٢٥٩، ٤/٤٩٦ بتغير.

www.dawateislami.net

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((**إِنَّ اللهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عَيْبَةَ الْجَاهِلِيَّةِ**)) أي كبرها ((**كُلُّكُمْ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ**))(١) وقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((**يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ لا تَأْتِي النَّاسُ بِالأَعْمَالِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَتَأْتُوْنَ بِالدُّنْيَا تَحْمِلُونَهَا عَلَى رِقَابِكُمْ تَقُوْلُوْنَ يَا مُحَمَّدُ يَا مُحَمَّدُ فَأَقُوْلُ: هَكَذَا**))(٢) أي أعرض عنكم فبين أنهم إن مالوا إلى الدنيا لم ينفعهم نسب قريش ولما نزل قوله تعالى: ﴿وَاَنْذِرْ عَشِيْرَتَكَ الْاَقْرَبِيْنَ﴾ [الشعراء:٢١٤] ناداهم بطناً بعد بطن حتى قال: ((**يَا فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ يَا صَفِيَّةُ بِنْتُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ عَمَّةُ رَسُوْلِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اعْمَلا لأَنْفُسِكُمَا فَإِنِّي لا أُغْنِي عَنْكُمَا مِنَ اللهِ شَيْئًا**))(٣) فمن عرف هذه الأمور وعلم أن شرفه بقدر تقواه وقد كان من عادة آبائه التواضع اقتدى بهم في التقوى والتواضع، وإلا كان طاعناً في نسب نفسه بلسان حاله مهما انتمى إليهم ولم يشبههم في التواضع والتقوى والخوف والإشفاق.

فإن قلت: فقد قال صلى الله عليه وسلم بعد قوله لفاطمة وصفية: ((**إِنِّي لا أُغْنِي عَنْكُمَا مِنَ اللهِ شَيْئًا إِلا أَنَّ لَكُمْ رَحِمًا سَأَبُلُّهَا بِبِلالِهَا**))(٤) وقال صلى الله عليه وسلم: ((**أَتَرْجُوْ سُلَيْمٌ شَفَاعَتِي وَلا يَرْجُوْهَا بَنُو عَبْدِ الْمُطَّلِبِ**))(٥) فذلك يدل على أنه سيخصص قرابته بالشفاعة.

فاعلم أن كل مسلم فهو منتظر شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم والنسيب أيضاً جدير بأن يرجوها لكن بشرط أن يتقي الله أن يغضب عليه فإنه إن يغضب عليه فلا يأذن لأحد في شفاعته لأن الذنوب منقسمة إلى ما يوجب المقت فلا يؤذن في الشفاعة له وإلى ما يعفى عنه بسبب الشفاعة كالذنوب عند ملوك الدنيا فإن كل ذي مكانة عند الملك لا يقدر على الشفاعة فيما اشتد عليه غضب الملك فمن الذنوب ما لا تنجي منه الشفاعة وعنه العبارة بقوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُوْنَ اِلَّا لِمَنِ ارْتَضٰى﴾ [الأنبياء: ٢٨] وبقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِیْ یَشْفَعُ عِنْدَهٗۤ اِلَّا بِاِذْنِهٖ﴾ [البقرة:٢٥٥] وبقوله: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهٗۤ اِلَّا لِمَنْ اَذِنَ لَهٗ﴾ [سبأ: ٢٣] وبقوله: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشّٰفِعِيْنَ﴾ [المدثر:٤٨] .

وإذا انقسمت الذنوب إلا ما يشفع فيه وإلى ما لا يشفع فيه وجب الخوف والإشفاق لا محالة ولو كان كل ذنب تقبل فيه الشفاعة لما أمر قريشاً بالطاعة، ولما نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة رضي الله عنها عن المعصية، ولكان يأذن لها في اتباع الشهوات لتكمل لذاتها في الدنيا ثم يشفع

---

(١) . . . سنن ابی داود، کتاب الادب، باب فی التفاخر بالاحساب، الحدیث: ٥١١٦، ٤/٤٢٧.

(٢) . . . الادب المفرد للبخاری، باب الحسب، الحدیث: ٨٩٧، ص: ٢٣١.

(٣) . . . صحیح البخاری، کتاب الوصایا، باب ہل یدخل النساء . . . الخ، الحدیث: ٢٧٥٣، ٢/٢٣٨.

(٤) . . . صحیح مسلم، کتاب الایمان، باب فی قوله تعالی: وانذر عشیرتک الاقربین، الحدیث: ٢٠٤-٢٠٥، ص: ١٣١.

(٥) . . . المعجم الاوسط، الحدیث: ٦٢٤٧، ٣/٢٩٩.

www.dawateislami.net

لها في الآخرة لتكمل لذاتها في الآخرة، فالانهماك في الذنوب وترك التقوى اتكالا على رجاء الشفاعة يضاهي انهماك المريض في شهواته اعتماداً على طبيب حاذق قريب مشفق من أب أو أخ أو غيره، وذلك جهل لأن سعي الطبيب وهمته وحذقه تنفع في إزالة بعض الأمراض لا في كلها فلا يجوز ترك الحمية مطلقاً اعتماداً على مجرد الطب بل للطبيب أثر على الجملة ولكن في الأمراض الخفيفة وعند غلبة اعتدال المزاج، فهكذا ينبغي أن تفهم عناية الشفعاء من الأنبياء والصلحاء للأقارب والأجانب فإنه كذلك قطعاً وذلك لا يزيل الخوف والحذر وكيف يزيل وخير الخلق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه وقد كانوا يتمنون أن يكونوا بهائم من خوف الآخرة مع كمال تقواهم وحسن أعمالهم وصفاء قلوبهم وما سمعوه من وعد رسول الله صلى الله عليه وسلم إياهم بالجنة خاصة وسائر المسلمين بالشفاعة عامة ولم يتكلوا عليه ولم يفارق الخوف والخشوع قلوبهم فكيف يعجب بنفسه ويتكل على الشفاعة من ليس له مثل صحبتهم وسابقتهم!

الخامس: العجب بنسب السلاطين الظلمة وأعوانهم دون نسب الدين والعلم وهذا غاية الجهل، وعلاجه أن يتفكر في مخازيهم وما جرى لهم من الظلم على عباد الله والفساد في دين الله وأنهم الممقوتون عند الله تعالى ولو نظر إلى صورهم في النار وأنتانهم وأقذارهم لاستنكف منهم ولتبرأ من الانتساب إليهم ولأنكر على من نسبه إليهم استقذاراً واستحقاراً لهم ولو انكشف له ذلهم في القيامة وقد تعلق الخصماء بهم والملائكة آخذون بنواصيهم يجرونهم على وجوههم إلى جهنم في مظالم العباد لتبرأ إلى الله منهم ولكان انتسابه إلى الكلب والخنزير أحب إليه من الانتساب إليهم فحق أولاد الظلمة إن عصمهم الله من ظلمهم أن يشكروا الله تعال على سلامة دينهم ويستغفروا لآبائهم إن كانوا مسلمين، فأما العجب بنسبهم فجهل محض.

السادس: العجب بكثرة العدد من الأولاد والخدم والغلمان والعشيرة والأقارب والأنصار والأتباع كما قال الكفار: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا﴾ [سبأ :٣٥] وكما قال المؤمنون يوم حنين: لا نغلب اليوم من قلة، وعلاجه ما ذكرناه في الكبر وهو أن يتفكر في ضعفه وضعفهم وأن كلهم عبيد عجزة لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ثم كيف يعجب بهم وأنهم سيفترقون عنه إذا مات فيدفن في قبره ذليلاً مهيناً وحده لا يرافقه أهل ولا ولد ولا قريب ولا حميم ولا عشير فيسلمونه إلى البلى والحيات والعقارب والديدان ولا يغنون عنه شيئاً، وفي أحوج أوقاته إليهم، وكذلك يهربون منه يوم القيامة: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ﴾ [عبس:٣٤-٣٦] الآية فأيّ خير فيمن يفارقك في أشد أحوالك ويهرب منك وكيف تعجب به ولا ينفعك في القبر والقيامة

www.dawateislami.net

وعلى الصراط إلا عملك وفضل الله تعالى فكيف تتكل على من لا ينفعك، وتنسى نِعَم مَن يملك نفعك وضرّك وموتك وحياتك.

السابع: العجب بالمال كما قال تعالى إخباراً عن صاحب الجنتين إذ قال: ﴿**أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا**﴾ [الكهف:٣٤] ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً غنياً جلس بجنبه فقير فانقبض عنه وجمع ثيابه فقال عليه السلام: ((**أَخَشِيْتَ أَنْ يَعْدُوَ إِلَيْكَ فَقْرُهُ**))[1] وذلك للعجب بالغنى.

وعلاجه أن يتفكر في آفات المال وكثرة حقوقه وعظم غوائله وينظر إلى فضيلة الفقراء وسبقهم إلى الجنة في القيامة وإلى أن المال غاد ورائح ولا أصل له، وإلى أن في اليهود من يزيد عليه في المال وإلى قوله عليه الصلاة والسلام: ((**بَيْنَمَا رَجُلٌ يَتَبَخْتَرُ فِي حُلَّةٍ لَهُ قَدْ أَعْجَبَتْهُ نَفْسُهُ إِذْ أَمَرَ اللهُ الأَرْضَ فَأَخَذَتْهُ فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِيْهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**))[2] أشار به إلى عقوبة إعجابه بماله ونفسه وقال أبو ذر: كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل المسجد فقال لي: ((**يَا أَبَا ذَرٍّ ارْفَعْ رَأْسَكَ**)) فرفعت رأسي فإذا رجل عليه ثياب جياد ثم قال: ((**ارْفَعْ رَأْسَكَ**)) فرفعت رأسي فإذا رجل عليه ثياب خلقة فقال لي: ((**يَا أَبَا ذَرٍّ هَذَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ مِنْ قِرَابِ الأَرْضِ مِثْلَ هَذَا**))[3] وجميع ما ذكرناه في كتاب الزهد وكتاب ذم الدنيا وكتاب ذم المال يبين حقارة الأغنياء وشرف الفقراء عند الله تعالى، فكيف يتصور من المؤمن أن يعجب بثروته؟ بل لا يخلو المؤمن عن خوف من تقصيره في القيام بحقوق المال في أخذه من حله ووضعه في حقه ومن لا يفعل ذلك فمصيره إلى الخزي والبوار فكيف يعجب بماله.؟

الثامن: العجب بالرأي الخطأ، قال الله تعالى: ﴿**أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا**﴾ [فاطر:٨] وقال تعالى: ﴿**وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا**﴾ [الكهف:١٠٤] وقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ذلك يغلب على آخر هذه الأمة وبذلك هلكت الأمم السالفة إذ افترقت فرقاً فكل معجب برأيه وكل حزب بما لديهم فرحون. وجميع أهل البدع والضلال إنما أصروا عليها لعجبهم بآرائهم والعجب بالبدعة هو استحسان ما يسوق إليه الهوى والشهوة مع ظن كونه حقاً.

وعلاج هذا العجب أشد من علاج غيره لأن صاحب الرأي الخطأ جاهل بخطئه ولو عرفه لتركه، ولا يعالج الداء الذي لا يعرف، والجهل داء لا يعرف فتعسر مداواته جداً؛ لأن العارف يقدر على أن يبين للجاهل جهله ويزيله عنه إلا إذا كان معجباً برأيه وجهله فإنه لا يصغى[4] إلى العارف ويتهمه، فقد سلط الله عليه بلية تهلكه وهو يظنها نعمة فكيف يمكن علاجه وكيف يطلب الهرب مما

---

(١) ...الزيد للامام احمد بن حنبل، زيد يونس عليه السلام، الحديث: ٢٠٧، ص: ٧٥.

(٢) ...صحيح مسلم، كتاب اللباس، باب تحريم التبختر في المشي...الخ، الحديث: ٥٠(٢٠٨٨)، ص: ١١٥٦.

(٣) ...المسند للامام احمد بن حنبل، حديث ابي ذر الغفاري، الحديث: ٢١٤٥٣-٢١٤٥٤-٢١٤٥٥، ٨/٩١.

(٤) أي لا يميل. (جمهرة اللغة)

www.dawateislami.net

هو سبب سعادته في اعتقاده؟ وإنما علاجه على الجملة أن يكون متهما لرأيه أبداً لا يغتر به إلا أن يشهد له قاطع من كتاب أو سنة أو دليل عقلي صحيح جامع لشروط الأدلة، ولن يعرف الإنسان أدلة الشرع والعقل وشروطها ومكامن الغلط فيها إلا بقريحة تامة وعقل ثاقب وجد وتشمر في الطلب وممارسة للكتاب والسنة ومجالسة لأهل العلم طول العمر ومدارسة للعلوم ومع ذلك فلا يؤمن عليه الغلط في بعض الأمور. والصواب لمن لم يتفرغ لاستغراق عمره في العلم أن لا يخوض في المذاهب ولا يصغي إليها ولا يسمعها ولكن يعتقد أن الله تعالى واحد لا شريك له وأنه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير وأن رسوله صادق فيما أخبر به ويتبع سنة السلف ويؤمن بجملة ما جاء به الكتاب والسنة من غير بحث وتنقير وسؤال عن تفصيل، بل يقول: آمنا وصدقنا ويشتغل بالتقوى واجتناب المعاصي وأداء الطاعات والشفقة على المسلمين وسائر الأعمال، فإن خاض في المذاهب والبدع والتعصب في العقائد هلك من حيث لا يشعر. هذا حق كل من عزم على أن يشتغل في عمره بشيء غير العلم، فأما الذي عزم على التجرد للعلم فأول مهم له معرفة الدليل وشروطه وذلك مما يطول الأمر فيه، والوصول إلى اليقين والمعرفة في أكثر المطالب شديد لا يقدر عليه إلا الأقوياء المؤيدون بنور الله تعالى وهو عزيز الوجود جداً. فنسأل الله تعالى العصمة من الضلال ونعوذ به من الاغترار بخيالات الجهال.

تم كتاب ذم الكبر والعجب والحمد لله وحده، وحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

www.dawateislami.net

اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعٰلَمِيْنَ وَالصَّلٰوةُ وَالسَّلَامُ عَلٰى سَيِّدِ الْمُرْسَلِيْنَ اَمَّا بَعْدُ فَاَعُوْذُ بِاللّٰهِ مِنَ الشَّيْطٰنِ الرَّجِيْمِ بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ

دعوة للسنن

يتم بحمد الله تعالى تعليم وتعلّم السنن والآداب في البيئة المتدينة لمركز الدعوة الإسلامية العالمي الغير السياسي، الرجاء منكم الحضور في **الاجتماعات الأسبوعيّة** المليئة بالسنن التي تعقدها مركز الدعوة الإسلامية في بلادكم عقب صلاة المغرب كلّ يوم الخميس، وقضاء الليل كلّه فيها بالنيات الحسنة بقصد إرضاء الله وابتغاء وجهه، والسفر في **قوافل المدينة** مَعَ عشّاق الحبيب المصطفى صلّى الله تعالى عليه وسلّم بقصد حصول الثواب، ومحاسبة النفس يوميًّا بطريق ملء **كُتَيّب جوائز** المدينة (جَدْوَل الأعمالِ التربوية)، وتسليمه إلى المسؤول خلال العشرة الأيّام الأولى من كلّ شهرٍ، وذلك سيجعلكم تطبّقون السنّة، وتكرهون المعاصي وتفكّرون في الثبات على الإيمان إن شاء الله عزّوجلّ،

وعلى كلّ مسلم أن يضع هذا الهدف نصب عينَيه: **علي محاولةُ إصلاحِ نفسي وجميعِ أُناسِ العالَم** إن شاء الله عزّوجلّ، حيث يلزمني العملُ بجوائز المدينة للإصلاحِ النفسي، والسفرُ مَعَ قوافلِ المَدينةِ لمحاولة إصلاح جميع الناس في العالَم إن شاء الله عزّوجلّ.

ISBN 978-969-579-791-4
0101076
مكتبة المدينة MAKTABA TUL MADINAH
MC 1286

فيضانِ مدينه سوق الخضار السا بق حي سودا غران كراتشي، باكستان.
٩٢ ٢٦ ٢٥ ١١١ ٩٢٣+UAN التحويلة: ١٢٨٤
www.dawateislami.net Email: ilmia@dawateislami.net